



عناصر الموضوع

المجلد السابع عشر

مفهوم الرياح

أولًا: المعنى اللغوي:

إن أصل الياء في كلمة الريح واوٌ (روح)، ثم قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وأصل مادة (ر و ح) تدل على سعة وفسحة واطراد[1].

والريح: نسيم الهواء، وكذلك نسيم كل شيء[2]، وهي مؤنثة وتصغيرها رويحة، والريح مفرد، ويجمع تكسيرًا في الكثرة على رياح، وفي القلة على أرواح[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يعني: الهواء المتحرك[4].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٥٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٣٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.



الرياح في الاستعمال القرآني

وردت (الريح) في القرآن الكريم (٢٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	١٩	﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢]
جمع	١٠	﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]

وجاءت الريح في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

أحدها: الشدة والقوة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، يعني: قوتكم وشدتكم.

الثاني: ريح العذاب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر:١٩]، يعني: عذابًا.

الثالث: ريح الخير والرحمة، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم:٤٦].

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٢٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٥٩٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الهواء:

الهواء لغة:

هو الجو ما بين السماء والأرض، والجمع الأهوية[١].

الهواء اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، ويمكن أن يعرف تعريفًا علميًّا ويقال: غاز يغلف الكرة الأرضية ويتكون من الأزوت والأكسجين وغازات قليلة أخرى والجو[٢].

الصلة بين الهواء والريح:

الهواء أصل الرياح؛ إلا أنه ساكن في مكانه فمتى ما تحرك صار رياحًا أو ريحًا.

٢ الإعصار:

الإعصار لغة:

قال الزجاج: «الإعصار الرياح التي تهب من الأرض وتثير الغبار فترتفع كالعمود إلى نحو السماء، وهي التي تسميها الناس الزوبعة، وهي ريح شديدة لا يقال لها إعصار حتى تهب كذلك بشدة»[٣].

الإعصار اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، يقول الزمخشري عن معنى لفظ الإعصار: «هي الريح التي تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود»[٤]. ويقول الطوسي أيضًا: «الإعصار: غبار يلتف بين السماء والأرض كالتفاف الثوب في العصير»[٥].

الصلة بين الإعصار والريح:

الإعصار نوع من أنواع الرياح القوية، وليس كل ريح إعصارًا.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٧٠.
(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٧٨.
(٤) الكشاف ١/ ٣٤١.
(٥) التبيان في تفسير القرآن ٢/ ٣٤٢.



الرياح آية من آيات الله

لله عز وجل في هذا الكون آيات كثيرة لا تعد ولا تحصى، تدل دلالةً واضحةً على وحدانيته وقدرته وعظمته وحكمته، ومن هذه الآيات آية الريح، وهي خاضعة لأمر الله وتقديره، فهو المتصرف في أحوالها، ومن تلك الأحوال:

١ . إرسال الرياح.

قال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦].

أي: ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدمه[١].

ويذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: المطر الذي ينزّله فيحيي به العباد والبلاد[٢].

ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود والملك المحمود، ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بإثارتها للسحاب ثم جمعها فتبشّر بذلك النفوس قبل نزوله[٣].

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان:٤٨].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٣].

٢ . إسكان الرياح.

قال عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى:٣٣].

فمن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخيره البحر؛ لتجري فيه الفلك بأمره وهي: الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك، أي: هذه في البحر كالجبال في البر، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ أي: التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: على وجه الماء، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إن في تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٤، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٣.

تعالى على خلقه، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء[1].

وإنها لتركد أحيانا فتهمد هذه الجواري، وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور، والصبر والشكر كثيرًا ما يقترنان في القرآن، الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء[2].

فما شاء الله كان، وسبحان من جعل في ذلك آيةً، وما يذكر إلا من وفقه الله.

٣. تصريف الرياح.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية:٣-٥].

وزعم بعض أهل العربية أنّ معنى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، أنها تأتي مرّة جنوبًا وشمالًا وقبولًا ودبورًا، ثم قال: وذلك تصريفها[3]، وهذه الصفة التي وصف الرياح بها، صفة تصرّفها لا صفة تصريفها، لأن (تصريفها) تصريف الله لها، (وتصرّفها) اختلاف هبوبها.

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، تصريف الله تعالى ذكره هبوب الريح باختلاف مهابّها...

فأما معنى قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾، فإنه علامات ودلالاتٌ على أن خالق ذلك كلّه ومنشئه، إله واحدٌ لمن عقل مواضع الحجج، وفهم عن الله أدلته على وحدانيته، فأعلم تعالى ذكره عباده، بأنّ الأدلة والحجج إنما وضعت معتبرًا لذوي العقول والتمييز، دون غيرهم من الخلق، إذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي، والمكلفين بالطاعة والعبادة، ولهم الثواب، وعليهم العقاب[4].

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ فهذه العبارة الموجزة في كلماتها وراءها حقائق علمية رائعة، فهذه الرياح التى هي الهواء المتحرك فوق غلاف الأرض الجوي إنما تتحرك بتأثير حرارة الشمس التي تجعله يخف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٩١، وانظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٧١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٥٩.
(٣) انظر: ما قاله الفراء في معاني القرآن ١/ ٩٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٧٦.

ويرتفع ويحل محله هواء بارد ثقيل يندفع نحو منطقة الضغط المنخفض بنظام دقيق، فيه تصريف للرياح وتوجيه لها في هبوبها من مكان إلى مكان معين، وينشأ عن حركة الرياح نتائج لها أهميتها في حياة الناس فهي تسوق السحاب المطرة إلى الأرض المجدبة، وتساعد السفن الشراعية في سيرها، وتحمل اللقاح إلى النباتات النامية وتوزع الحرارة والبرودة في دورات منتظمة على الأرض وغير ذلك من حكمة الله في تصريف الرياح... وقد أثبت العلم الدورة الهوائية على سطح الكرة الأرضية وكيف يكون تصريفها من جهة إلى أخرى[1].

ويرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة... وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقا لأن به يحصل الرزق فأحيا به الأرض بعد موتها أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء[2].

وذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته:

الأول: منها خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه، وآياته؛ فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم؛ ولذا قال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جدًا كما هو معلوم[3].

وهذا يدل دلالةً واضحةً على أن الرياح آية عظيمة وجند قوي من جنود الله تعالى.

وفي الرياح من العبر: هبوبها وسكونها ولينها وشدتها واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابّها وتصريفها وتنوع منافعها وشدة الحاجة إليها... وهي مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثّر والتأثير، لطيفة المسارق بين السماء والأرض، إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ١/ ٩٥، موسوعة الإعجاز العلمي، النابلسي ٢/ ٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٣.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٧٩.

إذا شاء ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الآذان والرائحة إلى الأنف والسحاب إلى الأرض الجزر، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لما خلق الله الأرض جعلت تميد؛ فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت؛ فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله**)[1]... والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته[2].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، الباب الأخير، ٥/ ٣١٤، رقم ٣٣٦٩.
وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ١٩٢٣.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص ١٧٣.

صفات الرياح

ذكر العلماء كما تقدم معنا حالات للرياح إذا كانت ملازمةً لها سميت باسمها، وقد وردت في ثنايا القرآن الكريم صفات خاصة بعضها للرياح و البعض الآخر للريح، ويمكن أن نتحدث عنها كما يلي:

أولًا: صفات الرياح:

١ . المبشرات.

وأصل البشارة الخبر السار والبشور من الرياح التي تبشر بالمطر[3]، فهو الخبر الصدق السار الذي ليس عند المخبر به علمه، ووجود المبشر به وقت البشارة ليس بلازم[4].

وقد مر معنا ذلك كقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم:٤٦].

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٣].

فالبشر جمع البشير؛ لأن الريح تبشر بإتيان المطر بعدها فهي بشير المطر... فإجراء الريح وانتشارها من ههنا وهاهنا أمام

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٨.

(٤) الكليات، الكفوي ص٣٥٥.

المطر مبشرة به من غرائب صنعه وعجائبه، ومن عظائم نعمه على خلقه[1].

٢. الذاريات.

وذرّته الريح تذروه وتذريه[2]، يعني: الرياح تذرو التربة وغيره[3].

وقد ورد ذكرها في قوله عز وجل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾ [الذاريات:١].

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذروا، في هبوبها ﴿ذَرْوًا﴾ بلينها، ولطفها، ولطفها وقوتها، وإزعاجها[4].

وبيّن أن هذا الذّرو من فعل الرياح فقال عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف:٤٥].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: ما فيها من الحب، فشبّ وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح هشيمًا يابسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال[5].

ثانيًا: صفات الريح:

١. صرصر.

وريح صرصر شديدة البرد وشديدة الصوت معًا[6].

وقد جاء ذكرها في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت:١٦].

واختلف أهل التأويل في معنى الصرصر، فقال بعضهم: عني بذلك أنها ريح شديدة... وقال آخرون: بل عني بها أنها باردة... وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد، وذلك أن قوله: ﴿صَرْصَرًا﴾ إنما هو صوت الريح إذا هبت بشدة، فسمع لها[7].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر:١٩]، أي: شديدةً جدًّا[8].

وقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة:٦]، أي: شديدة العصوف والبرد عاتية أي: متجاوزة الحد المعروف في الهبوب والبرودة[9]، فظهر أن أهم معنى لهذه الصفة هو الشدة.

(١) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٢٧.
(٣) الكليات، الكفوي ص٧٣١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٥.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٢، الكليات، الكفوي ص٨٩٤.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٦.
(٩) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٠٩.

٢. عاصف.

عصفت الريح تعصف عصوفًا وأعصفت وهي عاصف وعاصفة: اشتدت[(١)].

وورد ذكر الريح بهذه الصفة في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾، أي: بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك؛ إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، أي: شديدة، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾[(٢)].

وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلًا، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا[(٣)].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء:٨١]

والمعنى: وسخّرنا لسليمان الريح عاصفةً أي: شديدة الهبوب تجري بأمره يعني: بأمر سليمان إلى الأرض الّتي باركنا فيها وهي أرض الشام... والمعنى: أنها كانت تسير به إلى حيث شاء، ثم تعود به إلى منزله بالشام[(٤)].

٣. قاصف.

انقصف الشيء انكسر وبان[(٥)]، والقاصف الريح الشديدة التي تقصف الشجرة وتكسرها، وكذلك البناء وغيره[(٦)].

وقد ورد ذكر هذه الصفة للريح في قوله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً

(١) انظر: المخصص، ابن سيده ٢/ ٤١٥، الكليات، الكفوي ص١٠٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٤٩.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٠٤.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٤٠.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٩٠، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٨٣.

﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء:٦٨-٦٩].

أي: يقوي دواعيكم لركوب البحر تارة أخرى؛ فيرسل عليكم قاصفا من الريح، أي: ريحا شديدة لا تمر بشيء إلا قصفته؛ فتكسر السفينة وسط البحر فيغرقكم بما كفرتم[١].

٤. مصفرًّا.

الصّفرة: لونٌ من الألوان التي بين السّواد والبياض، وهي إلى السّواد أقرب، ولذلك قد يعبّر بها عن السّواد[٢].

ووردت هذه الصفة للريح في قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم:٥١].

يقول تعالى: ولئن أرسلنا ريحا يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفرا، أي قد اصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعده، أي بعد هذا الحال، يكفرون، أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم[٣].

٥. عقيم.

العقيم: التي لا يستفاد منها، وهو ضد اللقاح[٤]، والريح العقيم: التي لا يكون معها لقح، أي لا تأتي بمطر، إنما هي ريح الهلاك[٥]، فلا تلقح سحابا ولا شجرا[٦].

ووردت هذه الصفة للريح في قوله عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

وهي وإن ذكرت معرفة، فالمعرّف نكرة؛ لأن تلك الريح منكّرة كأنه يقول: وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة[٧]، يعني التي لا خير فيها ولا بركة، فلا تلقح شجرًا ولا تحمل مطرًا[٨].

٦. السكون.

وهو ثبوت الشيء بعد تحرك[٩]، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣]، أي: يسكن الريح التي تجري بها السفن، فيظللن أي: السفن، رواكد أي: سواكن ثوابت على ظهر

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٩١، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٧٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٠.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٧٩.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٨٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٧٦.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٤٨.
(٨) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٩٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٧٦.
(٩) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٧.

البحر[1].

ثالثًا: صفات أخرى:

١ . سموم.

والسّموم: الرّيح الحارّة التي تؤثّر تأثير السّمّ[2]، والسموم بالنهار، وقد تكون بالليل[3]، وهي: الريح الحارة... تكون غالبًا بالنهار والحر الشديد النافذ في المسام[4].

وقد ذكرت كصفة للريح التي تأتي من حر جهنم أعاذنا الله برحمته منها، وذلك في قوله عز وجل: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٧-٢٨].

وقد تستعمل السموم في لفح البرد، وهي في لفح الحر والشمس أكثر[5]، أي: العذاب الحار الشديد حرّه[6]، و أصله: اسم للريح التي تهبّ من جهة حارّة جدًا فتكون جافّة شديدة الحرارة، وهي معروفة في بلاد العرب تهلك من يتنشّقها، وأطلق هنا على ريح جهنم على سبيل التقريب بالأمر المعروف[7].

٢ . حرور.

الحرور الريح الحارة وهي بالليل كالسموم بالنهار[8].

وقد ذكرت هذه الصفة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١﴾ [فاطر:١٩-٢١].

والحرور الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار[9]، والقول في ذلك: أن الحرور يكون بالليل والنهار، غير أنه في هذا الموضع... أشبه مع الشمس؛ لأن الظل إنما يكون في يوم شمس، فذلك يدل على أنه أريد بالحرور: الذي يوجد في حال وجود الظل[10].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦١٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٢٤٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٢٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٠٢.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٥١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٧٠.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٥.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٥٧.
(٨) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٢٧٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٧٧.
(٩) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٦٥.
(١٠) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٧.

منافع الرياح

جعل الله عز وجل في الريح بعض المنافع للناس، ومن تلك المنافع:

١ . الرياح سبب حمل المطر لإحياء الأرض الميتة.

قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:٥٧].

قرأه أكثر السبعة: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ بالجمع، وقرأه بعض السبعة: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ بالإفراد، وعلى قراءة الإفراد فالمراد الجنس، فلا تنافي قراءة الإفراد قراءة الجمع[١].

ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النّشر، الذي هو خلاف الطي، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة[٢].

أي: إن ربكم المدبّر لأمور الخلق، هو الذي يرسل الرياح بين يدي رحمته، أي: بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها، فينشئ بها سحابًا ثقالًا لكثرة ما فيها من الماء، حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء ساقها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجدب أهله[٣].

يضاف إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان:٤٨-٥٠].

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يقم الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨] أي: آلة يتطهر بها كالسحور والوقود وما جرى مجراهما، فهذا أصح ما يقال في ذلك[٤].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

فالإثارة: رفع الشيء المستقر وقلبه بعد

(١) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٣.
وانظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص٢٧٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٧٧.
(٣) تفسير المراغي ٨/ ١٨٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٤.

استقراره، أي: تسوقه وتدفعه من مكان إلى مكان، وأطلقت الإثارة هنا على قلب تراب الأرض بجعل ما كان باطنًا ظاهرًا وهو الحرث[1].

وإذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرّر وقوعه جيء بفعل الماضي في قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾، وأما تغييره إلى المضارع في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فلحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي فيه خصوصية بحال تستغرب وتهم السامع[2].

وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين فعلين ماضيين، وهما قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾ ﴿فَسُقْنَاهُ﴾، والسر في مثل هذا، هو أن الفعل المستقبل يوضح الحال، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن الإنسان يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عطف؛ لأنه لا يعطي هذا المعنى ولا يدل عليه، فإذا قال ﴿فَتُثِيرُ﴾، على جهة الاستقبال بعد ما مضى قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾. فإنما يكون دالاً على حكاية الحال التي تقع فيها إثارة الريح للسحاب، واستحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة[3].

فكانت الرياح التي تؤثر في هذا المطر معينة له في إحياء الأرض بعد موتها، حيث قال عزوجل: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ [الزخرف:١١]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:٩-١١].

٢. الرياح سبب لجريان الفلك في البحر وغيره.

من النعم العظيمة التي منّ الله عز وجل بها على عباده نعمة جريان الفلك في المياه بأمره[4].

والفلك: السّفينة، ويستعمل ذلك للواحد والجمع[5]، وجاء عن مجاهد أنها السفن في البحار[6].

ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك صراحة، قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٥٧.
(٢) المصدر السابق ٢٢/ ٢٦٨.
(٣) الطرّاز لأسرار البلاغة، يحيى بن حمزة ٢/ ٧٤.
(٤) وهذا الأمر: أمر قدري كوني. انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٥.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٣.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

وهذه نعمة عظيمة أن كانت الريح سبباً لجريان الفلك، فإن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية(١)؛ فالذي أجرى الفلك في البحر لنيل الخير هو الريح الطيب، ولو اشتد بهم لكان به الهلاك.

وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم:٤٦]، أي: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بهذه الرياح(٢).

وقد وردت آيات أخرى امتن الله عز وجل بها على عباده؛ بأن جعل الفلك تجري بهم؛ لينالوا منافعهم في البر والبحر، ويعلم بها أن الفلك لا تجري إلا بمساندة الريح لها وذلك في قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم:٣٢]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المزن ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: تعيشون به، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإرادته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: فتجري حيث تشاؤون من شرب وسقي وسواهما(٣).

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٤].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر في البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم(٤).

وقوله عز وجل: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء:٦٦].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣١-٣٢].

أي: ليريكم بعض آياته، وهو جري السفن في البحر بالريح(٥)، وقوله عز

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣٢.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٧٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣١٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢١٨.

وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر:١٢]؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبةً فراتاً، سائغاً شرابها، ليتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات ؛ ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ[1].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر:٧٩-٨٠].

وعلى الأنعام، وعلى السفن تحملون على هذه في البر، وعلى هذه في البحر[2]، وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية:١٢].

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى؛ فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية[3].

وقد ثبت علمياً أن كل المراكب التي تستخدم كافة أنواع الوقود، وتتحرك بالمراجل البخاري، يمكن أن تتوقف تماماً؛ إذا توقفت الريح؛ لأن وسيلة احتراق هذا النوع من الطاقة هي غاز الأوكسجين الموجود في الريح[4].

٣. الرياح سبب لتلقيح السحاب والنبات.

من المنافع التي ذكرها القرآن الكريم في حديثه عن الرياح، تلقيح السحاب لإنزال المطر وتلقيح النبات لإخراج الثمر، وذلك كما في قوله عزوجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢].

واختلف أهل العربية في وجه وصف الرياح باللقح، وإنما هي ملقحة لا لاقحة، وذلك أنها تلقح السحاب والشجر، وإنما توصف باللقح الملقوحة لا الملقح... والصواب من القول في ذلك عندي: أن الرياح لواقح كما وصفها به جلّ ثناؤه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٤.
(٤) انظر: إيجاز البيان في إعجاز القرآن، فؤاد البنّا ص١١٤.

من صفتها، وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء ، وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه[1].

ومعنى الإلقاح: أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين ، فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماءً في الجو ثم ينزل مطرًا على الأرض؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح... ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العملين اللّذين تعملهما الرياح، وقد فسرت الآية بهما، واقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر[2].

وقد أثبت العلم الحديث أن من وسائل تلقيح النبات الرياح؛ لأنها تنقل الملقحات من عضو التذكير النباتي إلى عضو التأنيث النباتي[3].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ ﴾ [فاطر:٩].

وقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨ ﴾ [الروم:٤٨].

إن الحقائق التي ذكرتها آيات القرآن الكريم عامةً وما يتعلق منه بتأثير الرياح في إنشاء السحب وتلقيحها وتشكيلها، ثم نزول المطر أو البرد منها، هذه الحقائق من أعجب الأمور وأدقها... والأصل في تكوين السحب على اختلاف أنواعها وأشكالها إنما هي الرياح.

وحقيقة أخرى أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ ﴾ [الحجر:٢٢].

فقد حملها كثير من المفسرين على أن الرياح اللواقح تلقح النباتات فتحمل الطّلع من الذكر إلى الأنثى فتلقح بويضاتها، والحقيقة أن هذا الأمر مما يتحقق بواسطة الرياح، إلا أن سياق الآية في هذا المقام لا يحتمل ذلك بل يشير إلى حقيقة أخرى أدق وهي تلقيح السحب.

وقد توصل العلم الحديث إلى أن نمو السحب ونزول المطر يتطلب أن تلقّح الرياح هذه السحب... وعلى هذا النحو عرف الناس الآن أن الآية الكريمة إنما تشير

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٨٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٤.
(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن، القطان ص٢٨١.

إلى تلقيح الرياح للسحب ببخار الماء... لكي تجود بالمطر[(١)].

فتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة أولاً فتثيره بين السماء والأرض، ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقاً واحداً، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لا ماء فيه، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك، ثم سخرت له بعد إعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملةً لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرقه فتجعله قطرًا، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيمًا.

وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر، ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها، وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح؛ فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد.

ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو؛ فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته[(٢)].

٤. تسخير الرياح لسليمان عليه السلام.

من المنافع المهمة التي ذكرت في القرآن الكريم عن الرياح، المنفعة العظيمة التي كانت لنبي الله سليمان عليه السلام وذلك من تمام النعمة والملك الذي وهبه الله عز وجل إياه.

وسليمان عليه السلام هو: سليمان بن داود... بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ورث عن أبيه الملك والنبوة[(٣)].

وقد ميّزه الله عز وجل بملك خاص عن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يوضح ذلك حديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله**

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٩٥-١٩٦.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢١٧.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٢٨٤.

منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي)، قال روح: «فرده خاسئًا»[(١)].

ومن ما جاء في حديث القرآن الكريم عن الريح التي سخرها الله عز وجل لنبيه سليمان عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء:٨١].

أي: وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفةً، أي: شديدة الهبوب... تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به[(٢)].

فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة وإذا أراد اللين سارت رخاء، والمقام قرينة على أن المراد المواتاة لإرادة سليمان[(٣)].

و﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام بيت المقدس، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ:١٢].

غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر[(٥)]، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين[(٦)].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص:٣٦]، ليست بالعاصف ولا باللينة بين ذلك، ومطيعة له حيث أراد[(٧)].

وسخّر له الريح بدلًا من الأفراس، فلا يحتاج في إمساكها إلى العلف والمؤن[(٨)].

تنبيه: اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤالين معروفين:

الأول: أن يقال: إن الله وصف الريح المذكورة في سورة الأنبياء بأنها عاصفة، أي: شديد الهبوب، ووصفها في سورة (ص) بأنها تجري بأمره رخاء، والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني: هو أنه في سورة الأنبياء خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة (ص) قال:

(١) صحيح البخاري ١/ ٩٩، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، رقم ٤٦١.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٤. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٢، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٣٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٦٢، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٨٣.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٩٢.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٩٣.
(٨) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٢٥٧.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها على الريح، فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين:

الوجه الأول: أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة، كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاءً حيث أصاب.

الوجه الثاني: هو ما ذكره الزمخشري قال: «فإن قلت: وصفت هذه الريح بالعصف تارة بالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما ؟ قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم»[1].

وأما الجواب عن السؤال الثاني: فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام، وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ في حالة الذهاب، وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى؛ فانفكت الجهة فزال الإشكال[2].

والأصل أنها ريح عاصف شديدة؛ ولما كانت مسخرة لسليمان عليه السلام كان زمام أمرها بيده، فلا تراها تسير إلا في أمور الخير.

(١) الكشاف، ٣/ ١٣٠.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٥.

الرياح جند من جنود الله تعالى

من المعاني التي جاءت في القرآن الكريم مختصة بالريح، معنيان مهمان:

الأول: نصرة عباد الله المؤمنين بمساعدة الرياح لهم.

والثاني: هلاك الكافرين بتسليط الريح عليهم.

وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرياح نصرة للمؤمنين:

وذلك في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

يقول تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي أنعمها على جماعتكم ، وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: جنود الأحزاب: قريش، وغطفان، ويهود بني النضير ، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي فيما ذكر: ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورهم على أفواهها؛ فضرب الله وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله بالريح[1].

ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين[2].

والريح المذكورة هنا : هي ريح الصّبا ، وكانت باردة وقلعت الأوتاد والأطناب، وسفت التراب في عيونهم ، وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم[3].

وبسبب تلك الريح وتلك الجنود ردّهم الله عز وجل بغيظهم وكفى الله عز وجل المؤمنين القتال[4].

ولذا جاء عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)**[5].

فالمسلمون إذا استمسكوا بالدين غلبوا الأعداء، وهذا الذي ذكر الله يوم الخندق شيئاً ما كان في حسبانهم، وما كانوا يظنونه، فهو أمر إلهي من الله... فالحاصل: أن القرآن لا يأمر بالتكاسل والتواكل، بل إنما يأمر بالقوة والاستعداد لكل هجوم، والمتمسك به أيضًا لو بوغت قبل أن يستعد،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٤، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٢١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٧٩.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٣٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا، ٢/ ٣٤، رقم ١٠٣٥.

أو في حالة ضعف فإن الله يقوّيه وينصره على عدوه بالطرق التي يعلمها هو وحده، وإن لم تكن في حسبان المسلمين، كما نصر أهل الأحزاب بالريح وبجنود لم يروها، نصرهم بالريح، كلما نصبوا -أي: جنود الكفر- خباءً في البر نسفته الريح، وكلما وضعوا قدرًا ليطبخوا فيه نسفته الريح، فبقوا مثلًا لا قرار لهم، لا كنّ يكنهم، ولا طعام يأكلونه، فاضطروا للفرار، حتى قال رئيسهم أبو سفيان بن حرب: ارتحلوا وأنا أول مرتحل[1].

ثانيًا: الرياح عذاب للكافرين:

جاءت الريح في القرآن الكريم تحمل معنى العذاب الذي عذّب الله عز وجل به الكافرين، وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف:٢٤].

وهذا الحديث في شأن قوم عاد ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هودًا، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف، وهو الرمل المستطيل المرتفع، كذبوا نبيهم؛ فلما جاءهم عذاب الله الذي استعجلوه، فرأوه عارضًا في ناحية من نواحي السماء، متجها نحو مزارعهم ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ أي: سحاب ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: بغيث نحيا به، ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود: بل هو ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

والريح التي عذّبوا بها؛ نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هود من بين أظهرهم... قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشف عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها[3].

وقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٥٥٠.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٦.

أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية ؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جدا، ابتدءوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة[١].

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم، وإنه الخزي في الحياة الدنيا، الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد[٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات:٤١].

أي: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام[٣].

ووصفت بالعقم؛ لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنّها لم تتضمن خيرًا ما، من إنشاء مطرٍ أو إلقاح شجرٍ[٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة:٦].

أي: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ باردة، قال قتادة والسدي والربيع بن أنس والثوري: عاتية أي: شديدة الهبوب، وقال قتادة: عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحاك: صرصر باردة عاتية عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي وغيره: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب.

فسخرها عليهم ، أي: سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما أي: كوامل متتابعات مشائيم[٥].

وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس أنهما قالا: إنه لم ينزل من السماء قطرة ماء إلا بمكيال على يد ملك ولا هبت ريح إلا كذلك إلا ما كان من طوفان نوح وريح عاد، فإن الله أذن لهما في الخروج دون إذن الخزان[٦].

والريح في القرآن الكريم ما ذكرت أنها جاءت كعذاب أليم شديد متتابع إلا على قوم عاد، وذلك -والله أعلم- لأن الله عز وجل ذكر صفتهم في القرآن بأجمع وصف فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر:٦-٨].

يعني: مثل عاد، والهاء عائدة على عاد، وجائز أن تكون عائدة على إرم، وهي: بلدة كانت عاد تسكنها ، وإنما عني بقوله :

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٨ .
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٥.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٧.

﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ في العظم والبطش والأيد، وبنحو ذا قال أهل التأويل[١].

فلم يصنع مثلها في البلاد؛ لأنها قوية ومحكمة، وهذا هو الذي غرهم وقالوا: من أشد منا قوة؟[٢].

فكانوا من أشد الناس كفرًا، وأقواهم جحودًا، فأهلكهم الله عز وجل ليعتبر بذلك ويتعظ من كان دونهم.

فاستكبروا، أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وإن بطشه شديد؛ فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته وعصوا رسوله[٣].

و أخبر الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت، من جهة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال عز وجل: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:٦٩].

وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد،والأرزاق الدارة،والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هودا عليه السلام إليهم ، رجلا منهم رسولا وبشيرا ونذيرا، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه... استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن[٤].

ويكفي في وصفها قوله عز وجل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف:٢٥].

ولما كانوا مكذبين لرسولهم، صاروا بذلك مكذبين لجميع الرسل؛ واستحقوا هذا النوع من العذاب الأليم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٠٧.
(٢) انظر: تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص ١٧١، تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص٨٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٣٨.

الرياح في المثل القرآني

ضرب الله عز وجل أمثالا كثيرة في القرآن الكريم، بآيات كثيرة ومخلوقات عظيمة، تختلف بحسب سياقها في القرآن الكريم.

والمثل: والمثل عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١][١].

وإذا نظرنا وجدنا أن القصد من ضرب الأمثال هي العظة والعبرة، واعتبار الإنسان بما يعرف ويشاهد أبلغ في العظة والخوف[٢].

وقد جاءت الريح في أمثال القرآن الكريم، كما سنجمله في النقاط الآتية:

أولا: الرياح:

١ . ضرب الرياح مثلًا للحياة الدنيا.

وذلك كما ورد في قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

أي: فالتفّ بسببه وتكاثف، حتى خالط بعضه بعضًا، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: بعد ذلك الزّهو ﴿هَشِيمًا﴾ أي: جافًا يابسا مكسورا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي: تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصل للنبات من شرف النموّ، ثم يزولون زوال النبات، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة[٣].

وعبّر عن هذا المعنى بـ﴿تَذْرُوهُ﴾، لما في ذرا، يذرو من معنى الارتفاع، والسرعة. يقال: ذرا فلان يذرو: ارتفع، ومرّ مرًّا سريعًا، ومنه سمّيت الرياح بالذاريات. قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ①﴾ [الذاريات: ١]، وإنما سميت بذلك؛ لأنها تحمل التراب، أو الهشيم عاليًا، وتفرقه بسرعة في كل جهة؛ بحيث يستحيل إعادته كما كان[٤].

وتدل الآية على زينة الدنيا الخادعة من الأموال والضياع والجاه والرئاسة والملك وأن الإنسان ينخدع ويغتر بها مع أنها كما يرى دائمًا من نبات الأرض الذي لا يدوم فإما الموت أو الآفات وتنغيص الحياة[٥].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٥٩.
(٢) المحرر في أسباب النزول، المزيني ١/ ٥٤٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٨.
(٤) الإعجاز اللغوي والبياني، علي الشحوذ ١/ ٤٧.
(٥) الفرقان في بيان إعجاز القرآن، عبد الكريم الحميد ١/ ٣٥.

والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيما تذروه الرياح، وما بين ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة، ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد، بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة![1].

٢. ضرب الرياح مثلًا للبعث بعد الموت.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ⑨﴾ [فاطر:٩].

فيخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾؛ فأنزله الله عليها ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات، ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطرا، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل[2].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٥.

فإن قلت: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها: لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا، وأحيينا، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه[3].

ومن الأغراض البلاغية: إخبار عن ماض بمستقبل لإبراز صورة معينة يريدها المتحدث، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ⑨﴾ [فاطر:٩].

فإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتُثِيرُ﴾ مستقبلًا وما قبله وما بعده ماض ﴿أَرْسَلَ﴾ ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ أفعال ماضية وتثير فعلًا مضارعًا، لذلك المعنى المراد وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة[4].

وهذه آية احتجاج على الكفرة في إنكار البعث من القبور، فدلهم تعالى على المثال

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٠١.
(٤) الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مناهج الجامعة الإسلامية ص٤٦٣.

الذي يعاينونه وهو سواء مع إحياء الموتى، و «البلد الميت» هو الذي لا نبت فيه قد اغبر من القحط فإذا أصابه الماء من السحاب اخضر وأنبت فتلك حياته[1].

وهبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب، وقد لا ينشئ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر... و وجه التشبيه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء، وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت[2].

وكثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها؛ ليعتبر المرتاب في هذا، فإنه من أظهر الآيات وأوضحها[3].

ثانيًا: الريح :

١. ضرب الريح مثلًا لإنفاق الكافرين.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧].

يعني بذلك جل ثناؤه: شبه ما ينفق الذين كفروا، أي: شبه ما يتصدق به الكافر من ماله، فيعطيه من يعطيه على وجه القربة إلى ربّه وهو لوحدانية الله جاحد، ولمحمد صلى الله عليه وسلم مكذب، في أن ذلك غير نافعه مع كفره، وأنه مضمحلّ عند حاجته إليه، ذاهبٌ بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه، كشبه ريح فيها برد شديد، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾، يعني: زرع قوم قد أمّلوا إدراكه، ورجوا ريعه وعائدة نفعه، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، يعني: أصحاب الزرع، عصوا الله، وتعدّوا حدوده ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾، يعني: فأهلكت الريح التي فيها الصرّ زرعهم ذلك، بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم.

و ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره : كمثل مهلك ريح ، أي: ما ينفقون

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٣٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٦١.

هالك، فريح مجرورة بالإضافة أيضًا، للدلالة على أن هذا الإنفاق لا يجدي[1].

فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته، حين يلقاه، يبطل ثوابها ويخيب رجاؤه منها، وخرج المثل للنفقة، والمراد بـ «المثل» صنيع الله بالنفقة، فبيّن ذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، فهو كما قد بيّنا في مثله قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[البقرة:١٧].

فتأويل الكلام،: مثل إبطال الله أجر ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثل ريح فيها صر؛ وإنما جاز ترك ذكر إبطال الله أجر ذلك، لدلالة آخر الكلام عليه، وهو قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، ولمعرفة السامع ذلك معناه[2].

ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها، كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار؛ فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه[3].

وما ينفق الكفرة قربة ، أو مفاخرة وسمعة ، أو المنافقون رياء أو خوفًا، ﴿فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصّرصر، فهو في الأصل مصدر نعت به، أو نعت وصف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي أهلكته عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه بحرث كفار ضربته صرٌّ؛ فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدر كمثل مهلك ريح وهو الحرث[4].

٢. ضرب الريح مثلًا لأعمال الكافرين.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي : مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئا ، ولا

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء العكبري ١/ ١٤٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٤٣ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٧٨ .
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٤.

ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي : ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم[1].

وعبر بالرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئا ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل[2]، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار، يريد: أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به[3].

وقوله تعالى:﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ كناية عن سرعة هذه الريح وقوتها، يقال: اشتدّت الريح. أي: أسرعت بقوة. وتعدية الفعل بالباء، دون تعديته بـ (على) يفيد أن هذه الريح حملت الرماد، وأسرعت الذهاب به، وبددته في جهات هبوبها؛ بحيث لا يقدر أحد على الإمساك بشيء منه، بخلاف قولنا: اشتدت عليه؛ فقد تشتد الريح عليه، وهو ثابت في مكانه، لا يتبدد.

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدىً، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلًا، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا.فكما تعصف الريح الشديدة بالرماد، وتذهب به في جهات هبوبها؛ كذلك تعصف رياح الكفر والنفاق بالأعمال، التي تكون لغير الله جل وعلا، وعلى غير طاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام[4].

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدىً، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلًا... وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر، ويلتقي معهما التعقيب: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[5].

٣. ضرب الريح مثلًا في بيان حال المشرك بالله تعالى.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿حُنَفَاءَ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٣.

(٤) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، علي الشحوذ ص٤٢.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٤.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك بالله غيره، أي: ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال؛ لأنه شبهه بالذي خر، أي: سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق: أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة، لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضحًا في مواضع أخر[١].

فإنه من يشرك بالله شيئًا من دونه، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحقّ وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خرّ من السماء فتخطفه الطير فهلك، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني من بعيد... فهكذا مثل المشرك بالله في بعده من ربه ومن إصابة الحقّ، كبعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض، أو كهلاك من اختطفته الطير منهم في الهواء[٢].

وأشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشكّ، فهذا مشبّه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلاّ انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه، وقسم مصمّم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبّه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول[٣].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، البشرى، الرحمة، السحاب، الماء، النبات

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٥٥.





عناصر الموضوع

المجلد السابع عشر

مفهوم الزكاة

أولًا: المعنى اللغوي:

الزكاة والزكاء في اللغة مصدران من الفعل الثلاثي المضعف بالتشديد (زكّى)، ومن الثلاثي المخفف (زكا)، فأما الأول وهو (الزكاة) يقال: زكّى يزكّي تزكيةً إذا أدّى عن ماله زكاته، ويقال أيضًا: زكّاه إذا أخذ زكاته، وتزكّى، أي: تصدّق، وأما الثاني وهو (الزّكاء) بالمد فمعناه النّماء والرّيع، مأخوذ من قولهم: زكا يزكو زكاءً وزكوًّا، والزكاء أيضًا يطلق على ما أخرجه الله تعالى من الثمر[(١)].

وللزكاة معان عدة مدارها على النمو، والبركة، وزيادة الخير، والطهارة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزكت النفقة إذا بورك فيها، وفلان زاكٍ، أي: كثير الخير، وتطلق الزكاة أيضًا على التطهير المعنوي للنفس والمال.

وأصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف الفقهاء في تعريف الزكاة اختلافًا يسيرًا، مع اتفاقهم على المعاني العامة فيها.

فعند الحنفية هي: تمليك جزء مالٍ، عيّنه الشارع، من مسلمٍ فقيرٍ، غير هاشمي ولا مولاه، مع قطع المنفعة عن الملك من كل وجه لله تعالى[(٣)].

وعند المالكية: جزء من المال، شرط وجوبه لمستحقه بلوغ المال نصابًا[(٤)].

وعند الشافعية: اسم لما يخرج عن مال أو بدن على وجه مخصوص[(٥)].

وعند الحنابلة: حق واجب في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٥٨.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٣.

(٣) انظر: الدر المختار، الحصكفي ٢/ ٢٥٧-٢٥٨، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، شيخي زاده ص٢٨٤-٢٨٥.

(٤) شرح حدود ابن عرفة، الرصاع ص٥٣٩.

(٥) نهاية المحتاج، الرملي ٣/ ٤٣.

(٦) الإقناع في فقه الإمام أحمد، الحجاوي ١/ ٢٤٢.

الزكاة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زكا) في القرآن الكريم (٣٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]
مصدر	٣٢	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣]
اسم تفضيل	٤	﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف:١٩]

وجاءت (الزكاة)في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: النقاء والطهارة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] يعني: ما طهر منكم من أحد.

الثاني: الزكاة المفروضة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يعني: زكاة المال المفروضة.

الثالث: الحلال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] أي: أحل طعامًا.

الرابع: الصدقة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ١٣] أي: صدقة تصدّق بها على أبويه.

الخامس: الصلاح: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨١] أي: صلاحًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٣١-٣٣٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٤٩، ٢٥١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصدقة:

الصدقة لغة:

الصدقة (بالتحريك) مصدر الفعل الرباعي تصدّق يتصدق فهو متصدقٌ، والمراد بها ما أعطيته في ذات الله تعالى للفقراء، أو: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال: للمتطوع به، والزكاة تقال للواجب. وقيل: يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبه الصدق بفعله [(١)].

الصدقة اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: ((الصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوّع به، والزكاة للواجب، وقد يسمّى الواجب صدقةً إذا تحرّى صاحبها الصدق في فعله))[(٢)].

وقال التّهانويّ: ((الصّدقة: عطيّة يراد بها المثوبة لا التّكرمة؛ لأنّ بها يظهر الصّدق في العبوديّة، وهي أعمّ من الزّكاة، وقد تطلق عليها أيضًا))[(٣)].

الصلة بين الصدقة والزكاة:

بينهما عموم وخصوص مطلق، أي : أن أحدهما أعم وأشمل من الآخر، وهذا الأعم هو الصدقة والزكاة أخص منها، فكل زكاة صدقة وليس كل صدقة زكاة.

٢ النفقة:

النفقة لغة:

جاء في لسان العرب: نفق الزاد ينفق نفقًا ، أي : نفد، وقد أنفقت الدراهم من النّفقة، ورجل منفاقٌ أي كثير النّفقة، والنّفقة ما أنفقت واستنفقت على العيال، ويطلق عليها (نفقة) (وإنفاق) وهو صرف المال إلى الحاجة [(٤)].

النفقة اصطلاحًا:

(١) تاج العروس، الزبيدي ١/ ٦٤٢١.
(٢) المفردات، ص ٢٧٨.
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، ٤/ ٢٦٠.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٧٥، التعريفات، الجرجاني ص٥٧.

عند الشافعية: النفقة مأخوذة من الإنفاق وهو الإخراج، ولا يستعمل إلا في الخير [١].

وعند الحنابلة هي: كفاية من يمونه طعامًا وكسوة ومسكنًا وتوابعها [٢].

الصلة بين النفقة والزكاة:

الزكاة والنفقة تشتركان في وجوب إخراج الأموال، إلا أن النفقة واجبة على الشخص لمن يلزمه الإنفاق عليهم من زوجة وأولاد وأقارب وغيرهم، وتكون في كل ما يحتاجه المنفق عليه من طعام وشراب وكسوة وغير ذلك ولا تختص بجانب من ذلك معين، وليس لها قدر معين بل بقدر الكفاية.

٣ العطية:

العطية لغة:

بمعنى العطاء، والمراد بهما: اسمٌ لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وجمع الجمع (أعطياتٌ)، ويقال: رجلٌ معطاءٌ كثير العطاء، وامرأة معطاءٌ كذلك ومفعالٌ يستوي فيه المذكّر والمؤنّث [٣].

وفرّق بعض اللغويين بين العطية والصدقة بأن الصدقة هي ما يرجى به الثواب، بخلاف العطية [٤].

العطية اصطلاحًا:

ما يعطى بغير عوض، هبة كان، أو صدقة، أو هدية [٥].

الصلة بين العطية والزكاة:

العطية أعم من الصدقة، ومن الزكاة، فالعطية تشمل ما يراد به وجه الله وما يراد به التودد إلى الخلق.

(١) انظر: مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٤٢٥.
(٢) انظر: كشاف القناع، البهوتي ١٣/ ١١٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٦٨، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٤٧.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٧.
(٥) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي ص٣٧٨.

مشروعية الزكاة ومقاصدها

أولًا: مشروعية الزكاة:

الزكاة مشروعة على نحو ما تقدم ذكره؛ حيث ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وبناء على ذلك فإن هذه المشروعية تشتمل على جوانب إعجاز تشريعية قديمة وحديثة.

فالزكاة على جهة الإجمال فرض من فرائض الإسلام، أو ركن من أركانه الخمسة الواردة في حديث (**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**)[(١)].

فيها من الأسرار ما فيها، ولها مكانة عظمى في الإسلام، فهي عبادة من العبادات الأربع، ومن هذا الوجه تقرن في القرآن والحديث بالصلاة، وتأتي بعدها عادة في كتب الفقه في قسم العبادات.

وهي مورد أساس من الموارد المالية في الدولة الإسلامية، وهذا يخرجها عن أن تكون عبادة محضة، فهي جزء من النظام المالي والاقتصادي في الإسلام؛ ولهذا عنيت بها كتب الفقه المالي في الإسلام[(٢)].

ونشير هنا إلى أبرز خصاص الزكاة، ثم أهم جوانب حكمة تشريعها، واقترانها بالصلاة.

المسألة الأولى: خصائص الزكاة.

من خلال تتبع مشروعية العبادات الأربعة (الصلاة والزكاة والصيام والحج) يستنتج أن الزكاة تتسم بالخصائص التالية:

١. **الزكاة عبادة جمعت بين المالية والزمانية.**

المعروف أن العبادات تنقسم من حيث البدن والمال إلى ثلاثة أقسام: عبادات بدنية محضة، وهي الصلاة والصوم، وعبادات مالية محضة، وهي الزكاة، وعبادات تجمع بين المالية والبدنية وهي الحج.

وتنقسم من حيث الزمان والمكان إلى قسمين: عبادات زمانية محضة وهي الصلاة والصوم والزكاة، وعبادات تجمع بين الزمانية والمكانية وهي الحج.

وبهذا ندرك قيمة الزكاة ومكانتها بين أركان الإسلام، فمن حيث كونها مالية محضة، نجد أن المرء لا يتعب بدنه في إخراجها، ولا أثر للأعذار البدنية في إسقاطها، فالعبرة بوجود المال بشروطه المعروفة، ولا عبرة بكون المزكي مريضًا أو ذا عاهة، أو لم يخرجها بنفسه، بل وكّل غيره في إخراجها... الخ.

ومن حيث الزمان فهي ترتبط بمرور الحول في كل أنواع الزكاة عدا الزروع والثمار والركاز والمعدن. ومن حيث المكان لا تجد الشريعة الإسلامية تفرض

(١) سبق تخريجه.
(٢) فقه الزكاة، القرضاوي ١/ ٣.

على المزكي موضعًا معينا لتوزيع الزكاة، بل تركت هذا الباب مفتوحًا لآراء الفقهاء، وحالة المزكي، ومستحقي الزكاة.

٢. الزكاة عبادة تقبل النيابة بخلاف الصلاة والصيام.

أيضًامن حكمة تشريع الزكاة أنه يجوز فيها النيابة أو الوكالة، فلا يشترط أن يخرجها المزكي بنفسه، بل يوكل من يخرجها عنه لسبب أو بدون سبب، أو يوكل الحاكم من يجمع الزكاة من أربابها (العاملين عليها) وهم صنف من أصناف الزكاة كما سبق ذكره في آية المصارف.

وهذا فيه من مظاهر التيسير ورفع الحرج ما فيه، حيث لو كلّف كل إنسان أن يخرج زكاة ماله بنفسه ويعطيها للمستحق لوجد الناس في ذلك حرجًا ومشقة كبيرين.

ولذلك نجد حكمة جليلة في تنوع الخطاب القرآني الخاص بالزكاة، على نحو ما سبق في آيات الزكاة، فأكثر آيات وجوب الزكاة وردت بلفظ الإيتاء بمشتقاته، والإيتاء لا يقتضي الدفع بالنفس، بل يمكن أن تدفعها بنفسك أو توكّل من يدفعها عنك.

ونجد آيات أخرى يخاطب بها الحاكم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهذا إشارة إلى عملية قبض الحاكم أو أعوانه للزكاة من أربابها.

ونجد في آية مصارف الزكاة ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وذلك إشارة إلى وجود طرف ثالث في الزكاة يأخذ من المزكي، ويجمع ليعطي للفقير.

٣. الأسس العامة للزكاة لا تخضع للاجتهاد البشري، بل هي مقدرة من الشرع.

وبيان ذلك أن الله تعالى قد جعل الزكاة دين متعبّد به ، ووضع إلهي مستقر لا يتغير ولا يتبدل، غير خاضع للأهواء البشرية، تنتقل آثاره إلى الحياة الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٥-١١].

ووضع الإسلام في الزكاة أسسًا عامة ، وأحكامًا فرعية ، أو بالأحرى ثوابت ومتغيرات، فجعل الأسس أو الثوابت خاضعة لنصوص الشرع لا تقبل التغيير ولا الاجتهاد، فحدد المصارف والأنصبة والمقادير.

وترك باب الاجتهاد مفتوحًا في أمور مثل: كيفيات التوزيع من حيث الطريقة والمكان، وتقديم الزكاة أو تأخيرها حسب الحاجة والحالة، واستحداث مصارف جديدة تدور في إطار المصارف الأصلية

الواردة في القرآن الكريم، وإيجاب الزكاة في أصناف معينة من الأموال والزروع والثمار والحيوان ، أو عدم إيجابها حسبما يترجح لدى الفقهاء في كل رأي، ودفع القيمة في بعض أنواع الزكوات، واستيعاب كل المصارف الواردة في الآية أو الاكتفاء ببعضها. وغير ذلك من المسائل الخلافية.

المسألة الثانية: حكمة تشريع الزكاة.

من أبرز حكم تشريع الزكاة ما يلي:

١. خطاب الأمر بالزكاة فيه حثٌّ للغني، وإعزاز للفقير، ورفع للحرج عنه.

وبيان ذلك أننا حين نتدبر أوامر القرآن والسنة المتعلقة بالزكاة نجد أن الخطاب فيها موجَّهٌ إلى الغني بالدفع والإيتاء، ولم يوجّه فيها للفقير بالطلب والاستعطاء، فالشرع لم يكلّف الفقير بالسعي لطلب الزكاة، بل كلّف الغني بالسعي للبحث عن مستحق للزكاة ليعطيه إياها.

فقال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: (أغنوهم عن طواف هذا اليوم)[1].

ولهذا لا تبرأ ذمة الغني أو تسقط عنه الزكاة إذا عدم مستحق الزكاة ببلده أو محلته، بل هو مكلّف بالسعي خارج محلته حتى يجد مستحق الزكاة، ولا تخلو محلة أو يخلو بلد صغيرًا كان أو كبيرًا من مصرف أو أكثر من مصارفها.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله مبيّنًا تقسيم مصارف الزكاة على البلاد ومدى توافر بعضها وانقراض الآخر: «وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد، وهم المؤلّفة قلوبهم، والعاملون عليها، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء ، والمساكين، والغارمون، والمسافرون -أعني أبناء السبيل-، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون بعض، وهم الغزاة والمكاتبون»[2].

٢. الزكاة تحقق التنمية الاقتصادية الفردية والجماعية.

تعدّ الزكاة عاملًا مهمًّا في تنمية المجتمع المسلم على المستوى الفردي والجماعي، بما تقدّمه من حلول، وما تسهم به من موارد، وما تعالجه من مشكلات اجتماعية، والتي يقع على رأسها معالجة مشكلة الفقر، التي سعى الإسلام للقضاء عليها بشتى الوسائل من خلال الكفّارات، والزكوات، والصدقات؛ وذلك لأنّ محاربة الفقر، أو القضاء عليه تنقذ المجتمع من براثنه، وتهيئ للإنسان حياة كريمة، ومستوىً من المعيشة

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب زكاة الفطر، ٢/ ١٥٢ ، رقم٦٧.
وضعفه الألباني في الإرواء، ٣/ ٣٣٢، رقم ٨٤٤.

(٢) أسرار الزكاة، الغزالي ص٦١.

يليق بكرامته[١].

والناظر إلى دور الزكاة في تنمية المجتمع المسلم من الناحية الاقتصادية يجد هذه الملامح:

- أنّ تخصيص جزء من حصيلة الزكاة للفقراء والمساكين جعل منها أداة لتحقيق مجتمع إسلامي متضامن ومتعاون.
- أنّ إيجاب الزكاة في الذهب والفضة، وهما المالان الأساسان لعملية التنمية- حتى ولو كانا غير موضوعين بطريق الاستثمار- يعدّ نوعًا من أنواع التنمية الاقتصادية؛ حيث إن من حكمة الزكاة مهاجمة الأموال المكتنزة، وبعثها من مرقدها؛ لتسهم في عملية التنمية[٢].
- أنّ الزكاة من حيث أسعارها (مقدار الزكاة) ومن حيث وعائها (الأموال التي تجب فيها الزكاة) فريضة مالية تشمل الثروات النامية جميعها من ناحية، ومن ناحية أخرى تمثّل نسبةً فعّالةً ومجديةً؛ فهي تصل في بعض الثروات إلى ٢٠٪ أي الخمس (مثل زكاة الركاز والمعدن)، و٢,٥ ٪ في الثروة النقدية وعروض التجارة، وهذا من شأنه أن يجعل جميع أموال الزكاة وسائل للتنمية، كل بحسب مكانته[٣].
- يكفل الإسلام عن طريق الزكاة حدّ الكفاية، أو حدّ الغنى لكل فرد، بمعنى أنه إذا عجز فردٌ ما عن توفير المستوى المناسب للمعيشة لسببٍ خارج عن إرادته، فإن نفقته تكون واجبة في بيت مال المسلمين[٤]، ولا شك أن الزكاة تحقّق له ذلك.
- أنّ نتيجة إخراج الأموال المكنوزة ودفع الزكاة عنها يمثّل استثمارًا وتشغيلًا في صورة دخول أموالٍ نقدية جديدة وعديدة إلى مجالات التشغيل والتوظيف، بعد أن كانت هذه الأموال والثروات عاطلة ومكتنزة[٥].
- أنّ الزكاة تعمل على سرعة دوران رأس المال؛ إذ أنها تشجّع صاحب المال بطريق غير مباشر على استثمار أمواله؛ حتى يتحقق فائض يؤدي منه الزكاة، ومن ثمّ فقد استفاد صاحب المال من استثماره بالربح، وأفاد المجتمع بأداء حق المستحقين بالزكاة،

(١) انظر: الإسلام والاقتصاد، عبد الهادي النجار ص ١٣٤-١٣٥.
(٢) مناقشة بحوث زكاة الديون، د مصطفى الزرقا، مجلة مجمع الفقه الإسلامي ٢/ ٦٥.
(٣) الآثار الاقتصادية للزكاة، محمد سميران، وراكان الدغمي ص ٥.
(٤) انظر: الإسلام والاقتصاد، عبدالهادي النجار ص١٣٩.
(٥) الآثار الاقتصادية للزكاة، سميران والدغمي ص١٣.

وهذا ما يؤدي إلى دوران رأس المال وتحريكه، فالزكاة دافع للأموال نحو الاستثمار[1].

٣. الزكاة تحقّق الأخوة الإيمانية وتكافل المجتمع.

من حكمة تشريع الزكاة إسهامها الواضح في تحقيق الأخوة الإيمانية بين المسلمين، ونشر التكافل الاجتماعي بينهم؛ وذلك لأن الشارع الحكيم أراد أن يكون مجتمع المسلمين مجتمعًا متكافلًا متآزرًا متعاونًا، يأمن فيه العاجز والضعيف والقاصر، ويشعرون أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب.

ولن تتحقق هذه الصورة البهية لمجتمع المسلمين لو ترك الناس لضمائرهم ومشاعرهم وقلوبهم، فأوجب الإيتاء وندب إلى الإعطاء؛ فقال تعالى موجبًا التعاون المطلق في كل ما هو بر وتقوى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى منبهًا إلى حق المحرومين والطالبين لحاجة: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال تعالى حاضًا على حق المساكين والمحتاجين: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال تعالى آمرًا بالدفع لأهل الحاجة حتى لو كانوا أرقاء: ﴿تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى مرغبًا للعطاء وتقديم يد العون لدفع الحاجة والعوز، ورفع المسكنة المالية والعيلة في أفراد المسلمين: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢٢].

فجاء تشريع الزكاة دالًا على بهاء المظهر والجوهر لشرعة الإسلام، ودعوتها لإقامة مجتمع المتكافلين، وجماعة المتعاونين، ممارسةً للتضامن والتناصر، وإقامةً للعدل الاجتماعي، وسبيل ذلك مدّ يد المعونة للمحتاج، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، قصدًا إلى ترسيخ معاني التعاطف والتراحم والولاء بين المسلمين.

٤. الزكاة تقضي على البطالة.

البطالة مشكلة كبيرة تواجه جميع الدول، ويترتب عليها عواقب وخيمة، وأضرار جسيمة على المجتمع كله، مثل: الانحراف الأخلاقي، والديني، وانتشار الجريمة، وتعاطي المخدرات، وانتشار

(١) انظر: الاقتصاد الإسلامي، منذر قحف ص١١٩.

السرقة والغصب، ونحوها، ويلاحظ دور الزكاة الواضح في القضاء على البطالة من خلال أمرين بارزين هما:

الأمر الأول: وجود مصرف (العاملين عليها) ضمن مصارف الزكاة المنصوص عليها في الآية، وهذا المصرف قد يظن البعض للوهلة الأولى أنّه مجرد وظيفة واحدة، وهي جباية الزكاة أو جمعها، ولكنّه في الحقيقة عدة وظائف، أو بالأحرى مسمى وظيفي عام يشمل عدة أشخاص، كما يفهم من تفسير الفقهاء له.

فالعاملون على الزكاة يشمل: الجباة وهم جامعو الزكاة (الذين يعيّنهم الحاكم لأخذ الزكاة بأنواعها من أربابها)، ويشمل الموزّعين لها على المستحقين، وهؤلاء تجد فيهم الكاتب، والحاشر، والمعاون، والموزّع، والقائم بالكيل أو الوزن، وتجد فيهم القائمين بتجهيز وحصر أسماء المستحقين، والباحثين في بيانات المستحقين، والقائمين بالحراسة، ونحو ذلك.

وعليه فإن عمل هؤلاء جميعًا في مؤسسات الزكاة يعدّ نوعًا من التخلص من البطالة بشكل شرعي، وهو وإن كان يأخذ من الزكاة كمصرف من مصارفها، إلا أن أخذه حينئذٍ يعدّ أجرًا في مقابل عمل.

ومن ثمّ فلا غرو أن تجد كثيرًا من الفقهاء يعطون للعامل الفقير من الزكاة مرتين، مرة لكونه فقيرًا، ومرة لكونه عاملًا، كما قال الشيخ أحمد الدردير في شرحه على مختصر خليل: «(وأخذ) العامل (الفقير بوصفيه) أي :وصف الفقر والعمل إن لم يغنه حظ العمل»[١].

الأمر الثاني: إيجاد فرص عمل عن طريق إنشاء مؤسسات خيرية تقوم على أموال الزكاة، كما يحدث في الكثير من البلاد الإسلامية، حيث ينشأ مشروع خيري يتم فيه جلب الفقراء والمساكين للعمل فيه، فيكتسبوا من الزكاة بطريقين: مرة بكونهم فقراء أو مساكين، وهذا كسب مباشر مسماه الزكاة، ومرة أخرى باعتباره صانعًا أو حرفيًا أو مهنيًا في مؤسسةٍ تابعة لأموال الزكاة، فيكون الأول نصيبه في الزكاة، ويكون الثاني أجرة في نظير عمل.

ولهذا نظائر كثيرة في الدول الإسلامية، حيث تستقدم الفتيات اليتيمات، والأرامل للعمل في مشروعات إنتاجية، تنتج ملابس وأطعمة ونحوها تابعة لمؤسسات الزكاة، ويتقاضين رواتب ثابتة، أو رواتب بنسب معينة حسب ما يقمن بإنتاجه من صناعات.

وما سبق ذكره مجرد أمثلة من جوانب تشريع الزكاة، وإلا ففيها من الحكم والأسرار، وجوانب الإعجاز ما فيها مما

(١) الشرح الكبير، الدردير ١/ ٤٥٩.

يعجز عنه الوصف، ولا تكفيه الصفحات، وحسبنا أنها فريضة من فرائض الإسلام وعمود من أعمدته، شرعت لتكون عبادة، ووسيلة لحل العديد من المشاكل والأزمات الاقتصادية التي تعتري الأمة عبر العصور.

المسألة الثالثة: اقتران الزكاة بالصلاة في القرآن.

بتتبع آيات القرآن الكريم نجد أن لفظة «الزكاة» المعرفة فقط هي التي اقترنت بالصلاة، وذلك في أربعة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، أما بقية المشتقات فلم تقترن بالصلاة إلا في موطن واحد وهو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وتقدم الكلام عليه.

وقد ورد في فعل الصحابة ما يشير صراحةً إلى أن التفريق بين الصلاة والزكاة أمر لا يرضاه الشرع، ففي واقعة منع الزكاة بعد لحوق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى كان موقف سيدنا أبي بكر واضحًا حيث قال: (واللّه لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة؛ فإنّ الزّكاة حقّ المال، واللّه لو منعوني عقالًا كانوا يؤدّونه إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه)[1].

وإذا أراد المرء تتبع حكمة ودلالة اقتران الزكاة بالصلاة لما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولكن حسبه أن يتلمس طرفًا من ذلك مما ذكره العلماء أو يستنبطه على هذا النحو:

- أن في الصلاة إصلاح حال الفرد، وفي الزكاة إصلاح حال المجتمع، فالمال شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة اللّه سهل عليه بذل نفسه في سبيل اللّه؛ تأييدًا لدينه وإعلاء لكلمته، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة سبب من أسباب النصر والتمكين[2].
- أن الصلاة هى التي تصلح النفوس وتنقّيها من أدران الرذائل، وتحلّيها بأنواع الفضائل، وروحها هو الإخلاص للّه والخشوع لعظمته وسلطانه، فإن فقدته كانت صورًا ورسومًا لا تغني فتيلًا، أما الزكاة ففيها إصلاح لشئون المجتمع[3].
- أن الحكمة هي بسبب كون الصلاة زكاة أيضًا، فهي تزكي النفس عن الكبر والعجب وتجنب الإنسان الغفلة، وتذكّره بواجبه تجاه ربه؛ ولذلك اقترنت بزكاة الأموال، والتي هي بذل نفسي في الأساس يجعل الإنسان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم ١٣٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم ١٣٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٩١-١٩٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ١٥٩.

يمد يد العون لأخيه الإنسان ويشعر بمعاناته، فكلاهما زكاة، وكلاهما بذل في سبيل الله.

- أن الله تعالى لم يشأ أن يذكر حقه على الناس بواجب الطاعة المتمثلة بالصلاة، بل قرنها بحاجة الناس للنفقة والعون، فحق الله تعالى مقرون بحق الناس.
- أن الصلاة أفضل وسيلة للتقرب من الله، وهي تخصيص جزء من الوقت للتعبد والوصال مع الخالق، أي : أننا نقطع بعضًا من حياتنا اليومية لنثني ونشكر ربنا، ونطلب منه أن يهدينا للصراط المستقيم، أي : الأعمال الصالحة؛ وبذلك يحقق الإنسان طهارة نفسية؛ ليصل لمرتبة الروحانية التي هي المغزى الحقيقي. والزكاة لزكاء النفس وتعني الطهارة أيضًا ، ولكي لا يتعلق الإنسان بالأمور الدنيوية وينسى خالقه فرض الله عليه أن يقطع من ماله وكدّ يومه، ويدفعه في سبيل الله؛ حتى يطهّر نفسه وماله؛ لأن لله حق في أموالنا، فهنا نجد أن الزكاة والصلاة مرتبطين بالطهارة.
- وجود علاقة قوية بين الصلاة والزكاة، فالزكاة تضحية بجزء من المال، والمال في الحقيقة نتيجة العمل، والعمل فرع الوقت، أما الصلاة فهي تضحية بالوقت نفسه، فالصلاة زكاة الوقت، وحق الله الراتب يوميًا، فالمؤمن يقتطع من وقته الذي هو رأس مال الحياة فيجعله خالصًا لله، ويقتطع جزءًا من ماله فيجعله خالصًا لله والصلاة والزكاة أصل ورأس العبادات البدنية والمالية؛ فلذلك تسمى الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام، ومن أتى بهما يسهل عليه أن يأتي بغيرهما، فإذا سهل عليه إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة سهل عليه أن يصوم ويحج ويأتي بالأفعال الأخرى من باب أولى، فإنه ذكر ما هو أهم وما هو أولى من غيره، وأن من أتى به فإنه يأتي بغيره من باب أولى.
- أنه لما أمر بالعفو والصفح يعني في آية البقرة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٠٩-١١٠]. أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام: العبادة البدنية، والعبادة المالية ؛ إذ الصلاة فيها مناجاة الله تعالى والتلذذ بالوقوف بين يديه، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس ، فأمروا بالوقوف بين يدي الحق و بالإحسان إلى

الخلق[١].

- أن المقصود بالأمر بالصلاة والزكاة الثبات على الإسلام؛ فإن الصلاة والزكاة ركناه، فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على بقية التعاليم[٢].

ثانيًا: مقاصد الزكاة:

مقاصد الشريعة الإسلامية عامة وخاصة، فالعامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظاتها في الكون في نوع خاص من أحكام الشريعة[٣].

والخاصة هي: الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة؛ كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة إبطالًا عن غفلة أو استنزال هوى أو شهوة[٤].

ولها تقسيمات متعددة، فإذا نظرنا إليها من حيث الحاجة إليها: فهي تشمل الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، ومن حيث المحل قسمان: مقاصد الشارع، ومقاصد المكلف، ومن حيث تعلقها بعموم الأمة وخصوصها ثلاثة أقسام: عامة، وهي التي تلاحظ في أغلب أبواب الشريعة، وخاصة، وهي التي تتعلق بباب معين، وتشمل مقاصد العائلة ، والتصرفات المالية، والعمل والعمال ، والقضاء والشهادات و العقوبات ، وعقود التبرعات ....الخ ، وجزئيةوالمرادبهاعلل الأحكام وأسرارها[٥].

والناظر إلى مقاصد الزكاة على جهة الإجمال يجد أن من بينها التكثير من باب الهبات والتبرعات؛ لما فيها من المصالح العامة والخاصة، ولما يترتب عليها من الثواب الأخروي[٦]. ولهذا فلا غرو أن يرجع في تقييم بعض أمور الزكاة في العصر الحاضر إلى ما يتفق مع مقاصد الشريعة، ومراعاة مصالح المكلفين.

وبناء على الفهم السابق للمقاصد وتقسيماتها المعتبرة، فإن مقاصد الزكاة كثيرة ومتشعبة الجوانب، وهي ذات شقين: تحقيق الزكاة لمقاصد الشريعة العامة، والثاني: تحقيقها لمقاصد خاصة بها تعود على المزكي وآخذ الزكاة، وهو ما نشير إليه

---

(١) تفسير البحر المحيط ١/ ٥١٩.
(٢) التحرير والتنوير ،ابن عاشور ١/ ٦٧٢.
(٣) مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص٥١.
(٤) المصدر السابق ص٥١، ١٤٦.
(٥) انظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص ٥١، مقاصد التشريع الإسلامي، مفهومها ضرورتها و ضوابطها، نور الدين الخادمي بحث كامل٢٧ صفحة مجلة العدل، عدد ٦ ربيع الآخر ١٤٢١هـ.
(٦) مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص١٨٩.

في مسألتين:

المسألة الأولى: تحقيق الزكاة للمقاصد العامة للشريعة.

اتفقت جميع الشرائع السماوية على حفظ الكليات الخمس (الدين والنفس والعقل والعرض والمال).

١. حفظ الدين.

حفظ الدين كما هو معلوم من الكليات الخمس المعروفة، والزكاة راعت ذلك، ففيها مصرف خاص، وهو مصرف (في سبيل الله)، ويصرف على تجهيز الغزاة والمجاهدين والإنفاق عليهم لنشر الدعوة إلى الله، والتمكين لدين الله في الأرض؛ امتثالا لأمر الله تعالى الوارد في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

كما أن فيها أيضًا مصرفًا خاصًا يصرف على تأليف القلوب على الإسلام وهو المؤلّفة قلوبهم، يعطى لمن دخلوا في الإسلام حديثًا؛ تثبيتًا لهم على الإسلام وعونًا لهم على مواجهة التحديات التي تواجههم، وهذا فيه ما فيه من الحفاظ على الدين.

وفي العصر الحاضر نجد الحاجة ما زالت ماسةً إلى تأليف القلوب على الإسلام، ونشر علومه والتعريف بأحكامه خاصة في الدول الأسيوية، والأفريقية وفي البلاد التي بها أقليات إسلامية كالمسلمين في بلاد البلقان، والجمهوريات الإسلامية التابعة التي كانت تابعة للإتحاد السوفيتي القديم، هذه الدول الإسلامية تظل في أشد الحاجة إلى أموال الزكاة؛ للحفاظ على بقاء الإسلام واستمراره في تلك البلاد[١].

كما أن للزكاة دورًا كبيرًا في مواجهة الأفكار والفلسفات الهدامة، والحملات التبشيرية التنصرية، وذلك من خلال الصرف من مصرف في سبيل الله على الدعاة، والمعاهد الإسلامية التي تعمل في المجال الدعوي، والتي تقوم بالتصدي لمثل هذه الأفكار الهدامة كما تعمل على الوقوف في مجابهة الحملات التنصيرية، وفي ذلك أيضًا حفاظ على الدين[٢].

٢. حفظ النفس.

من مقاصد تشريع الزكاة حفظ النفس، وهو من أهم مقاصدها؛ حيث يقوم على مساعدة الفقراء والفئات العاجزة عن الكسب في العلاج من الأمراض الخطيرة التي يبتلون بها، فيكون في مال الزكاة إحياء لنفوسهم وإنقاذهم من الهلاك، وفي نفس الوقت يمكن دفعها إلى المصابين

(١) الزكاة الضمان الاجتماعي الإسلامي، عبد الله حسين ص٢٥.

(٢) مؤسسة الزكاة في ولاية قدح دار الأمان ودورها في تحقيق مقاصد تشريع الزكاة، سعد جمعة زغلول ص١٧١.

من الأوبئة والمتضررين من السيول والفيضانات والحروب والكوارث؛ لأجل استبقاء أرواحهم، وإنقاذهم من الهلاك.

فتقوم الزكاة بدور فعّال في الإسهام في إنشاء مراكز علاجية كالمستشفيات ونحوها، لاسيما فيما يتعلق ببعض الأمراض الخطيرة أو المنتشرة بكثرة (كالسرطان، والفشل الكلوي وغيرها)، كنوع من التخفيف عن كاهل الدولة في هذا الصدد.

وقد أفتى بعض كبار العلماء بجواز الإسهام في هذه المشروعات من الزكاة المفروضة، إذا عرف أنها تعالج الفقراء خاصةً، ومن فتوى الشيخ جاد الحق علي جاد الحق بشأن دفع الزكاة لإنشاء معهد الكبد في مصر، وفتوى دار الإفتاء المصرية بخصوص دفع الزكاة لإنشاء مستشفى سرطان الأطفال[١].

٣. حفظ العقل.

من مقاصد تشريع الزكاة حفظ العقل، وذلك يظهر عندما نرى بعض الفقهاء يقررون أن طالب العلم الذي يتأتى منه التحصيل له الحق في الأخذ من الزكاة من مصرف في سبيل الله[٢].

٤. حفظ المال.

اهتم القرآن والسنة بحفظ المال بشتى الطرق والوسائل، ومن المقاصد العامة التي تحققها الزكاة حفظ المال جملة وتفصيلًا، حفظًا معنويًا وماديًا.

ومن جوانب تحقيق الزكاة لحفظ المال ما يلي:

- أن تعلق الزكاة بالمال يمنع من اكتنازه، فالإسلام منع من اكتناز النقود ونهى عن تجميدها؛ ذلك أن حبس المال عن التداول، والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله، وإخراج زكاته من شأنه أن يفسد التوازن المالي والتجاري والاقتصاد عامة ؛ وهذا يؤدي بدوره إلى اختلال التوازن الاجتماعي؛ وهذا يفضي إلى محظورات ومحرمات، هذه المحظورات يجب منعها عملًا بقاعدة سد الذرائع، وبناء عليه فمسألة كنز المال ليست مسألة شخصية يترك أمرها للأفراد، أو جريمة ذاتية يترك حسابها إلى الله في الآخرة، إنما تصبح مسألة تشريعية ترتبط بمصالح الجماعة فيجب على الدولة التدخل لمنع عدم تداول المال واكتنازه[٣].

(١) الفتاوى الإسلامية، الصادرة عن دار الإفتاء المصرية ١/ ١٧٠، الفتوى بتاريخ ٣ ذو الحجة ١٤٠٠ هـ، ١٢ أكتوبر ١٩٨٠ م، والفتوى رقم ٢٠١١ لسنة ٢٠٠٣م، بشأن دفع الزكاة لمستشفى سرطان الأطفال.

(٢) إعانة الطالبين، البكري ٢/ ٣٣٨.

(٣) المقاصد العامة للشريعة، يوسف العالم ص٤٩٨.

❁ أن الزكاة تعدّ أداة رئيسة لتشجيع الاستثمار وإيجاد فرص للعاطلين، إضافة إلى توسيع القاعدة الإنتاجية بالنسبة لذوي المهن والحرف والصناعات، خصوصًا الذين يفتقرون إلى رؤوس أموال تمكّنهم من امتلاك أدوات العمل؛ ولذلك يرى بعض الفقهاء أن من يحسن حرفة ولا يملك آلات حرفته يعطى من الزكاة ثمن آلات حرفته وإن كثرت[1]. يقول الرملي: «أما من حسن حرفة لائقة تكفيه، فيعطى آلات حرفته وإن كثرت، ومن يحسن تجارة يعطى رأس مال يكفيه ربحه منه غالبًا باعتبار عادة بلده»[2].

❁ أن الزكاة تحد من ارتكاب الجرائم المالية، ولا شك أن الجرائم المالية تؤثر على المجتمع تأثيرًا سيئًا؛ لما فيها من ضياع للحقوق، وسلب للأموال التي رزق الله تعالى بها عباده، والزكاة تؤدي إلى إطفاء نار الحقد والحسد بين الغني والفقير، كما تقضي على الفقر الذي يؤدي بدوره إلى زيادة معدلات الجريمة من السرقة وتجارة المخدرات، وتؤدي إلى انكفاف الفقير عن التطلع لمال الغني بالحسد أو النهب أو السرقة. والغني إذا واسى الفقير بماله، وسعى لانتشاله من براثن الفاقة، صلح حال الفقير، وصلحت أحوال أبنائه، فلم تكن ثمة حاجة لضخ الأموال وتضييع الجهود لحراسة المال من السرقة، ولن يوجد القلق النفسي القاتل الذي يصاحب نفس أصحاب الأموال خوفًا من السطو عليها[3].

٥. حفظ النسل.

كذلك من مقاصد الزكاة حفظ النسل من الانقراض، وذلك بتطمين الفقراء وإزالة الخوف من نفوسهم، إذا خافوا من إكثار النسل مخافة العوز والفقر، فإذا تأكد أحدهم بأنه معانٌ بالزكاة فلا يخطر بباله مثل هذا التفكير، ومن أجل ذلك أوجب الله الزكاة على الأغنياء لتردّ على الفقراء[4].

المسألة الثانية: تحقيق الزكاة لمقاصد أخرى تعود على المزكي وآخذ الزكاة.

فمما يعود على المزكي ما يلي:

❁ الامتثال لأوامر الله عز وجل بإخراج الزكاة: وبذلك يتحقق للمزكي صفتا الإسلام والإيمان، الإسلام لتنفيذه

(١) انظر: المجموع، النووي ٦/ ٢٠٢، الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٢٢.
(٢) نهاية المحتاج ٦/ ١٥٩.
(٣) انظر: الآثار الاقتصادية لتفعيل فريضة الزكاة على الفرد والمجتمع، الجهضمي، جريدة الرؤية، ٣٠/ ٧/ ٢٠١٢م.
(٤) مؤسسة الزكاة في ولاية قدح دار الأمان ص١٧٣.

ركنًا من الأركان الخمسة، والإيمان لإدراكه أهمية الزكاة في الدين ودورها في المجتمع، وسعي المزكي لتحقيق ذلك.

- شكر النعمة والمحافظة عليها: من مقاصد تشريع الزكاة شكر النعمة من أجل الحفاظ على النعمة ودوامها، فالعبادات مشروعة لإظهار شكر المنعم بها في الدنيا، ونيل الثواب في الآخرة، والنعم الدنيوية، نعمتان: نعمة البدن، ونعمة المال، وكل نعمة يجب شكر المنعم عليها، فكما أن العبادات البدنية كالصلاة شكر على نعمة البدن، فالزكاة شكر عملي لنعمة المال التي أنعم الله بها على بعض عباده[1]. وشكر نعمة المال بإخراج الزكاة منه يستلزم بقاءه وتنميته قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

- طهرة لنفوس الأغنياء والفقراء: من مقاصد تشريع الزكاة تطهير نفوس الأغنياء من البخل والشح والحرص والطمع؛ وكلها صفات مذمومة تودي بمن يتصف بها إلى البوار والخسران؛ فأداء الزكاة تخلّص صاحبها من كل هذه الصفات، ويفوز المزكي بالرضا والفلاح. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٣]. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌ مطاعٌ، وهوىً متّبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه)[2]، وأما بالنسبة للفقراء فتطهّر قلوبهم من الحقد والغل والحسد تجاه الأغنياء الذي يتولد بسبب الحرمان وشدة الحاجة بسبب منع الأغنياء فضل أموالهم، فبالزكاة تنتزع الإسلام الغل من قلوب المؤمنين وباعد بينهم وبين تلك الأمراض النفسية التي تفعل فعلها في خلق الأحقاد والضغائن بين أفراد المجتمعات المعاصرة التي لا تأخذ بهذه الفريضة، وهذا أمر مشاهد ملموس[3].

---

(١) المقاصد العامة للشريعة، يوسف لعالم ص٢٤٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٥/ ٣٢٨، رقم ٥٤٥٢، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٤٧١، رقم ٧٤٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٤١٢، رقم ١٨٠٢.

(٣) المقاصد العامة للشريعة، يوسف العالم ص٢٤٣.

ثالثًا: عقوبة مانعي الزكاة:

لما كانت الزكاة ركنًا من أركان الإسلام الخمسة، فقد حث القرآن الكريم في آيات عديدة على إخراجها على نحو ما تقدم بيانه، ورتّب على منعها عقوبات دنيوية وأخروية، وقد ورد طرف من هذه العقوبات في آيات من كتاب الله عز وجل وأحاديث من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونشير إلى طرف من ذلك على هذا النحو:

العقوبة الأولى: كي الجباه والجنوب والظهور.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

وبالنظر إلى هاتين الآيتين الكريمتين نجد أن العقاب الذي ورد فيهما فيه من المناسبة للحال ما فيه، وفيه من الإجمال والتفصيل في أنواع العذاب ما فيه.

فالتبشير بالعذاب الأليم على جهة العموم فيه تهكم على أصحاب الأموال الذين يكتنزونها ويمنعون حق الله تعالى فيها، ثم إن تصوير هذا العذاب بهذا الوصف فيه من وجوه الإعجاز والبلاغة ما فيه.

قال بعض العلماء: «إنما خص هذه الأعضاء بالكي من بين سائر الأعضاء، لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئًا تبدو منه آثار الكراهة والمنع، فعند ذلك يقطّب وجهه، ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه، ثم إن كرّر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبًا، ثم إن كرّر الطلب وألحّ في السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه، واستقبل جهة أخرى، وهي النهاية في الرد، والغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل، وهذا دأب مانعي البر والإحسان وعادة البخلاء؛ فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة»[(١)].

ومن لطائف الآيتين أن العلماء اختلفوا في أمرين فيهما:

الأمر الأول: ضابط الكنز المذموم في هذه الآية:

اختلف العلماء في المال الذي أديت منه الزكاة هل يسمى كنزًا أم لا؟ على أقوال مردها إلى معنى الكنز في اللغة والشرع، وما ورد في شأنه من الأحاديث والآثار:

القول الأول: لأكثر الصحابة وهو أن

---

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٨٨-٨٩.

المراد به المال الذي لم تؤدّ زكاته، فقد روي عن عمر بن الخطاب وابن عمر، وابن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

ودليله: (ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت تلبس أوضاحًا[1] من ذهب فسألت عن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم: أكنز هو؟ فقال: (إذا أديت زكاته فليس بكنز)[2].

وما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض)[3].

وذكر بعض العلماء أن الإنفاق هنا يندرج فيه سائر الحقوق من الكفارات، والديون، ونفقة الحج، والجهاد والإنفاق على الأهل والعيال، وضمان المتلفات، وأروش الجنايات.

القول الثاني: أن كل مال كثير فهو مذموم سواء أدّيت زكاته أو لم تؤدّ[4]. وممن ذهب إلى هذا علي رضي الله عنه حيث روي عنه قوله: «أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كثر فهو كنز وإن أدّيت زكاته»[5].

ويروى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن كل ما زاد عن حاجة المرء فهو كنز، حيث ذكر القرطبي أن هذا مذهب أبي ذر رضي الله عنه ومن مفرداته وشدائده، وعلّله القرطبي بقوله: «يحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر في هذا، ما روي أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يسعهم، وكانت السنون الجوائح هاجمة عليهم، فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت فلما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم أوجب صلى الله عليه وسلم في مائتي درهم خمسة دراهم، وفي عشرين دينارًا نصف دينار، ولم يوجب الكل، واعتبر مدة الاستنماء، فكان

(١) الأوضاح جمع «وضح» وهي نوع من الحلي يعمل من الفضة، وقد سمي بذلك لبياضه. انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو وزكاة الحلي، رقم ١٥٤٦. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ١٠٠، رقم ٥٥٩.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى، كتاب الزكاة، باب تفسير الكنز الذي ورد الوعيد فيه، رقم ٧٤٨٤، وقال: «ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفًا».

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٢٥.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الزكاة، باب كم الكنز ولمن الزكاة، رقم ٧١٥٠، وابن أبي حاتم في تفسيره، ٦/ ١٧٨٨.

ذلك منه بيانًا صلى الله عليه وسلم»[1].

ولكل قول من القولين حججه وأدلته مما لا يتسع المقام لذكره.

الأمر الثاني: المقصود بالذم في الآية:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الذم في هذه الآية مقصود به أهل الكتاب، وإليه ذهب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[2].

وروي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وتبعه في هذا القول غيره أنها عامة في أهل الكتاب وفي المسلمين، ووقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خلاف في ذلك[3].

العقوبة الثانية: توعّدهم بالويل، وتشبيههم بالمشركين.

وهذا ما جاء في إحدى السور التي نزلت بمكة، حيث لم تكن الزكاة فرضت بعد، فقد جاء في سورة فصلت قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

وفي الآية لطائف تفسيرية عند القائلين بأن المراد بها زكاة المال، وهم الحسن وقتادة، وغيرهم، منها:

- أنها واردة على سبيل الإخبار بما سيقع من الذين لا يؤمنون بفرضية الزكاة ولا يؤدونها؛ وذلك لأن الزكاة لم تكن فرضت وقت نزول الآية.... وإنما جعل منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته، وصدق نيته، وخلوص طويته، وما ارتدت العرب إلا بمنعها[4].
- أن المقصود بالزكاة فيها الصدقة، وليس زكاة النصب المعينة في الأموال، وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن الكريم[5].
- ومن لطائف استلزام الويل على منع الزكاة ما قاله بعضهم: «.... فأما كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل فظاهر، وأما كون عدم إيتاء الزكاة موجبًا للويل فذلك لأنه حمّل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام، فذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث، بأنهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٢٥-١٢٦.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥١٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٤٩٧.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢١٩.

إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشحّ بالمال، وكفى بذلك تشويهًا في حكم الأخلاق وحكم العرف فيهم؛ لأنهم يتعيرون باللؤم، ولكنهم يبذلون المال في غير وجهه، ويحرمون منه مستحقيه، وهناك من قال: بأن المقصود بالزكاة في الآية زكاة النفس بالتوحيد والدخول في الإسلام، وهو قول ابن عباس وغيره[1].

العقوبة الثالثة: التطويق بالشجاع الأقرع يوم القيامة.

من عقوبات منع الزكاة ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

هذا وقد أخرج الشيخان بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مثّل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثمّ يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه، ثمّ يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثمّ تلا:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠])[2].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قال: ((من كان له مال لم يؤد زكاته طوّقه الله يوم القيامة شجاعًا أقرع، بفيه زبيبتان، ينقر رأسه حتى يخلص إلى دماغه، ولفظ الحاكم ينهسه في قبره فيقول: ما لي ولك؟! فيقول: أنا مالك الذي بخلت بي[3].

ومعنى كلمة ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾، يحتمل أنه مشتق من الطاقة وهي تحمل ما فوق القدرة، أي : سيحملون ما بخلوا به ، أي : يكون عليهم وزرًا يوم القيامة، أو أنه مشتق من الوق وهو ما يلبس تحت الرقبة فوق الصدر، أي : تجعل أموالهم أطواقًا يوم القيامة فيعذّبون بحملها[4].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ١٠٢، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم ١٣٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم ٢٣٤٤.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، رقم ٣١٦٩، والطبراني في الكبير، رقم ٩١٤٥، ٩/ ٢٣٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٨٢.

أنواع الصدقة وفضلها

أولًا: أنواع الصدقة:

الصدقة إما واجبة، وإما تطوع، فالواجبة هي الزكاة المفروضة بشروطها وأحكامها، والتي هي أحد أركان الإسلام الخمسة، والتطوع هي ما يتقرّب به المرء على سبيل التطوع بلا وجوب، وكل منهما أنواع، وفي ذلك مسألتان بيانهما على النحو الآتي:

١ . الصدقة الواجبة (الزكاة).

الصدقة الواجبة أو الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة، ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة والإجماع على نحو ما تقدم ذكره، وهي أنواع متعددة، تتعلق بما يملكه المسلم من مال بكسب أو إرث أو غير ذلك، وتخرج جميع أنواع الزكاة وفقًا لشروط عامة وشروط خاصة، وقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالزكاة على جهة الإجمال، وجاءت السنة النبوية بالتفصيل، وبعض أنواع الزكاة متفق عليها، وبعضها مختلف فيه.

وقد أحسن ابن رشد الحفيد صنعًا بتقسيمه لأنواع الزكاة من حيث المتفق عليه والمختلف فيه، ونورد طرفًا من كلامه على هذا النحو:

قال ابن رشد: «وأما ما تجب فيه الزكاة من الأموال فإنهم اتفقوا منها على أشياء واختلفوا في أشياء، أما ما اتفقوا عليه فصنفان من المعدن الذهب والفضة اللتين ليستا بحلي، وثلاثة أصناف من الحيوان الإبل والبقر والغنم، وصنفان من الحبوب الحنطة والشعير، وصنفان من الثمر التمر والزبيب، وفي الزيت خلاف شاذ. والذي اختلفوا فيه من الذهب هو الحلي فقط».

ثم قال: «وأما ما اختلفوا فيه من الحيوان: فمنه ما اختلفوا في نوعه، ومنه ما اختلفوا في صنفه؛ أما ما اختلفوا في نوعه فالخيل.....، وأما ما اختلفوا في صنفه فهي السائمة من الإبل والبقر والغنم من غير السائمة منها، فإن قومًا أوجبوا الزكاة في هذه الأصناف الثلاثة سائمة كانت أو غير سائمة.. وقال سائر فقهاء الأمصار: لا زكاة في غير السائمة من هذه الأنواع الثلاثة».

ثم قال: «وأما ما اختلفوا فيه من النبات بعد اتفاقهم على الأصناف الأربعة التي ذكرناها فهو جنس النبات الذي تجب فيه الزكاة، فمنهم من لم ير الزكاة إلا في تلك الأربع فقط.... ومنهم من قال: الزكاة في جميع المدّخر المقتات من النبات.....، ومنهم من قال: الزكاة في كل ما تخرجه الأرض ما عدا الحشيش والحطب والقصب»[1].

ونورد هنا ذكر أصناف الزكاة، ودليل كل

(١) بداية المجتهد ١/ ٢٥١-٢٥٤ بتصرف.

صنف منها من القرآن الكريم بإيجاز على النحو الآتي:

١. زكاة المال (النقدين).

وهو ما يملكه المسلم من مال، أو نقد ذهب أو فضة، ونصابها من الذهب عشرون مثقالًا، وهو ما يساوي ٨٥ جرامًا من الذهب، ومن الفضة مائتي درهم، وهو ما يساوي ستمائة جرام، ومقدار المخرج منه (ربع العشر) أي ٥ ,٢ ٪، ويشترط فيها كونها فائضة عن الحاجة، ومرور الحول، وتمام النصاب.

ودليلها من القرآن قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ودليلها كذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

ودليلها كذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وروي عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: «من الذهب والفضة؛ ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: يعني من الحب والتمر وكل شيء عليه زكاة»[1].

٢. زكاة الزروع والثمار.

وهي تشمل أصنافًا معينة مما تنتجه الأرض من زروع وثمار على تفصيل معروف عند الفقهاء، ونصابها خمسة أوسق، والوسق ستون صاعا، والصاع قدح وثلث بالكيل المصري، والمقدار المخرج منها العشر إن كانت الأرض تسقى بالراحة، ونصف العشر إن كانت تسقى بالآلة ونحوها، ولا يشترط فيها مرور الحول، بل الحصاد، وبلوغ النصاب فقط على تفصيل معروف في بابه.

ودليلها من القرآن قول الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويدل عليها كذلك قوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٣. زكاة عروض التجارة.

وهي الأشياء التي يعدّها المرء ليتجر فيها مثل: العقارات والأثاث والسيارات والمواشي، وغيرها.

وزكاة التجارة مثل زكاة المال نصابًا ومقدارًا، ودليلها من القرآن قول الله تعالى:

(١) الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٤٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٤. زكاة الأنعام.

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تبيّن نعمة الأنعام وأصنافها وفوائدها للإنسان، وتأمره بشكر الله تعالى على تلك النعم، ومن معالم هذا الشكر ما ورد في السنة من وجوب الزكاة في الأنعام، وتحديد أنصبتها ومقاديرها، وتولية الرسول صلى الله عليه وسلم للسعاة ليجمعوها من أربابها.

واتفق فقهاء الأمة على الأنعام التي تجب فيها الزكاة هي (الإبل والبقر والغنم، وأن البقر يدخل فيها الجاموس، والغنم يدخل فيها الماعز)، وهناك خلاف في أصناف أخرى من الحيوانات حول وجوب الزكاة فيها من عدمه. ولزكاة الأنعام شروط عامة وشروط خاصة بكل نوع منها، وأنصبة لكل نوع، لا مجال هنا لذكرها هنا.

٥. زكاة الركاز أو المعدن.

الركاز اختلف في تعريفه، فقيل: إنه اسم للمعدن حقيقة، أو المال الذي خلقه الله تعالى في الأرض[1].

وقيل: إنه المال المدفون قبل العصر الإسلامي، وسمي ركازًا كأنه ركز في الأرض، أي: أثبت فيها[2].

ويشمل الركاز عند بعض المالكية كل ما وجد من ذهب أو فضة في باطن الأرض مخلصًا، سواء دفن فيها أو كان خاليًا عن الدفن[3].

ومقدار زكاته الخمس لما روي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (في الرّكاز الخمس)[4].

واستدل لوجوبها من القرآن بعموم قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧][5].

٦. زكاة الفطر.

زكاة الفطر أو صدقة الفطر قيل: إنها مأخوذة من الفطر الذي هو مقابل الصوم، فهي اسم مصدر من قولك: أفطر الصائم إفطارًا، وأضيفت إلى الفطر؛ لأنه سبب وجوبها، من إضافة الشيء إلى سببه، وقيل: إنها مأخوذة من الفطرة بمعنى الخلقة، وهذه

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ٦٧، البحر الرائق، ابن نجيم ٢/ ٢٥١.

(٢) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/ ٤٢٦.

(٣) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١/ ٤٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة باب في الركاز الخمس، رقم ١٤٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب جرح العجماء والمعدن والبئر جبار، رقم ٤٥٦٢.

(٥) الذخيرة، القرافي ٣/ ٥٩.

يراد بها الصدقة عن البدن[1].

وهي ما يدفعه المسلم عن نفسه وعمن يعوله، وتجب بغروب شمس آخر يوم من رمضان حتى انتهاء صلاة عيد الفطر.

ودليل مشروعيتها محل خلاف بين الفقهاء على قولين: أولهما- أنها وجبت بالسنة النبوية، والثاني: أنها وجبت بالقرآن في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وكذلك قوله جل شأنه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥][2].

وتفصيل شروطها ومقدارها وما تخرج منه، ومن تخرج عنها، ومصارفها مبسوط في موضعه من كتب الفقه.

٢. صدقة التطوع.

ورد في العديد من آيات القرآن الحث على صدقة التطوع، وبيان فضلها وثوابها عند الله تعالى، وقد سبق ذكر طرف من الآيات التي تتكلم عن الصدقة، وسيأتي بيان فضل الصدقة وثوابها.

وليس لصدقة التطوع حد معين أو نصاب مقدر، فباستطاعة المرء أن يتصدّق بما شاء قل أو كثر، وليس لها مصارف محددة، بل تشمل مصارف الزكاة الثمانية، وما سواها مما هو قريب منها أو شبيه بها، بل تشمل الأصناف الذين لا يحل دفع الزكاة المفروضة لهم، كغير المسلمين والأغنياء.

ومن هنا كان مجال صدقة التطوع أوسع، حيث يمكن لكل مسلم أن يتصدق صدقة تطوع، بخلاف الزكاة المفروضة على الغني بشروط معينة، وتدفع وفق أنصبة ومقادير ومصارف معينة.

أنواع صدقة التطوع:

صدقة التطوع نوعان أساسان:

النوع الأول: الصدقة بالمال على حسب أنواعه، والحاجة إليه، وما يحتسبه الإنسان من النفقات، والهبات يرجو ثوابها عند الله تعالى، وهذا باب كبير حثت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة؛ لما فيه من الفضل العظيم والخير الكبير والثواب الجزيل، ولما يقدمه من نفع للفرد والأمة.

والنوع الثاني: ما سوى المال، وهذا يشمل صنوفًا كثيرة من أعمال البر والخير لو ذهبنا نستقصيه لما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وأكتفي بالإشارة إلى طرف منه على هذا النحو:

- جميع أنواع المعروف صدقة؛ لحديث حذيفة رضي الله عنه، قال: قال نبيكم

(١) انظر: حاشية الدسوقي ١/ ٥٠٤، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٤٥-٢٤٦.
(٢) الحاوي الكبير، الماوردي ٣/ ٣٥١.

صلى الله عليه وسلم (كل معروف صدقة)[1].

- ذكر الله عز وجل تسبيحًا وتحميدًا وتهليلًا وتكبيرًا ضرب من ضروب الصدقة.
- الإمساك عن الشر، وكف الأذى عن الطريق، ونحو ذلك من صنوف صدقة التطوع.
- الدلالة على فعل الصدقات، أو التوجيه إلى فعل الخيرات ضرب من ضروب صدقة التطوع.
- الكلمة الطيبة صدقة، وتبسم المسلم في وجه أخيه صدقة... الخ.

وهكذا نرى تنوعًا واضحًا في صدقات التطوع، مما وردت الإشارة إليه في آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وأكتفي هنا ببعض الآيات التي تحث على التصدق، وتبيّن فضله، وحملها المفسرون على صدقة التطوع.

أولًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من أنواع المعروف، رقم ١٠٠٥.

والمراد بهم المنفقين أموالهم في طاعة الله تعالى من الرجال والنساء، سواء كانت صدقة واجبة أو تطوع[2].

ثانيًا: قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

حيث ذكر المفسرون أن مقصود النفقة فيها هو التصدق في سبيل الله[3].

ثانيًا: فضل الصدقة:

يترتب على الصدقات بأنواعها فريضة كانت أو تطوعًا الثواب الكبير والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، وقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم إلى ذلك، وتواترت أحاديث السنة النبوية التي تحث على الصدقة وبذل المال وتبين فضل ذلك، وبيان ذلك على النحو الآتي:

١ . تكفير الذنوب والآثام.

لم يختلف العلماء في أن الصدقة تكفّر عن المرء شيئًا من ذنوبه وآثامه وتمحو خطاياه، التي تتعلق بحقوق الله تعالى، بل وذهب بعض منهم إلى أنها تكفّر بعض الذنوب التي بين المخلوقين استدلالًا ببعض الآيات والأحاديث، بل إن الإمام البخاري رحمه الله قد بوّب بابًا في صحيحه

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٧.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٩٧، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢٦١.

بعنوان: (باب الصدقة تكفّر الخطيئة)[1].

ونشير هنا إلى طرف من هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية.

أولًا: قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

قال القرطبي: «ذهب الجمهور إلى أن الآية في صدقة التطوع؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات»[2]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «وتكفّر عنكم من سيئاتكم» وقال: «الصدقة هي التي تكفّر»[3].

ثانيًا: حديث (يا معشر النّساء تصدّقن فإنّي أريتكنّ أكثر أهل النّار)[4].

قال ابن بطال: «وفيه: دليل أن الصدقة تكفّر الذنوب التي بين المخلوقين»[5].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٣٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٣٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٣٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢/ ٥٣٧، رقم ٢٨٥١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم ١٤٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقصان الطاعات، رقم ٢٥٠.

(٥) شرح البخاري، ابن بطال ١/ ٤١٩.

ومما ورد في تكفير الذنوب ما يلي:

أولًا: ما روي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: أيّكم يحفظ حديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن الفتنة؟ قال: قلت: أنا أحفظه كما قال. قال: إنّك عليه لجريءٌ! فكيف قال؟ قلت: (فتنة الرّجل في أهله وولده وجاره تكفّرها الصّلاة والصّدقة والمعروف). قال سليمان: قد كان يقول :(الصّلاة والصّدقة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر....)[6].

ثانيًا: ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة: (والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار)[7].

٢. تطهير النفس وتزكيتها.

تقوم الصدقة بدور كبير في تطهير النفس البشرية من أدران المعاصي، وتزكيها، وتسمو بها فوق الشهوات واتباع خطوات الشيطان، حيث يخرج المرء ماله في سبيل الله قاصدًا به ابتغاء وجه الله تعالى.

يقول الغزالي في بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة: «اعلم أن على مريد طريق

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب مواقيت الصلاة، رقم ٥٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، رقم ٣٨٦.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب، باب ما ذكر في فضل الصلاة، ٢/ ٥١٢، رقم ٦١٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩١٣، رقم ٥١٣٦.

الآخرة بزكاته وظائف، الوظيفة الأولى: فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها، وأنها لم جعلت من مباني الإسلام، مع أنها تصرّفٌ مالي، وليست من عبادة الأبدان»[1].

قال تعالى في شأن الصدقة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والجمهورعلى أن المقصود بها الزكاة المفروضة.

وقد فسرها بعضهم بأنها صدقة التطوع على سبيل الكفارة لذنوب المتصدقين، وجعلوها خاصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية. وفسّرها الإمام مالك في رواية عنه بأنها زكاة الفطر[2].

٣. مضاعفة الثواب.

ورد في مضاعفة الصدقة للثواب ما يلي:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ومعنى ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يضاعف ثوابها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه[3].

ثانيًا: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبّتان من حديدٍ من ثديّهما إلى تراقيهما، فأمّا المنفق فلا ينفق إلّا سبغت أو وفرت على جلده حتّى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلّا لزقت كلّ حلقةٍ مكانها فهو يوسّعها ولا تتّسع)[4].

ثالثًا: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يومٍ يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللّهمّ أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعط ممسكًا تلفًا)[5].

رابعًا: ما روي عن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاثٍ صدقةٌ جاريةٌ، وعلمٌ ينتفع به، وولدٌ صالحٌ يدعو له)[6].

هذا وقد ورد في الصدقة آيات وأحاديث

(١) أسرار الزكاة، الغزالي ص٦٣.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٠٨، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٠.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٣٦٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل، رقم ١٤٤٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم ١٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب المنفق والممسك، رقم ٢٣٨٣.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب، رقم ١٦٣١.

تشير إلى دورها في الفوز بالجنة والنجاة من النار، ومن ذلك:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ففي الآية إخبار من الله تعالى أنه لا خير في كثير من أولئك المتناجين ولا في نجواهم لنفاقهم وسوء طواياهم اللهم إلا في نجوى أمر أصحابها بصدقة تعطى لمحتاج إليها من المسلمين، أو معروف استحبه الشارع أو أوجبه من البر والإحسان أو إصلاح بين الناس؛ للإبقاء على الألفة والمودة بين المسلمين. ثم أخبر تعالى أن من يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس طلبًا لمرضاة الله تعالى فسوف يثيبه بأحسن الثواب، ألا وهو الجنة دار السلام؛ إذ لا أجر أعظم من أجر يكون الجنة[١].

ثانيًا: ما روي عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: (اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة)[٢].

ثالثًا: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النّبيّ صلى الله عليه وسلم، يوم عيدٍ فصلّى ركعتين، لم يصلّ قبل ولا بعد، ثمّ مال على النّساء، وبلالٌ معه، فوعظهنّ، وأمرهنّ أن يتصدّقن، فجعلت المرأة تلقي القلب والخرص[٣].

قال ابن بطال: «دلّ هذا الحديث أنّ الصدقة قد تنمي المال، وتكون سببًا إلى البركة والزيادة فيه، وأن من شح ولم يتصدق، فإن الله يوكى عليه، ويمنعه من البركة في ماله والنماء فيه»[٤].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٥٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، رقم ١٤١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، رقم ٢٣٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم ١٤٣١.

(٤) شرح البخاري، ابن بطال ٣/ ٤٣٤.

مصارف الزكاة

من حكمة الله عز وجل في تشريع الزكاة أن حدد لها مصارف، موجودة كلها أو أكثرها في كل البلاد والعصور، كما قال الإمام الغزالي رحمه الله: «وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد، وهم المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء والمساكين، والغارمون، والمسافرون - أعني أبناء السبيل -، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون بعض، وهم الغزاة والمكاتبون»[1].

وهذه المصارف مذكورة في كتاب الله تعالى في قوله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد فسّرها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه: قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته - فذكر حديثًا طويلًا - فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي، ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها هو فجزّأها ثمانية أجزاء، فإن كنت منهم أعطيتك حقّك**)[2].

هذا وقد لاحظ بعض العلماء فرقًا دقيقًا بين الأصناف الأربعة الأولى والثانية، بأن الأربعة الأولى (الفقير والمسكين، والعامل على الزكاة، والمؤلفة قلوبهم) يأخذون منها أخذًا مستقرًا، لا يجب عليهم رد ما أخذوه بأي حال حتى لو استغنوا، والأربعة الثانية (في الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل) يأخذوا من الزكاة لينفقوا في تلك الاحتياجات، فإن لم ينفقوا المال فيها، وجب عليهم رده[3].

وقد اتفق الفقهاء على أنّ هذه الآية تفيد الحصر، أي: حصر مصارف الزكاة في هذه الثمانية، كما قال الكمال ابن الهمام: «فمن كان من هؤلاء الأصناف كان مصرفًا، ومن لا فلا؛ لأن «إنما» تفيد الحصر فيثبت النفي عن غيرهم»[4].

وقد ادعى بعض العلماء أن هذا من الإجماع، إلا أنّ دعوى الإجماع غير مستقيمة؛ لما روي عن أنس بن مالك والحسن من جواز دفعها لغير هؤلاء الثمانية[5].

(١) أسرار الزكاة، الغزالي ص٦١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب من يعطى الصدقة، رقم ١٦٣٠.
وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

(٣) كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٨٥.

(٤) شرح فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٢٥٩.

(٥) منار السبيل، ابن ضويان ١/ ٢٠٧.

وما ذهب إليه بعض الحنفية والشيخ تقي الدين بن تيمية من جواز صرف الزكاة لشراء كتب العلم إذا احتاج إليها طالب العلم، غير أن بعض فقهاء الحنابلة قد اعتبروه غير خارج عن الأصناف الثمانية[١].

ونتناول بيان تلك المصارف في السطور الآتية:

١ . الفقراء.

الفقراء جمع فقير، وقد جرى خلاف كبير في تعريفه، في اللغة و اصطلاح الفقهاء والمتصوفة، والذي يعنينا من ذلك هو الفقير في ضوء القرآن الكريم، والذي يستحق الزكاة.

فأما عن تعريف الفقير في اللغة: فقيل: إنه مشتق من فقر الظهر، وهو الذي نزعت فقرة ظهره فانقطع صلبه، وفقير، بمعنى مفعول أي : مفقور،، ورجل فقيرٌ من المال وقد فقر فهو فقير ، والجمع فقراء[٢].

وقيل: إنه فعيل بمعنى فاعل يقال: فقر، يفقر، من باب تعب إذا قلّ ماله، وقيل: الفقير الذي له بلغةٌ من العيش، قال الراعي يمدح عبد الملك بن مروان ويشكو إليه سعاته:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد[٣].

وأما عن تعريفه لدى الفقهاء، فقيل: إنه والمسكين بمعنى واحد، وقيل: له تعريفات أخرى هي:

- أن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه[٤].
- أنه الذي لا يسأل الناس، كما قال الله تعالى في صفة الفقراء: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[٥].
- أنه الذي يسأل ويظهر افتقاره وحاجته إلى الناس، استدلالًا بقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[٦].
- أنه الذي له بلغة لا تكفيه لعيش عامه[٧].
- أنه الذي لا يقدر على ما يقع موقعًا من كفايته لا بمال ولا بكسب[٨].
- أنه الذي لا يجد شيئا ألبتة، أي : قطعًا، أو يجد شيئًا يسيرًا من الكفاية دون نصفها من كسب أو غيره مما لا يقع موقعا من كفايته[٩].

(١) انظر: المحيط البرهاني ابي مازة البخاري ٢/٤٩٨، كشاف القناع ،البهوتي ٢/٢٧١، مطالب أولي النهى ، السيوطي الرحيباني ٢/١٣٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٠.
(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٧٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٩.
(٥) وهو رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ،للسرخسي ٣/ ١٤.
(٦) وهو رواية الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ٣/ ١٤.
(٧) وهو مشهور عن ابن عرفة المالكي، كما في شرح خليل للخرشي ٢/ ٢١٢.
(٨) وهو مروي عن الشافعي وبعض أصحابه، كما في المجموع،للنووي ٦/ ١٩٠.
(٩) كشاف القناع ، للبهوتي ٢/ ٢٧٢.

وأما عن ورود ذكره في القرآن فعلى النحو الآتي:

ورد لفظ الفقير مفردًا بالتعريف والتنكير في المواضع الآتية:

في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

والمشهور في سبب نزولها ما ذكره اليهودي فنحاص بن عازوراء لعنه الله، حينما دعاه سيدنا أبو بكر الصديق للإسلام وأن يصدّق بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ويقرض الله قرضًا حسنًا، فقال فنحاص: تزعم أن الله يستقرضنا أموالنا، ولا يستقرض إلا الفقير، ثم جحد مقالته بعد ذلك أمام النبي صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت الآية[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

والمراد هنا الفقر إلى الله المشار إليه في قول بعض الصالحين: «اللهم أغنني بالافتقار إليك».

وورد لفظ الفقراء بالجمع (معرفًا ومنكرًا) في المواضع الآتية:

في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وفي قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

والمراد بهم هنا خواص الفقراء، أي: فقراء المهاجرين ،وكانوا نحو أربعمائة لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٩٤.

وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد، وكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله. وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد. وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضربًا فى الأرض. والصحيح أنه لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربًا فى الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء، وهؤلاء يقابلهم أصحاب الجدة، ومن ليس محصرًا في سبيل الله، ومن لم يكتم فقرًا وضعفًا[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

والمراد بهم فقراء المسلمين من الخاصة والعامة المستحقون للزكاة، وهؤلاء يقابلهم أصحاب الجدة (أي: الغني)، ومن ليس محصرًا في سبيل الله، ومن لم يكتم فقرًا وضعفًا، وهذا الصنف يقابل أصحاب الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر وغيره[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥].

والمراد هنا الفقر العام لأهل الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم، وهؤلاء لا مقابل لهم، بل الله وحده الغنى وكل ما سواه فقير إليه[3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

والمعنى هنا مثل سابقه.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وورد لفظ الفقر في المواضع الآتية:

في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٠٥.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

[البقرة:٢٦٨] [البقرة: ٢٦٨].

والمعنى أن الشيطان يعدكم في الإنفاق الفقر، ويأمركم بالبخل ومنع التصدق، فالمراد بالفحشاء هنا كما ذكره كثير من المفسرين: البخل وعدم التصدق[(١)]. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فإنه منع الزكاة[(٢)].

٢. المساكين.

جاء في لسان العرب في مادة (سكن): المسكين الذي لا شيء له، وقيل: الذي لا شيء له يكفي عياله قال أبو إسحاق: المسكين الذي أسكنه الفقر ، أي : قلّل حركته وهذا بعيد؛ لأن مسكينًا في معنى فاعل، وقوله: الذي أسكنه الفقر يخرجه إلى معنى مفعول، والاسم منه المسكنة، قال الليث: المسكنة مصدر فعل المسكين وإذا اشتقوا منه فعلًا قالوا: تمسكن الرجل، أي: صار مسكينًا، ويقال: أسكنه الله وأسكن جوفه أي : جعله مسكينًا، وقد يكون بمعنى الذّلّة والضعف يقال تسكّن الرجل وتمسكن[(٣)].

واختلف في تعريف المسكين على أقوال، منها:

- أن المسكين هو الذي به زمانة لا يسأل ولا يعطى له، كما قال الله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ [البلد: ١٦]. أي لاصقًا بالتراب من الجوع والعرى[(٤)].
- أنه الذي يسأل الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وقد جاء يسأل[(٥)].
- أن المسكين هو من ليس لديه شيء بالكلية[(٦)].
- أنه الذي يقدر على ما يقع موقعًا من كفايته إلا إنه لا يكفيه[(٧)].
- أنه الذي يجد معظم الكفاية أو نصفها، من كسب أو غيره[(٨)].

قلت: ومما تقدم يمكن استخلاص تعريف أو وصف للمسكين بأنه: من ليس لديه ما يكفيه بسبب عجز، بدني أو قلة في الكسب، مع تعففه عن سؤال الناس.

الفرق بين الفقير والمسكين:

للعلماء في التفرقة بين الفقير والمسكين

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٠.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١١.
(٤) وهو رواية الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ،للسرخسي٣/ ١٤.
(٥) وهي رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ،للسرخسي٣/ ١٤.
(٦) وهو مشهور عن ابن عرفة المالكي، كما في شرح خليل للخرشي ٢/ ٢١٢.
(٧) وهو مروي عن بعض الشافعية كما في المجموع، للنووي ٦/ ١٩٥.
(٨) كشاف القناع ،البهوتي ٢/ ٢٧٢.

أو التشابه بينهما أقوال أوجزها في ثلاثة:

القول الأول: أن الفقير أحسن حالًا من المسكين، قال ابن السكيت: سألت أعرابيًا: أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكينٌ.

القول الثاني: أنّ المسكين أحسن حالًا من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ وكانت تساوي جملة، وقال في حقّ الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

القول الثالث: أنهما صنف واحد، وهو الذي لا شيء له فجعلهما سواء[1].

لفظ المسكنة ومشتقاته في القرآن الكريم:

ورد لفظ المسكنة في القرآن الكريم في موضعين:

في قوله تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وفي قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

والمسكنة التي ضربها الله تعالى على بني إسرائيل فسّرت بتفسيرات عدة.

ففسّرها بعض العلماء بالفقر والمهانة بسبب إساءتهم في حق الله، وما اقترفوه في حق الأنبياء والرسل[2].

وفسّرها بعض آخر بأن المراد بها فقر النفوس حتى ولو كان صاحبها غنيًا[3].

وفسّرها آخرون بأنها العبودية، فبعد أن كانوا في عزة وتمكين تعرّضوا للعبودية والذلة، والتشريد في البلاد، وضياع الأموال والثروات، والمراد بضرب المسكنة عليهم تقديرها لهم، وهذا إخبار بمغيّب؛ لأن اليهود المخبر عنهم قد أصابهم الفقر حين أخذت منازلهم في خيبر، والنّضير، وقينقاع، وقريظة، ثمّ بإجلائهم بعد ذلك في زمن عمر رضي الله عنه[4].

وورد لفظ «المسكين» مفردًا منكّرًا في ثلاثة مواضع:

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٠، ١٣/ ٢١١، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٨٣.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٣١.
وانظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٤، شرح خليل، الخرشي ٢/ ٢١٢، المجموع، النووي ٦/ ١٩٥، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٧٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٣٠.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٩٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٢٦.

في قوله تعالى في كفارة الظهار: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

وقوله تعالى في شأن التصدق بالطعام: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وقوله تعالى في شأن الإطعام: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

والمراد به مسكينًا ذا لصوق بالأرض؛ لحاجته وشدة فقره، يقال: ترب فلان: إذا افتقر والتصق بالتراب، ويقال أيضًا: ترب بمعنى افتقر، وأترب، أي: استغنى، كأنّ الهمزة للسّلب[1].

وورد لفظ المسكين مفردًا معرفًا في موضعين:

في قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وورد لفظ «مساكين» منكرًا بالجمع في ثلاثة مواضع:

في قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥].

والمسكين في كل ما سبق ذكره هو المسكين الوارد في مصارف الزكاة المستحق لها.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

وبسبب لفظ المساكين الوارد هنا اختلف العلماء في تعريف المسكين والفرق بينه وبين الفقير على نحو ما تقدم، وخلاصة ما في ذلك على أوجه:

أولها: أنهم سموا مساكين باعتبار الغاصب الذي كان يريد غصب سفينتهم، فهم مساكين بسبب ذلك حتى ولو كانوا أغنياء، كما يقال في جماعة تتعرض للظلم: مساكين لا حيلة لهم[2].

ثانيًا: أنهم سموا مساكين لزمانتهم؛ فإن السفينة كانت مملوكة لعشرة، منهم خمسة زمنى[3].

ثالثًا: أن مسكنتهم بسبب ضعفهم البدني أو ضعف كسبهم منها[4].

هذا... وليس بالضرورة أن تكون السفينة

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٨٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥١٥، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٧.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ١٧٨.

مملوكة لهم، بل ذهب بعض المفسرين إلى أنهم كانوا يعملون أجراء عليها[1].

وورد لفظ «المساكين» بالجمع والتعريف في تسعة مواضع:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى في خصال البر: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله تعالى في مصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [الحشر: ٧].

ويلاحظ في ثمانية مواضع من التسعة السابقة أن المسكين مرتبط بذي القربى واليتامى وأبناء السبيل.

هذا وبنظرة إجمالية لما تقدم ذكره من مواضع لفظ المسكنة ومشتقاته في القرآن الكريم نجد أن حقيقة المسكين تدور على معانٍ عدة بعضها مشترك مع الفقير وبعضها مختلف، وأن المسكين ليس بالضرورة مستحق لهذا الوصف بسبب المال، بل قد يستحقه بسبب الضعف البدني والمرض ونحو ذلك، أو بسبب ما يلحقه من مذلة ومهانة تزري من قدره أمام الناس، حتى ولو كان في كل هذه الحالات غنيًا.

٣. العاملون عليها.

العاملون على الزكاة، هم الساعون في تحصيل الزكاة وجمعها من أربابها، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق، وهناك خلاف في دخول الحارس والخازن

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٧.

ونحوهما[1].

ويأخذ عامل الزكاة نصيبه منها على قدر عمالته، ويشترط فيه الإسلام والأمانة والتكليف، وإن كان العامل فقيرًا أخذ من الزكاة نظرا لفقره بلا خلاف.

ولكن وقع خلاف في مسائل:

الأولى: هل يأخذ العامل الغني من الزكاة أم لا؟.

الثانية: هل يجوز استعمال أحد بني هاشم على الزكاة أم لا؟.

الثالثة: في حالة جواز استعمال أحد بني هاشم على الزكاة، هل يأخذ من الزكاة أم لا؟[2].

وهذه المسائل بسط الفقهاء فيها الكلام في مواضعها من كتاب الزكاة، مما لا يتسع المقام لذكره، ونشير هنا إلى مسألة معاصرة تتعلق بعامل الزكاة على النحو الآتي:

العاملون في مؤسسات الزكاة المعاصرة:

إذا نظرنا اليوم إلى العاملين في مؤسسات الزكاة نجدهم أصنافًا شتى؛ حيث لم يعد الأمر مقصورًا على شخص، أو عدة أشخاص يقومون بالجمع والتوزيع، بل يشمل مؤسسات وجمعيات متعددة، وهي تشتمل على عشرات الموظفين ذوي الرتب المختلفة.

ومهنة العامل تحتاج إلى مؤنة وعمل شاق، وجهد متواصل، ومتابعة دؤوبة، ووقت طويل، فهي تشبه وظيفة المحاسب في الشركات والمؤسسات الذي يقوم بالمتابعة، والتسجيل والقيد وبيان الوارد، والصادر، وصرف المرتبات، والتأكد من شخصية مستحقيها، ولا فرق بينهما سوى أن المحاسب يصرف الأجور لكل المسجلين عنده بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي من حيث الفقر والغني، بينما العامل يقوم بجمع للزكاة بإذن الإمام أو نائبه، والتوزيع على المستحقين لها من الأصناف الثمانية المحددة في آية الصدقة.

ومن ثمّ كان من العدل جعل نصيب لهذا العامل من الزكاة مادام متفرغًا لهذا العمل الجليل، وليس هذا مقصورًا على العاملين على الصدقات فقط، بل كل من أوقف نفسه لعمل من فروض الكفايات التي يجوز النيابة فيها فله أجرة مثله.

وعليه فلم يختلف أحد أنّ عامل الزكاة إذا كان فقيرًا أنه يأخذ منها، أما إذا كان غنيًا، ففي المسألة خلاف فقهي معروف.

وفي تقديرنا أنه يمكن أخذ العاملين في مؤسسات الزكاة نصيبًا من الزكاة في حالتين:

الأولى: إذا كانوا فقراء لا تكفيهم رواتبهم التي يتقاضونها من هذه المؤسسات.

---

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١٢١.

(٢) انظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٥، الذخيرة، القرافي ٣/ ١٦٤، الأم، الشافعي ٢/ ٧١-٧٢، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٧٥.

الثانية: إذا كانوا متفرغين للقيام بأعمال جمع الزكاة وتوزيعها، بحيث توكل إليهم تلك المهمة، ولا يمارسون وظيفة أخرى غيرها.

٤ . المؤلفة قلوبهم.

المؤلفة قلوبهم اختلف في تعريفهم على أقوال هي:

القول الأول: أنهم كفار ظهر ميلهم للإسلام، فيعطوا من الزكاة ترغيبًا في الإسلام، قاله مالك وغيره[١].

القول الثاني: أنهم قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة، فيعطوا؛ ليتمكن الإسلام في قلبهم، وحكمهم باق[٢].

القول الثالث: أنهم أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم، أو هم قوم من وجوه العرب، يقدمون عليه، فينفق عليهم منها ما داموا حتى يسلموا أو يرجعوا[٣].

قال القرافي: «هم عظماء من ملوك الكفار أسلموا فيعطون ليتألفوا أتباعهم؛ لأن الجهاد يكون تارة بالنسيان وتارة بالبيان، وتارة بالإحسان، يفعل مع كل صنف ما يليق به»[٤].

وروي عن ابن عباس أنهم قوم كانوا يأتون رسول الله قد أسلموا وكان يرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرًا قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه[٥].

خلاصة أنواع المؤلفة قلوبهم:

١ . نوع يرجى إسلامه أو إسلام قومه أو عشيرته كصفوان بن أمية، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه مائة من الإبل فقال صفوان: **والله لقد أعطاني النبي صلى الله عليه وسلم وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي**[٦].

٢ . نوع يرجى بإعطائه كفّ شره، وشر غيره عن المسلمين، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: إن قومًا كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فإن أعطاهم من الصدقات مدحوا الإسلام، وقالوا: هذا دين حسن، وإن منعهم ذموا وعابوا الإسلام والمسلمين[٧].

٣ . نوع دخلوا في الإسلام حديثًا، فيعطون لتثبيت قلوبهم على الإسلام، كما أعطى صلى الله عليه وسلم يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٧٩، البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١٢١.
(٢) البحر المديد ٣/ ١٢١.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: الذخيرة، القرافي ٣/ ١٤٦.
(٥) شرح فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٢٥٩.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال: لا، رقم ٦١٦٢.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣١٣.

مائة من الإبل[1]، وقال صلى الله عليه وسلم (... إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه؛ مخافة أن يكبّه الله على وجهه في النار)[2]، وأيضًا لما يتعرض له هؤلاء من التضييق عليهم في معاشهم وأرزاقهم من ذويهم، وكثيرًا ما يحاربون من أهل دينهم وعشيرتهم، فهؤلاء أولى بالعطاء تشجيعًا لهم، وتثبيتًا لهم على الإسلام[3].

٤. نوع من سادات المسلمين أقوياء الإيمان، لا يحتاجون في أنفسهم للتأليف، ولكن لهم نظراء من الكفار، فإن أعطى هؤلاء السادة المسلمون رجي إسلام نظرائهم، ويستدل لهذا بإعطاء أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- الزبرقان بن بدر، وعدي بن حاتم الطائي مع حسن إسلامهم[4].

٥. نوع من السادة والزعماء ضعاف الإيمان، فهؤلاء يعطون لتقوية إيمانهم وتثبيتهم على الإسلام، ومن هؤلاء النوع كبار كفار قريش الذين أسلموا في فتح مكة، واشتركوا مع المسلمين في غزوة حنين، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم هوازن وثقيف مما كان سببًا في تقوية إسلامهم[5].

هل سهم المؤلفة قلوبهم باقٍ أم سقط؟

اختلف الفقهاء هل سقط سهمهم بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم أم أنه باق حتى يومنا هذا؟ على قولين:

القول الأول: أن سهمهم قد سقط بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم واعتزاز الإسلام، ولا حاجة في تأليفهم. وهو قول الحنفية، والمالكية، والشافعي في أحد قوليه، وهو مروي عن الشعبي.

القول الثاني: أن سهمهم باق ولم يسقط. قاله الزهري، والشافعي في قول، والحنابلة، والحسن البصري[6].

والذي تطمئن إليه النفس في العصر الحاضر أن سهم هؤلاء باق، حيث وجدت احتياجات عصرية تدخل تحت هذا الصنف بيانها بإيجاز على النحو الآتي:

أولًا: مساعدة الهيئات والجمعيات التي تهتم بالمسلمين الجدد: من المعروف أن الذين يدخلون في الإسلام حديثًا يلاقون تضييقًا من عشيرتهم وذويهم، ومحاربتهم بكل الوسائل لإجبارهم على ترك الإسلام، والرجوع إلى دينهم الأصلي، هؤلاء

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٥/ ١٧٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، رقم ١٤٧٨.
(٣) فقه الزكاة، القرضاوي ٢/ ٦٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١١٤.
(٥) المجموع، النووي ٦/ ١٨٠.
(٦) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٢٤، بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ٤٥.

المسلمون الجدد في أمس الحاجة إلى من يقف بجانبهم، ويأخذ بأيديهم؛ ليثبتوا على الإسلام، ولا يستجيبوا للضغوطات التي تمارس عليهم، لا سيما في البلاد الواقعة في جنوب شرق آسيا كماليزيا، وأندونيسا، وتايلاند، حيث تحتدم الحرب بين الإرساليات التبشيرية بكل ما تملكه من إمكانيات جبارة، والجمعيات الخيرية الإسلامية التي ينقصها الدعم الكافي من جانب الحكومات الإسلامية، والتي تهتم بهؤلاء المسلمين الجدد.

وقد جاء في قرار الندوة الثالثة لقضايا الزكاة المعاصرة: «إيجاد المؤسسات العلمية والاجتماعية لرعاية من دخل في دين الله، وتثبيت قلبه على الإسلام، وكل ما يمكنه من إيجاد المناخ المناسب معنويًا وماديًا لحياته الجديدة»[(١)].

ثانيًا: مساعدة رؤساء الدول الفقيرة غير الإسلامية: يجوز دفع سهم المؤلفة قلوبهم لرؤساء الدول الفقيرة؛ لأن إسلامهم يؤدي لإسلام كثير من رعاياهم بما لهم من نفوذ، والدلائل التاريخية تؤكد صدق هذا، فالإسلام قد دخل في بعض الدول عن طريق إسلام ملوكها ورؤسائها وأهل النفوذ فيها، مثل :ماليزيا وإندونيسا وغيرهما، وجاء في قرار الندوة الثالثة لقضايا الزكاة المعاصرة: «تأليف من يرجى إسلامه، وبخاصة أهل الرأي والنفوذ، ممن يظن أن له دورًا كبيرًا في تحقيق ما فيه صلاح المسلمين»[(٢)].

ثالثًا: الصرف في مواجهة الحملات الدعائية التي تعمل على تشويه الإسلام: ذهب بعض المعاصرين إلى جواز صرف سهم المؤلفة قلوبهم في رد طغيان الدول المسيحية الطامحة في هدم الإسلام والمسلمين عن طريق ذمم بعض الكتاب المسلمين للنيل من الإسلام[(٣)].

٥. الرقاب.

الرقاب، هم الصنف الخامس من المستحقين للزكاة، وللعلماء في المقصود بهذا الصنف أقوال:

القول الأول: أن المراد به شراء العبيد وإعتاقهم من مال الزكاة، وهذا رأي كثير من العلماء والمفسرين[(٤)].

القول الثاني: أنه ليس المراد به العبد الكامل، بل المراد المكاتب يعطى من مال الزكاة ليستكمل حريته[(٥)].

هذا وقد روي عن عمر بن عبد العزيز

(١) انظر: فقه الزكاة، القرضاوي ٢/ ٦١، تأليف القلوب على الإسلام، الأشقر ص٨٠.

(٢) الندوة الثانية، ندوات قضايا الزكاة المعاصرة، الكويت، ١٩٨٩م.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٥٧٤.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧٠.

(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٢٧٠.

رضي الله عنه والزهري القولان: حيث قالا: سهم الرقاب نصفان، نصف لكل مكاتب ممن يدعي الإسلام، والنصف الباقي يشترى به رقاب ممن صلى وصام وقدم إسلامه من ذكر أو أنثى يعتقون لله[1].

القول الثالث: أن المراد به فكاك الأسرى، وهو مذهب أبي حنيفة وبعض المالكية[2].

من لطائف التفسير في الآية:

من بلاغة القرآن في الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر الأصناف الأربعة الأولى بحرف الجر (اللام)، وبعد ذلك عدل عن حرف اللام إلى حرف (في)، وقد استنبط المفسرون من ذلك نكتًا وفوائد بلاغية منها:

أولًا: ما قاله ابن عادل الدمشقي: «إن الأصناف الأربعة يدفع إليهم نصيبهم. وأما الباقون فيصرف نصيبهم في المصالح المتعلقة بهم لا إليهم»[3].

ثانيًا: ما قاله الزمخشري: «فإن قلت: لم عدل عن اللاّم إلى «في» في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم ممّن سبق ذكره؛ لأنّ «في» للوعاء، فنبّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، وجعله مظنّة لها ومصبًّا»[4].

ثالثًا: ما قاله القرافي: «اجتمع فيه (أي: في الرقاب) العرف الشرعي واللغة، أما العرف فلأنه تعالى أطلق الرقبة في الظهار والقتل، ولم يرد بها إلا الرقيق الكامل الرق والذات، وأما اللغة فإن الرقبة تصدق لغة على الأحرار والعبيد ومن كمل ومن نقص، فالمشهور تقديم العرف الشرعي، وهو المشهور في أصول الفقه بأنه ناسخ للغة، ومن لاحظ اللغة لكونها الحقيقة وغيرها مجاز أجاز المكاتب والمدبر والمعيب والأسير، وإن كان الولاء له دون المسلمين، فلأن مقصود الزكاة شكر النعمة وسدّ الخلة؛ وهذا حاصل»[5].

صنف الرقاب ومواضعه في القرآن الكريم:

اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بتحرير العبد من رقّ العبودية، سواء كانت عبودية كاملة، أو ناقصة كالمكاتب ونحوه؛ ولهذا وردت آيات كثيرة تحض على فك الرقاب في الكفّارات وغيرها، وهذا ما نورده إجمالا على النحو الآتي:

في كفارة القتل الخطأ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا

(١) انظر: المحرر الوجيز،ابن عطية ٣/ ٥٥، الكشاف ،الزمخشري٢/ ٢٧٠، البحر المحيط ٥/ ٦١.

(٢) انظر: البحر المحيط ، ابو حيان ٥/ ٦١، المبسوط،السرخسي ٢/ ٢٩٥.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٠/ ١٢٦.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٧٠.

(٥) الذخيرة ٣/ ١٤٧.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وفي كفارة اليمين، قال الله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي كفارة الظهار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٣].

وفي التصدق والعطاء، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي التصدق والعطاء أيضًا قال الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣].

وهذه المواطن السابق ذكرها تبيّن مدى حرص الإسلام على هذا الصنف من أصناف الاحتياجات.

٦. الغارمون.

الغرم في اللغة معناه لزوم ما يشق على النفس، والغارم هو: الذي عليه دين يعجز عن سداده، ويشمل أصنافًا شتى استنادًا لما روي عن السلف.

فقد روي عن مجاهد في قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ قال: «ثلاثةٌ من الغارمين: رجلٌ ذهب السّيل بماله، ورجلٌ أصابه حريقٌ فذهب بماله، ورجلٌ له عيالٌ وليس له مالٌ، فهو يدّان وينفق على عياله»[1].

وروي عن مقاتل في قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ قال: «هو الذي يسأل في دم أو جائحة تصيبه»[2].

ونحوه قاله الشافعي رحمه الله: «من تحمّل غرامة في إصلاح ذات البين وإطفاء الثائرة بين القبيلتين».

ويشترط فيه أن يكون مسلمًا، استدان في غير سرف ولا فساد أو معصية، ولا يستطيع قضاء دينه[3].

قال ابن عادل الدمشقي: «الدّين إن حصل بسبب معصيةٍ لا يدخل في الآية؛ لأنّ المقصود من صرف المال إليه الإعانة، والمعصية لا تستوجب الإعانة، وإن حصل لا بسبب معصية فهو قسمان: دينٌ حصل بسبب نفقات ضرورية أو في مصلحة، ودين

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الزكاة، باب ما قالوا في الغارمين، ٣/ ٢٠٧، رقم ١٠٧٦٣.
(٢) الدر المنثور ،السيوطي ٤/ ٢٢٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨١، البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١٢١. وانظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٦، الذخيرة، القرافي ٣/ ١٤٧-١٤٨، المغني، ابن قدامة ٧/ ٣٢٤.

بسبب حمالات وإصلاح ذات بين، فيدخل في الآية»[1].

روى مسلم عن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: (أصيب رجلٌ في عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في ثمارٍ ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (تصدّقوا عليه). فتصدّق النّاس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لغرمائه: (خذوا ما وجدتم وليس لكم إلاّ ذلك)[2].

وذكر الماوردى أن الغارمين صنفان، صنف منهم استدانوا فى مصالح أنفسهم فيدفع إليهم مع الفقر دون الغنى ما يقضون به ديونهم، وصنف منهم استدانوا فى مصالح المسلمين فيدفع إليهم مع الفقر والغنى قدر ديونهم من غير فضل[3].

وفي الآية لمحة بيانية رائعة، وهي أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ فكأنه قال: (الصدقات في الغارمين) ولم يقل: «للغارمين»، وعليه فالغارم لا يشترط تمليكه ويجوز الوفاء عنه، وهذا ما اختاره وأفتى به الإمام ابن تيمية[4].

هذا وللفقهاء تفصيل في مسائل تتعلق بالغارمين مبسوطة في مواضعها، لا يتسع المقام لذكرها، مثل: هل يرجع المدين ما أخذه من الزكاة إذا استغنى بعد ذلك؟ وهل يسدد منها دين الميت أم لا؟.

٧. في سبيل الله.

مصرف «في سبيل الله» أحد مصارف الزكاة التي توسع الفقهاء في معناها، وما يشتمل عليه من أعمال الجهاد وغيرها، وما يشترط فيه مثل اشتراط كونه فقيرًا ليأخذ سهمًا من الزكاة من عدمه الخ... الأحكام المتعلقة به. ولكن الذي يعنينا من هذه المسائل ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التوسع في مفهوم مصرف «في سبيل الله» باعتبار الأشخاص:

أكثر العلماء على أن «في سبيل الله» يقصد به الغزاة والمرابطون، فيعطوا من الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء، ويشترى منها آلات الجهاد[5].

وهناك رأي ثانٍ لبعض الصحابة والتابعين والفقهاء أدخلوا فيه الحجّاج بناء على تعدد سبل الخير وشموليتها لأكثر من جهة، ومن هؤلاء: ابن عمر رضي الله عنهما، ومحمد بن الحسن من الحنفية، وأحمد بن حنبل في رواية، وإسحاق بن راهويه، والرازي

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٠/ ١٢٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين، رقم ١٥٥٦.
(٣) الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٣٢.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥/ ٨٠.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨٥، أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٣٢٩.

وغيرهم[1].

وبناء على الرأي الثاني، فيمكن أن يتسع نطاق هذا المصرف ليشمل الجهاد وغيره من أعمال الخير، العائد نفعها على الأمة أو الفرد.

الأمر الثاني: التوسع في مفهومه المقتصر على المجاهدين، بحيث يشمل أمورًا كثيرةً من أمور الجهاد:

أدخل بعض العلماء كثيرًا من أعمال الجهاد تحت مصرف «في سبيل الله» مثل: شراء السلاح، وإقامة المنشآت العسكرية[2].

فذكر الكاساني أن الغازي يعطى من الزكاة إذا كان فقيرًا، وكذا إذا كان غنيًا ثم عرضت له حاجة، وخرج للغزو، فيعطى منها ما يشتري به آلات الحرب ومركب الحرب، بل وخادم يعينه في الحرب[3].

قلت: وعلى الرغم من وجود الخلاف في هذه المسألة واختيار أكثر العلماء لتفسيره بالغزاة والمرابطين، وما يتعلق بشئون الجهاد، فإن هذا المصرف يمكن أن يشمل هذه الفئات باعتبارهم من المجاهدين:

أولًا: المجندين في الجيوش النظامية في بعض البلاد الفقيرة، التي يعاني المجندون فيها من نقص في الموارد والإمكانيات.

ثانيًا: الجيوش الحرة (الأفراد والمجموعات) التي تتشكّل في بعض الدول التي تعاني اضطهادًا أو قمعًا من حكّامها الطغاة، فهذه الجيوش في أمسّ الحاجة للمعونة المالية، والزكاة وسيلة مثلى من وسائل الإعانة لهم تحت بند (في سبيل الله).

ثالثًا: الشعوب المضطهدة من الاحتلال كالشعب الفلسطيني، سواء كان في مرحلة جهاد مفاجيء كما في حالات الغارات الإسرائيلية عليهم، أو جهاد دائم بوقوعهم تحت نير الاحتلال الغاشم.

رابعًا: الأقليات المسلمة التي تعاني اضطهادًا في دول معينة من قبل كفار تلك الدولة، ولا توفّر لهم حكوماتهم حماية ولا مساندة ، كما هو الحال في مسلمي بورما، وكشمير، وبنجلاديش، والبوسنة ، والهرسك وغيرها من المناطق.

خامسًا: المرابطين في الثغور إذا كانت حالتهم المادية فقيرة ، فيشمل ذلك قوات حرس الحدود والموانيء ونحوها من المنافذ البرية والبحرية للدولة، لاسيما التي في اتجاه عدو ظاهر أو مشهور بعدائه للمسلمين.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧١، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨٥، أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٣٢٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨٥.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ٤٥.

ويمكن أن يشمل من أمور الجهاد ما يلي:

- الإنفاق على التسليح لفئات الجهاد المختلفة، فيشمل شراء الأسلحة وتطويرها وإصلاحها.
- الإنفاق على الأعمال المعاونة للجهاد، كالأعمال الاستخباراتية من مراقبة العدو، ورصد تحركاته.
- عمل المنشآت العسكرية من حفر الخنادق، وإنشاء النقاط الحصينة، وبناء المساكن.
- دفع أموال لصد العدوان عن ديار المسلمين، سواء كان الدفع لمن يخذّل العدو عن المسلمين أو يعرقل سيرهم نحو ديار المسلمين، أو كان الدفع لصنف من الأعداء لا ينكّف إلا بذلك[(١)].

ويؤيد هذا ما ذكره شراح متن (خليل) من المالكية من أن الزكاة يعطى منها المجاهد والمرابط وما يلزمهما من آلة الجهاد، بأن يشتري منها سلاحًا أو خيلًا لينازل عليها، ويأخذ المجاهد من الزكاة ولو كان غنيًا؛ لأن أخذه بوصف الجهاد لا بوصف الفقر، ويعطى منها جاسوس يرسل للاطلاع على عورات العدو ويعلمنا بها، ولو كان كافرًا[(٢)].

(١) انظر: الذخيرة، القرافي ٣/ ١٤٨، الشرح الكبير، الدردير ١/ ٤٩٧.

(٢) الشرح الكبير، الدردير ١/ ٤٩٧، ويرى ابن بشير المالكي عدم صرف الزكاة في بناء الأسوار والسفن التي تستخدم في أعمال الجهاد.

الأمر الثالث: التوسع في مفهومه باعتبار الأفعال والقربات:

توسع بعض العلماء في مفهوم «في سبيل الله» كثيرًا؛ فأدخل تحته كل أنواع القربات، كما فعله الكاساني الحنفي، حيث قال: «ويدخل فيه كل من سعى في طاعة الله وفي سبيل الخيرات إذا كان محتاجًا»[(٣)].

وبناء على هذا التوسع في المفهوم؛ فإنه ينبغي إدخال أسر المجاهدين وذويهم، باعتبار ذلك ذا صلة مباشرة بأعمال الجهاد من ناحية، فلا يخرج عن إطار «في سبيل الله».

ويمكن الاستناد في هذا إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**من جهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا**)[(٤)]. ومن ناحية أخرى إذا وجد فيهم وصف الفقر أو المسكنة فقد دخلوا في أصناف أخرى من مصارف الزكاة.

٨. ابن السبيل.

اختلف في المقصود بابن السبيل في

(٣) بدائع الصنائع ٢/ ٤٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله، رقم ١٨٩٥.

مصارف الزكاة، على أقوال:

أولًا: أنه المسافر الغريب أو عابر الطريق، الذي انقطعت به النفقة، وسمي بذلك كأن الطريق ولدته[1].

ثانيًا: أن المراد به الضيف، أو المسافر الذي يمر بحي من الأحياء، حيث يجب إكرامه[2].

ورود ذكر ابن السبيل في القرآن:

ورد ذكر ابن السبيل على اختلاف تفسيره في المواضع الآتية من كتاب الله تعالى:

في آية خصال البر، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي آية النفقة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وفي الوصية بذوي الحاجات والقربى والجيران في سورة النساء، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وفي توزيع الغنائم في سورة الأنفال، -قال تعالى-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي آية مصارف الزكاة التي نحن بصددها في سورة التوبة.

وفي الوصية بإعطاء الحقوق لأصحابها في سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وفي الوصية بإعطاء الحقوق لأصحابها لا سيما ذوي الحاجات من هم في سورة الروم، قال الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وفي تقسيم الفيء، في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧].

ومن مجمل هذه الآيات يتبيّن لنا مدى حرص القرآن الكريم على ابن السبيل، وضرورة تحقيق النفع له بوجوه شتى، هي:

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٤٤، البحر المديد ١/ ٢١٩، ٣/ ١٢١.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

- إعطاؤه من الزكاة بالبلد التي مر بها على التفصيل المعروف في الفقه.
- إيفاؤه حقه من الضيافة ونحوها، كتقديم العون والمساعدة له، ودفع الضرر عنه.
- استحقاقه من الغنيمة والفيء.
- ضرورة النفقة عليه والتصدق.
- الإحسان إليه بكل وجوه الإحسان؛ لما في ذلك من البر.

وبعد... فقد رأينا خلال هذه الصفحات القليلة كيف اهتم القرآن الكريم بشأن الزكاة وأعلى قدرها، وحث عليها، وبيّن منزلتها، ومنزلة من يؤديها ويحافظ عليها، وبيّن عاقبة وسوء خاتمة من يمنعها أو يبخل بها، وبسط الكلام عن فضائلها وأحكامها.

وما ذلك إلا ترغيبًا في الزكاة، وترهيبًا من إهمالها والضنّ بها، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه العزيز مبيّنًا أن الزكاة من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤].

موضوعات ذات صلة

الأجل، الاقتصاد، الإنفاق، البخل، البركة، التزكية، الرزق، السر، السعة، الكسب، المال





عناصر الموضوع

التعريف بزكريا عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

هو نبي الله زكريا، أبو نبي الله يحيى عليهما السلام، من بني إسرائيل، وينتسب لنبي الله يعقوب عليه السلام كما يفهم من قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم:٦].

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٥]

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه من ذرية سليمان بن داود عليهما السلام[1].

وفي كتاب البدء والتاريخ: أنه من ولد داود وكان يعمل نجاراً وكانت تحته أخت مريم بنت عمران أم عيسى وكان يحيى وعيسى ابني خالة، وكفل زكريا مريم[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (كان زكريّا نجّارًا)[3].

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

عاش نبي الله زكريا عليه السلام قبل ميلاد عيسى عليه السلام، حيث عاصر ميلاد مريم وكفلها، واستجاب الله دعاءه ورزقه بيحيى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧].

ثالثًا: قرابته لمريم وعيسى عليهما السلام:

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ١٩/ ٤٨، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٣٤٨.

(٢) انظر: البدء والتاريخ، ابن طاهر المقدسي ٣/ ١١٦، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي ٢/ ٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في فضائل زكريا عليه السلام، رقم ٢٣٧٩.



قيل: هو زوج أخت مريم عليها السلام.

وقيل: زوج خالتها.

قال ابن كثير: «وإنّما المحفوظ في بعض ألفاظ الصّحيح في حديث الإسراء: (فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة)[1]. فجاء على قول الجمهور، كما هو ظاهر الحديث، فإنّ أمّ يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران.

وقيل: بل أشياع وهي امرأة زكريّا أمّ يحيى هي أخت حنّة امرأة عمران أمّ مريم، فيكون يحيى ابن خالة مريم، فالله أعلم»[2].

رابعًا: وفاته عليه السلام:

قتل عليه السلام بتحريضٍ من قتلة يحيى عليه السلام[3]، وقتل اليهود للأنبياء من أشنع ما ارتكبوه من جرائم.

قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ٥/ ٥٣، رقم ٣٨٨٧ حديث أنس ابن مالك في الإسراء والمعراج، وفيه: (فلمّا خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة).

(٢) البداية والنهاية، ٢/ ٦٥.

(٣) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ١٩/ ٥٦.
وقد جاء في إنجيل متى ٢٣/ ٣٥ وفي إنجيل لوقا ١١/ ٤٩ ذمٌّ ووعيدٌ لقاتليه.

ذكر زكريا عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر زكريا عليه السلام في القرآن الكريم (٧) مرات، في (٤) سورة.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
آل عمران	٣٧-٤١
مريم	٧-١١
الأنبياء	٨٩-٩٠

كفالة زكريا لمريم عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

تبدأ قصة زكريا عليه السلام كما في سورة آل عمران وهي سورة مدنية نزل صدرها بمناسبة قدوم وفد من نصارى نجران، وحوارهم مع النبي صلى الله عليه وسلم الذي دار محوره حول المسيح عليه السلام، ويبدأ الحديث عن زكريا بهذا العمل العظيم الذي حرص على القيام به ووفق إليه، كفالة اليتيمة مريم، تلك الطفلة التي تقبلها المولى عز وجل وأنبتها نباتاً حسناً، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة.

أولًا: كيف تمت تلك الكفالة؟

تم هذا الأمر بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافسوا وتنازعوا على كفالة مريم، كلٌّ يرجو لنفسه أن ينال هذا الشرف، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤيتها، وحرصا على هذا الشرف ووفاء لمعلمهم وإمامهم كان تنافسهم وتسابقهم على كفالتها، ولما لم تجتمع لهم كلمة ولم يتفق لهم رأي وطال جدالهم حول من يستأثر بهذه المكرمة: اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

قال ابن عبّاسٍ: اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية وعال قلم زكريّا الجرية فكفلها زكريّا[1].

قال ابن حجر: ((وعال قلم زكريا) أي: ارتفع على الماء وفي إحدى الروايات وعلا، و(الجرية) بكسر الجيم والمعنى: أنهم اقترعوا على كفالة مريم أيهم يكفلها فأخرج كل واحد منهم قلما وألقوها كلها في الماء فجرت أقلامهم الجميع مع الجرية إلى أسفل وارتفع قلم زكريا فأخذها)[2].

وفاز زكريا عليه السلام بالقرعة وتولى كفالة مريم رضي الله عنها.

قرئ: (وَكَفَلَهَا)، بالفاء المفتوحة المخففة على إسناد الفعل إلى زكريا عليه السلام: إخبار من الله بأنه هو الذي تولى كفالتها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾.

وقرئ بالتشديد ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ أي: جعل الله زكريا لها كافلًا.

والقراءتان صحيحتان، لا تعارض بينهما في المعنى، فالمولى عز وجل قد أكرم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، ٣/ ١٨١.

(٢) فتح الباري ٥/ ٣٤٧ باختصار.

مريم رضي الله عنها بأن جعل زكريا لها كافلا، ولقد توجه زكريا وقصد كفالة مريم تقربًا إلى الله عز وجل ووفاءً وعرفانًا وبرًّا وإحسانًا، وزكريا عليه السلام وإن كان قد أقبل على كفالتها، وأصاب سهمه فإن الذي هداه إلى ذلك ووفقه ويسّر له ذلك الأمر هو الله عز وجل[1].

كرامة لمريم عليها السلام:

قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قام نبي الله زكريا عليه السلام بكفالة مريم، وجعل مقامها في بيت المقدس، في موضع تخلو فيه للعبادة وهو المحراب.

ولابد أن هذا المكان بمعزل عن الاختلاط بالرجال والظهور لهم، فهو خلوة لمريم تتعبّد لربها بصفاء ذهن وإقبال قلب. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ لم يحمله إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره؛ فهو القائم على كفالتها، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه.

(١) بالتخفيف قراءة: نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، والباقون بالتشديد.
انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٣٩.

قال ابن كثير: «قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وعن مجاهد قال: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: علمًا، أو قال: صحفًا فيها علم. والأول أصح. وفيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة»[2].

هذا الرزق كرامة من جملة الكرامات التي أظهرها الله لمريم تمهيدا وتهيئة للآية العجيبة التي تنتظرها.

موقف زكريا عليه السلام من هذه الكرامة: سأل زكريا مريم متعجبًا من أين لك هذا ؟ كيف وصل إليك قالت هو من عند الله؛ فعطاؤه ممدود، وفضله عظيم وخزائنه زاخرة. كما قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

فالله سبحانه يعطي العباد من حيث لا يحتسبون، بدون تقدير منهم ولا تدبير، وفي الحديث (يمين الله ملأى لا يغيضها شيء، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه)[3].

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، ٢/ ٦٩٠، رقم ٩٩٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن توالي النعم بسح اليمين، سح الماء سحا: سال من

سؤال زكريا عليه السلام الولد

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

وفي سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٢-٦].

وفي سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

لقد أكرم المولى عز وجل زكريا عليه السلام بإكرامه لمريم تلك اليتيمة ذات المكانة العظيمة، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سببًا مباشرًا في توجّه زكريا عليه السلام إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة.

ومن هنا تبدأ القصة، ولذا قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت وفي نفس المكان، وزكريا عليه السلام يشهد هذه الكرامة، ويرى تلك العجيبة، في المحراب مكان العبادة والطاعة، والرحمات والبركات والنفحات، يتوجه زكريا بالدعاء راجيًا من المولى عز وجل أن يرزقه ذرية طيبة، معلقا رجاءه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه كما رأى الفاكهة في غير حينها.

قال القشيري: «لما رأى كرامة الله سبحانه مع مريم ازداد يقينا على يقين ورجاء على رجاء فسأل الولد على كبر سنه، وإجابته إلى ذلك كانت نقضا للعادة»[1].

لما رأى كرامة لمريم تدل على صلاحها وقربها من الله تمنى أن يكون له ولد صالح تقرّ به عينه، وينشرح له صدره.

وجاء الطلب بلفظ الهبة: «لأن الهبة إحسان محض، ليس في مقابلة شيء وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد، لكبر سنه، ولا للوالدة؛ لكونها عاقرا لا تلد»[2].

ومنح الولد مع اجتماع موانعه من كبر السن والعقم أمر خارق للعادة، مظهر لعظيم قدرة الله وجليل صنعه ولطيف إرادته. لذلك كان التفسير بـ(لدن) التي هي أخص من (عند) لأن هبة الولد لزكريا مع كبر سنه وعقم زوجته فيه منحة وخصوصية من المولى القدير جل وعلا.

فوق إلى أسفل وسححته إذا أسلته..والسح هو الصب الكثير.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ١٢٢.

(١) انظر: لطائف الإشارات، ١/ ٢٥١.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٤٤.

قال الرازي: «لأن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى: أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة، وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من الأسباب»[1].

والذرية الطيبة الولد الصالح الذي تطيب به النفس ، ويبتهج الفؤاد وتقر به العين، فيوافق ما يتمناه أبواه ويرجوانه له من الصلاح.

«لما كان الباعث عليه ما شاهد من أمر مريم وخصوص كرامتها على الله، وامتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه إلا أن يسأل ربه أن يهبه مثلها كرامة ومكانة عند الله؛ ولذلك استجيب في عين ما سأل من الله، ووهب له يحيى وهو أشبه الأنبياء بعيسى عليه السلام، وأجمع الناس لما عند عيسى وأمه مريم الصديقة من صفات الكمال والكرامة...»[2] ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: قابله ومجيبه.

قال النبيّ المستجاب دعاؤه
ما كنت ربّي بالدّعاء شقيّا
هب لي بفضلك وارثًا متعبّدًا
واجعله يا ربّ العباد رضيّا
فأجاب دعوته وأنجز وعده
بفتاه أعني عبده زكريّا[3]

وفي سورة مريم قال تعالى في مستهل السورة عن دعاء زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١-١٥]

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾:

(١) مفاتيح الغيب، ٨/ ٣٣.
(٢) انظر: الميزان، الطباطبائي ٣/ ١٧٥ .
(٣) أورد الفيروزآبادي هذه الأبيات في بصائر ذوي التمييز ٦/ ٩٣، ولم يذكر قائلها.



تذكير للنبي صلى الله عليه وسلم ولسائر المخاطبين برحمة الله عز وجل بعبده ونبيه زكريا عليه السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾: دعا ربه خفية، ومن المعلوم أن إخفاء الدعاء أو الجهر به عند الله سواء فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء، وللدعاء في السر مزية فهو أدعى للخضوع والخشوع والإخلاص، وأقرب للإجابة، يقول قتادة: إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي[1].

وفي الحديث: (أربعوا على أنفسكم فإنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم)[2].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: ضعفت عظامي وخارت قواي، «فالعظم عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقط قواه»[3].

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: وشاب شعر الرأس كناية عن كبر سنه، فالشيب يسري في الرأس وينتشر فيها، كما تسري النار وتشتعل في الهشيم. والمراد من هذا: «الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة»[4]. وفي هذا إشارة إلى ضعفه، وفقره إلى رحمة الله عز وجل.

حسن الرجاء:

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾: لم أعهد منك ربي إلا إجابتي في دعوتي فأنت رجائي وغايتي، وأنت قصدي ووجهتي، عودتني على الكرم والإحسان.

ولم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتك استجبت لي، وهذا توسل منه بما سلف من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن، وضعف الحال، فإنه تعالى بعدما عود عبده بالإجابة دهرا طويلا لا يخيبه أبدا لا سيما عند الاضطرار وشدة الافتقار ، روي أن محتاجا قال لبعضهم: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته... يقال: سعد بحاجته إذا ظفر بها، وشقي بها إذا خاب[5].

إخلاص النية والحرص على الخير:

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يخبر زكريا عليه السلام عن أسباب طلبه للولد فقد وهن منه العظم وشاب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع فيها برفعه كالتلبية وغيرها، ٤/ ٢٠٨٦، رقم ٢٧٠٤، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٥٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١١.

(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٥/ ٣١٤.

الشعر وتقدم به العمر، وهو خائف من أن يموت دون وارث له، يرث عنه النبوة والصلاح. قال الإمام القاسمي: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾، أي: الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به، من الإرشاد ووعظ العباد، وحفظ آداب الدين والتمسك بهديه المتين»[1].

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾: « و في الإخبار عنه بلفظ الماضي (وكان): إعلام بتقادم العهد في ذلك ، وغرض زكريا من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد، فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى»[2] في الدلالة، فهي لا تلد منذ شبابها، فكيف بها الآن؛ وقد بلغت من الكبر عتيا، !

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾:هب لي من لدنك من يلي أمري، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾: المقصود هنا ليس ميراث الملك أو المال، وإنما ميراث النبوة والحكمة، فالأنبياء لا يورثون دينارا ولا درهما، وإنما يورثون الحكمة والهدى والصلاح، والميراث يكون في المال أو في الملك أو في العلم والحكمة أو في النبوة والصلاح، والأول مستبعدٌ لأنه لم يطلب الولد ليرث ماله فالأنبياء لا يورّثون مالا. وليس ميراث ملك لأن زكريا لم يكن ملكا وآل يعقوب لم يتوارثوا ملكا ويحيى عليه السلام لم يصبح ملكا. ومن هنا فإن الميراث الحقيقي الذي سيرثه عن أبيه هو الصلاح والعلم والحكمة.

قال الراغب: «﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعني وراثة النبوة والعلم والفضيلة دون المال، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه، بل قلما يقتنون المال ويملكونه»[3].

سؤال الصلاح للولد:

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: مرضيًّا عندك في جميع أحواله.قال ابن كثير: «مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه»[4]، كما قال عز وجل في ختام سورة مريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

أي: سيجعل لهم في قلوب العباد محبة ومودة.

قال الماوردي «فيها وجهان: أحدهما: حبا في الدنيا مع الأبرار، وهيبة عند الفجار، الثاني: يحبهم الله ويحببهم الناس... ويحتمل ثالثًا: أن يجعل ثناء حسنا...»[5].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن

(١) محاسن التأويل، ١١/ ١١١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ١٨٣.
(٣) المفردات، ص ٥١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١١.
(٥) النكت والعيون، ٢/ ٦.

الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض» [1].

دعاء زكريا في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وهذا هو الموضع الثالث الذي يتحدث فيه القرآن الكريم عن دعاء زكريا عليه السلام، وسياق الآيات هنا في بيان رحمة الله بأنبيائه واستجابته لدعواتهم، ونلاحظ أن مضمون الدعاء في السور الثلاث واحد والهدف منه واحد، وإن تنوعت الأساليب، فإن تنوعها يكشف عن حقائق هذا الدعاء ومقاصده، ومن المرجّح أن الدعاء تكرر من زكريا عليه السلام.

وفي موضع سورة الأنبياء يخبر الله تعالى في سياق إنعامه على أنبيائه واستجابته لدعائهم، كيف يطلب زكريا عليه السلام من المولى عز وجل أن لا يتركه وحيدا لا ولد له؛ يقوم بوراثة الصلاح والنبوة من بعده، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩]

فالوارث الحقيقي هو الله سبحانه وهو الباقي بعد فناء خلقه. قال ابن كثيرفي قوله ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: «دعاء وثناء مناسب للمسألة» [2].

وقال الألوسي في معنى ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: «وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عز وجل» [3].

استجابة الله تعالى لدعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩]

وقال عز وجل في سورة مريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: ٧].

وقال سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا وضع له القبول في الأرض، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٩٣.

(٣) روح المعاني ١٧/ ٨٧.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]

في الموضع الأول من سورة آل عمران يذكر المولى عز وجل أن الملائكة نادت على زكريا عليه السلام وهو يصلي في المحراب ذاك المكان الطاهر المبارك، وبشرته ببشارة عظيمة ، بشرته بغلام يدعى يحيى يكون سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين.

قال ابن كثير: «خاطبته الملائكة مشافهة خطابا أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته»[1]. والتعبير بالفاء هنا يدل على التعقيب، المفيد لسرعة الجواب، كما قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾.

ولقد اختلف المفسرون في المراد بالملائكة هنا: هل هم جمع منهم أم أن المراد جبريل عليه السلام ؟

وظاهر النص: يفيد أن المنادي جمع من الملائكة، وقيل إن المنادي جبريل، ذكر ذلك ابن جرير في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه[2] ، وقال الألوسي معلقا على هذا الرأي: «فالجمع هنا مجاز عن الواحد للتعظيم، أو يكون هذا من إسناد فعل البعض للكل، وقيل : الجمع فيه مثل قولك: فلان يركب الخيل ويلبس الديباج، واعترض بأن هذا إنما يصح إذا أريد واحد لا بعينه، وهاهنا أريد المعين فلعل ما تقدم أولى بالإرادة ، وقيل : الجمع على حاله ، والمنادي كان جملة من الملائكة»[3].

والذي أراه في هذه المسألة أن المنادي جمع من الملائكة كما يفيد ظاهر النص؛ لأن الأصل هو الأخذ بظاهر النصوص واستعماله الحقيقي دون اللجوء إلى صرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز. وفي نداء جمع من الملائكة مزيد اعتناء وتكريم لزكريا، وتعظيم لتلك البشارة وللواهب جل وعلا.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ ذكر المبشر به وهو يحيى عليه السلام يدل على أنه ذكر وعلى أن المولى عز وجل قد اختار له هذا الاسم الطيب المبارك.

وفي سورة مريم ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مريم: ٧]

وفي هذه الآية إشارة إلى أن المبشر به وهو يحيى عليه السلام سوف يولد ويكبر حتى يصير غلاما، وفي قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ ما يفيد أن هذا الاسم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٦١.
(٣) روح المعاني، ٣/ ١٤٥.

لم يسم به أحد قبل يحيى عليه السلام، فهو اسم بكر، وللاسم البكر الجميل وقعه في النفوس، وصداه في الآذان، واختيار هذا الاسم ليحيى نعمة وهبة من الله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فالمسمى والاسم هبة ونعمة من الله عز وجل.

أما عن سر التسمية بهذا الاسم، فيقول مقاتل: ((لم يكن أحد من الناس فيما خلا يسمى يحيى، وإنما سماه يحيى لأنه أحياه من بين شيخ كبير وعجوز عاقر))[1]. وعن قتادة قال: ((أحياه اللّه بالإيمان))[2].

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مؤمنا بعيسى عليه السلام، قيل إن يحيى عليه السلام هو أول من صدّق بعيسى عليه السلام، وقيل ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: مؤمنا بكتاب منه تعالى[3].

لقد كانت ولادة يحيى عليه السلام من شيخ كبير وأم عجوز عاقر تمهيدا لآية أعجب وهي ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، مع القرب الزمني بين الحدثين المتعاقبين، حيث ولد يحيى وبعده عيسى عليهما السلام.

﴿وَسَيِّدًا﴾: كريما، شريفا، يسود الناس بفقهه وعلمه وحلمه، وحكمته وهمّته، وزهده وقوته في الحق[4]، ساد نفسه بأن حملها على طاعة الله وصرفها عن معصيته، وساد قومه بما تحلى به من مكارم الأخلاق، ومن ساد نفسه ساد غيره.

﴿وَحَصُورًا﴾: حصر نفسه أي: حبسها ومنعها من الهمم الدنية[5]، وقيل: هو الذي لا يأتي النساء لا لعجزه عن ذلك، وإنما لزهده وانشغاله بالطاعات والقربات[6].

ولا تعارض بين المعنيين، وإن كان الأول أولى، لأن الزواج سنة الأنبياء عليهم السلام.

وسياق الكلام يدل على البشارات التي ساقتها الملائكة لزكريا عليه السلام لتدخل على قلبه السرور، والحصور صفة مدح وكمال لا صفة ذم ونقصان.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع عليه السلام بين النبوة والصلاح، فالأنبياء هم أشد

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٦٢١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٤٧.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦١.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣١٣، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦.، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٦، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٤٧.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦١، روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣١.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٦، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٤٨، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٥.

الناس صلاحا واستقامة على منهج الله[1]، والصلاح صفة ملازمة لهم قبل النبوة، لكن النبوة تزيدهم صلاحا على صلاح.

وفي الموضع الثاني من سورة مريم يأتي الجواب من قبل الله عز وجل: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم: ٧].

لم نجعل له شبيها من أهل عصره في أحواله وصفاته، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم.

قال الزمخشري: «لم يسم أحد بيحيى قبله... وقيل: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ مثيلا وشبيها كقوله في نفس السورة: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾.

وإنما قيل للمثل: سميّ؛ لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثيل والشبيه والنظير، فكل واحد منهما سميّ لصاحبه... قالوا :لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصورًا))[2].

وفي الموضع الثالث في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فقد استجاب المولى عز وجل لزكريا عليه السلام وأصلح زوجته للحمل والولادة، وأثنى سبحانه على زكريا ويحيى وامرأة زكريا بأنهم ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي : يبادرون إلى فعل الطاعات، ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ يجمعون بين الرغبة والرهبة، بين الخوف والرجاء، وهذه حال المؤمن ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم خاشعين لربهم، ضارعين له.

موقف زكريا عليه السلام من هذه البشارة:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: ٨ -

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٥.

[١١].

دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد فاستجاب المولى عز وجل لدعائه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه، ولقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا عليه السلام، فقال عليه السلام مقالته متعجبا من هذه البشارة، ومتسائلا عن كيفية تحققها ووقوعها وقد بلغ من الكبر مبلغا ؟

وتساؤل زكريا عليه السلام عن كيفية وقوع هذه البشارة هل سيعود إلى شبابه هو وزوجته ؟ أم سيعود له شبابه ويتزوج بامرأة أخرى تكون ولودا، أم كيف تتمّ هذه البشارة العجيبة.

قال الماوردي: «ولم يقل ذلك عن شكٍّ بعد الوحي ولكن على وجه الاستخبار: أتعيدنا شابين ؟ أو ترزقنا الولد شيخين؟»[١].

وفي سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ وقوله تعالى: ﴿عِتِيّٗا﴾: العتي هو النهاية في الكبر واليبس، ﴿مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ السن الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي : تيبس وتجف وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها.

فاجتمع لديه ثلاثة موانع: كون امرأته عاقرا منذ شبابها، وكونه قد بلغ من الكبر عتيا، وكذلك زوجته، فلا سبيل لمداواة الشيخوخة.

جواب الحق جل وعلا عن تساؤل زكريا:

قال تعالى في سورة آل عمران :﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال عز وجل في سورة مريم : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مريم: ٩].

جاء الجواب الإلهي شافيا كافيا، فهذا العطاء العجيب وهذه الآية الخارقة مندرجة ضمن مشيئته جل وعلا، وهي أمرٌ هيّنٌ يسيرٌ أمام المولى القدير الذي نقلك من العدم إلى الوجود.

قال الألوسي في تفسيره :﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يفعل الله ما يشاء أن يفعله من الأفعال العجيبة الخارقة للعادة فعلا مثل ذلك الفعل العجيب، والصنع البديع الذي هو خلق الولد مع الحالة التي يستبعد معها الخلق بحسب العادة»[٢].

وفي التعبير باسم الجلالة ما يفيد الهيبة والعظمة والروعة والإجلال.

وفي التعبير بوصف الربوبية في موضع سورة مريم دلالة بالغة - الإظهار في موضوع الإضمار، وهو ما يسمى عند البلاغيين خلاف مقتضى الظاهر - لما في

(١) النكت والعيون، ٢/ ٥٨.

(٢) روح المعاني، ٣/ ١٥.

ذلك من إبراز جلال الربوبية في هذا المقام: فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشئون خلقه، وكما خلق عز وجل عبده زكريا عليه السلام من العدم فهو سبحانه قادر على أن يرزقه الولد مع كبر السن وعقم الزوجة، والرب هو القدير الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، وقدرة المولى عز وجل قدرة مطلقة لا تحدها حدود، ولا تقيدها قيود، وهذا الأمر يقع بتدبير الله تعالى لزكريا، فلا يحتاج لطبيب أو لدواء، والرب هو الرحيم اللطيف والاستجابة لدعاء زكريا من لطف الله تعالى به ورحمته له، والربوبية من التربية والرعاية وهذا المعنى في هذا السياق واضحٌ جليٌّ.

وهذا الأمر الذي يتعجب منه زكريا عليه السلام ويقف أمامه مشدوها ومبهورا، هو أمر هيّن يسير على الله عز وجل.

قال الإمام القرطبي «... أي : كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا فهو القادر على خلق يحيي وإيجاده»[(١)].

زكريا يطلب آية من الله عز وجل:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال عز وجل في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١٠ - ١١].

طلب زكريا عليه السلام آية من المولى عز وجل، علامة تدل على وقت حدوث الحمل، ليس شكًّا في هذه البشارة وإنما شغفا ولهفة على معرفة وقت حدوث الحمل، فتلك أعظم لحظات الفرح والبهجة لمن طال انتظاره للولد، كذلك ليبادر إلى شكر الواهب جل وعلا.

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾، أي : علامة لوقت الحمل ليتعجل السرور به»[(٢)].

وفي روح البيان «أي: علامة تدل على تحقق المسئول أو وقوع الحبل، وإنما سألها لأن العلوق أمر خفي لا يوقف عليه، فأراد أن يطلعه الله عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة منه حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهره ظهورًا معتادًا»[(٣)].

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وفي سورة مريم يقول: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٤.

(٢) النكت والعيون، ١/ ٣١٤.

(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣١.

﴿تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: ١٠].

أجاب المولى عز وجل زكريا عليه السلام فيما طلبه، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلا يتكلم إلا بالإشارة والإيماء.

قال الزمخشري: «قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سويّ الخلق، ما بك خرس ولا بكم»[1].

ومنع زكريا عليه السلام من الكلام لحكمة بليغة فللصمت فوائده العديدة، ففيه راحة النفس، وهدوء البال، وسكينة القلب، وانطلاق الفكر، وصفاء العقل، ومن هنا فمنع زكريا عليه السلام من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له، كذلك إذا كان الكلام نعمة عظيمة تدل على قدرة الله تعالى كما قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات: ٢٣].

كذلك امتناع السليم من الكلام آية عجيبة.

قال السعدي: ((ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، أي: أول النهار وآخره[2].

ولصاحب الظلال في هذا المقام كلام طيب ، حيث يقول رحمه الله بعد أن وضح أن القدرة الإلهية لا تفرق بين هين وعسير، أو بين مألوف وغريب فقدرته عز وجل مطلقة من كل قيد، ومنطلقة بلا حدّ: «ولكن زكريا لشدة لهفته على تحقق البشرى، ولدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾.. وهنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي، فيخرجه من مألوفه في ذات نفسه... إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو توجه إلى الناس، وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده يذكره ويسبحه ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾... ويسكت السياق هنا، ونعرف أن هذا قد كان فعلا، فإذا زكريا عليه السلام يجد في ذات نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره...،

(١) الكشاف، ٣/ ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣.

لسانه هذا هو لسانه ولكنه يحتبس عن كلام الناس، وينطلق لمناجاة ربه... أي قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية... فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة.. كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر !!!»[1].

ماذا فعل زكريا في هذه الأيام الثلاث ؟

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وفي سورة مريم يقول عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

رغم منع زكريا عليه السلام من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه دوام الذكر، وزكريا عليه السلام أنعم الله عليه بالصمت، وفي الصمت فكرة وعبرة كما أنعم الله عليه بتوفيقه إلى الذكر فاجتمع له الذكر مع الفكر، والذكر من أسنى المقامات ومن أجل القربات ومن أفضل الأعمال ومن أسمى الأحوال. والذكر مطلوب في كل حال حتى يصير المؤمن على صلة بالله عز وجل، وزكريا عليه السلام يواصل ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام، حيث يحتبس لسانه عن سائر الكلام إلا الذكر، وتلك آية عجيبة، كما يواصل دعوة قومه إلى ذكر الله عز وجل وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب، أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٩٥.

عائلة زكريا عليه السلام

زكريا عليه السلام هو زوج أخت مريم، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل ، يرجع نسبه إلى سليمان بن داوود ، ومنه إلى إبراهيم عليه السلام، فهو من نسل طاهر ومن أصل كريم.

وامرأته زوجة صالحة صابرة، ابتلاها المولى عز وجل بالعقم، فأسلمت أمرها لله ورضيت بقضاء الله، وعاشت مع زوجها حياة حافلةً بالإقبال على الطاعات والمسارعة للخيرات، ولقد أثنى المولى عز وجل في كتابه الكريم على زكريا وزوجته وولده يحيى.

فقال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

ولقد استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام، وأصلح له زوجه، بأن جعلها صالحة للحمل والولادة بعد أن كانت عقيما، وبأن زادها صلاحا على صلاح ، ورزقهما بيحيى عليه السلام، الذي ورث النبوة والصلاح عن أبويه، وكان بارًّا بهما محسنًا إليهما.

ومن الناس من يقول بأنه كانت سيئة الخلق بذيئةً فأصلحها الله تعالى ، وهذا يتعارض مع الآية السابقة التي وصفت زكريا وابنه يحيى وزوجه بالمسارعة للخيرات والمداومة على الدعاء راغبين راهبين، وملازمة الخشوع.

قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: ثلاثة أقوال: أحدها: أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة، وهذا أليق بالقصة. والثاني: أنه أصلحها في أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه. والثالث: أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيًا إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعًا. وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح الله فلانًا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين»[1].

وابنه نبي الله يحيى عليه السلام وهبه الله إياه على الكبر، ونشأ في بيت صلاح وطاعة، وقرأ التوراة وأخذ بأحكامها، وآتاه الله الحكم والنبوة، ودعا إلى ربّه حتى قتله اليهود.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف تدل على

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٢/ ١٨٣.

فضله ومكانته.

وصفه بأنه سيد وحصور ووهبه النبوة والصلاح قال تعالى عنه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال تعالى في سورة مريم عنه: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢-١٥].

أمر إلهي ليحيى عليه السلام أن يأخذ التوراة مأخذ الجد في العلم بها، وفي فهمها وفي العمل بها ودعوة الناس إلى الأخذ بها.

قال ابن كثير: «أي: تعلم الكتاب بقوة أي: بجد واجتهاد وحرص»[(١)].

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: قال ابن جرير: «أعطاه الله الفهم لكتابه في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال»[(٢)].

وقال ابن كثير: «أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير... والاجتهاد فيه وهو صغير حدث»[(٣)].

فالحكم: هو العلم والفهم والجد والعزم، والمعرفة بالأحكام، وفهم التوراة والحكمة.

﴿وَحَنَانًا﴾ عطف على الحكم، أي: وآتيناه الحكم وحنانا، والتنوين للتعظيم والتفخيم، والحنان: الرفق واللين والشوق والعطف، ولقد ملأ الله قلب يحيى بالحنان لأبويه ولغيرهما، فكان برا بأبويه ورحيما بالناس.

﴿وَزَكَاةً﴾: «وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهرها ويزكيها»[(٤)].

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعًا لله عز وجل، يمتثل ما أمره به ويجتنب ما نهى عنه، ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾: محافظا على البر لهما والإحسان إليهما، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: «ولم يكن متكبرًا متعاليًا عن قبول الحق والإذعان له، أو متطاولًا على الخلق، وقيل: الجبار هو الذي لا يرى لأحد عليه حقًّا»[(٥)].

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: «سلم الله تعالى على يحيى وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول»[(٦)].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٣.
(٢) جامع البيان ١٨/ ١٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١١٣ بتصرف.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٧٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٨.

الدروس المستفادة من قصته عليه السلام

١. الترغيب في كفالة اليتيم.

حرص الأحبار من بني إسرائيل على كفالة مريم وتنافسوا على ذلك تنافسا شريفا وصل بهم إلى حد الاقتراع لحرص كل واحد منهم على الأجر والثواب، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم، وهي طفلة يتيمة تحتاج إلى يد حانية وإلى قلب عطوف، يقودها إلى بر الأمان، ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله، وتنميته، حتى يبلغ سن الرشد.

٢. ثبوت كرامات الأولياء.

فهذا الرزق الذي ساقه المولى عز وجل لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها. والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة.

وهي مأخوذة من ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وعقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بها، والتسليم لها إذا وقعت أوصلت للسامع عن طريق الرواة الثقات. قال الإمام القاسمي: ((وفي الآية، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى كما وقعت لخبيب بن عدي الأنصاري رضي الله عنه[١] حين أسر بمكة وحبس بها فخرجوا به من مكة ليقتلوه في الحل، وقد وجد عنده وهو في محبسه قطف من العنب، جاء إليه من عند الله عز وجل كرامة له وتثبيتا لقلبه والقصة في صحيح البخاري[٢].

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات في رواياتهم»[٣].

---

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل، ٤/ ٦٧، رقم ٣٠٤٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الحديث: تحكي بنت الحارث بن عامر، وكان خبيب قد قتل أباها في غزوة بدر، تحكي بنت الحارث فتقول: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر..وإنه لرزق من الله رزقه خبيبًا.

(٢) أخرج القصة البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل، ٤/ ٦٧، رقم ٣٠٤٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الحديث: تحكي بنت الحارث ابن عامر، وكان خبيب قد قتل أباها في غزوة بدر، تحكي بنت الحارث فتقول: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر..وإنه لرزق من الله رزقه خبيبًا.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص ٤٩٥.

٣. مشروعية القرعة.

من الأحكام المستفادة من القصة: مشروعية القرعة.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: ((استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم، وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد؛ إتباعا للكتاب والسنة))[١].

٤. الربوبية.

تتجلى لنا معاني الربوبية في هذه القصة العظيمة، إذ لا يكاد تخلو كلّ جملة من جمل الدعاء الذي رفعه زكريا عليه السلام من ندائه وخطابه لربه (ربّ)، ففي سورة آل عمران تكررت ثلاث مرات (قال ربّ)، وفي سورة مريم خمس مرات (ربّ)، وفي سورة الأنبياء مرة واحدة، وهذا يعني أنه ينطق بها في كل جملة ومع كل دعوة، وهذا يعني استحضاره لمعاني الربوبية حين يلهج لسانه بكلمة ربّ، الخلق والرزق والإمداد والعطاء واللطف والرحمة والعناية والرعاية، والقدرة والعظمة، واستشعاره حين ينطقها بعظمة الله ومحبته وقربه من عباده.

٥. حب الولد فطرة إنسانية.

جبلت النفوس على حب الولد، فالولد هو قرة العيون، وثمرة الفؤاد، وفلذة الأكباد، وبهجة النفوس وزينة الحياة.

قال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٦].

٦. الولد هبة من الله عز وجل وإنعام منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

وقال تعالى في سورة النحل ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل: ٧٢].

فالولد هبة وإنعام من الله، وحب الولد فطرة إنسانية. ولقد جاء الإسلام بما يلائم هذه الفطرة، ويدعمها، فهذا أبو الأنبياء

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٨٦ .

إبراهيم عليه السلام يدعو المولى عز وجل فيقول ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات: ١٠٠].

ويستجيب المولى عز وجل لدعوته ويصلح له في ذريته قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات: ١٠١]، وهو إسماعيل عليه السلام.

ويقول سبحانه أيضًا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٢﴾ [الصافات:١١٢].

ولقد دعا صلى الله عليه وسلم لأنس إبن مالك بكثرة الولد فقال :(**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته**)[1].

وقد استجاب الله دعوة نبيه وأكثر لأنس المال والولد وبارك له فيما أعطاه.

ومن هنا: «فإن طلب الولد الصالح أمر مرغوب، فالولد الصالح رحمة من الله ونعمة، وبه يصلح البيت ويصلح المجتمع وتستقيم الحياة.

٧. فضل الدعاء.

حوى دعاء زكريا عليه السلام آدابا كثيرة ومعاني سامية ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ما يدل على أن أفضل الدعاء ما كان في الخفاء فإنه أقرب إلى الإخلاص، وأدعى للخشوع، وأرجى للقبول ونتعلم من دعاء زكريا عليه السلام: تحري الأوقات الشريفة الفاضلة المباركة، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فإنه عليه السلام لما رأى كرامة مريم ازداد إيمانا على إيمان، ويقينا على يقين، فتوجه بالدعاء وهو في هذا المقام الأسنى والمكان الأسمى، في بيت الله عز وجل حيث تتنزل الخيرات والبركات والرحمات؛ ومن هنا فإن بركة الوقت مع سمو المكان مع علو الحال والمقام الذي يكون عليه الداعي كل هذه العوامل تكون أدعى إلى قبول الدعاء.

قال ابن القيم: «وأما قول زكريا ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فقد قيل : إنه دعاء المسألة، والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه ، كما حكي أن رجلا سأل رجلا وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا، فقال : مرحبا بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته، وهذا ظاهر هنا ، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه إلى ما سأله[2].

وذكر ابن القيم في فضل إخفاء الدعاء فوائد جمة: «**أحدها**: أنه أعظم إيمانا لأن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة، رقم ٦٣٧٨، ٦٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك، ٤/١٩٢٨، رقم ٢٤٨٠.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٣٧٩.

صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي ، وليس كالذي قال : إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ،وخشع صوته ، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه ، فلا يطاوله بالنطق فقلبه سائل طالب مبتهل ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد. ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾))[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال: ((خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾))[2].

٨. فضل المداومة على ذكر الله عز وجل.

والذكر من أفضل الأعمال ومن أجل القربات، ولقد جمعت هذه الآية بين فضيلة الذكر والتفكر والدعاء.

وزكريا عليه السلام رغم احتباس لسانه عن كلام الناس إلا أن المولى عز وجل قد أمره بالذكر: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٤١].

قال القرطبي: «أمره الله تعالى بألا يترك

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ٥/ ٣٦٥.

الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو رخّص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام لما حبس لسانه عن كلام الناس، ولرخص للمجاهد في سبيل الله حين ينشغل بقتال الأعداء ،ولكن الله عز وجل أمر زكريا مع منعه من كلام الناس بمداومة الذكر، وأمر المجاهدين بكثرة الذكر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥][1].

٩. دروس في الدعوة.

ويعلمنا زكريا عليه السلام درسًا هامًّا في الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أن لا يتخلى الدعاة عن دعوتهم أبدًا، وأن يعيشوا بها ويتعايشوا معها في كل زمان ومكان، وفي كل الظروف والأحوال، وأن لا يقصروا فيها مهما كانت العوائق والمثبطات، وأن يجندوا لها كل ما يملكون من قدرات وطاقات وأوقات وملكات وإمكانيات، وأن لا يستقلوا أي عمل أو جهد دعويٍّ مهما كان يسيرًا؛ فزكريا عليه السلام وهو ممنوع عن الكلام لكنه يعتمد في دعوته على الإشارة، وهي بديل الكلام ووسيلة من وسائل التعبير.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

فإذا حرم الدعاة من وسيلة دعوية فليلجئوا إلى غيرها، وإذا أغلق أمامهم باب فليطرقوا بابا آخر، فمن داوم قرع الأبواب ولج. فعلى الدعاة إلى الله أن يتزودوا بالعزم واليقين.

كما يعلمنا الاهتمام والاشتغال بأمر الدعوة ومستقبلها، فقد همّ زكريا أن لا يجد من يراه أهلا لحمل أمانة الدعوة والاضطلاع بمهامها، فخاف من تقصير محتمل ممن سيخلفونه.

١٠. أثر الدعاء للأبناء في صلاحهم، فينبغي المبادرة إلى الدعاء.

قوله تعالى في وصف يحيى: ﴿وَسَيِّدًا﴾: السيادة الحقيقية في طاعة الله وفي تقواه وفي العلم والعمل.

قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ نستفيد من هذه الصفة التي وصف الله بها يحيى عليه السلام: أن حبس النفس عن الشهوات أمر محبوب ومطلب مرغوب، قال الإمام ابن تيمية :((المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.))[2].

قوله في وصف يحيى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

حثٌّ على الهمة العالية والعزيمة القوية في طلب العلم والعمل به.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٨٢ بتصرف.

(٢) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٤٤ .

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾: أهمية التربية الراشدة، منذ الصّبا، ويحيى عليه السلام في صباه نموذجٌ يحتذى وأسوة ترتجى.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ تربية القلوب على الرحمة والعطف والحنان، والحنان والرقة والرحمة عطاء من الله تعالى، ومن مكارم الأخلاق التي مدحها القرآن.

﴿وَزَكَوٰةً﴾ الزكاة: الطهارة والنماء، وتزكية الأنفس تطهيرها والنهوض بها، وهذا من مقاصد التربية الراشدة.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ غرس التقوى والمراقبة في نفوس الأبناء والتلاميذ.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾

بر الوالدين من أجلّ وأعظم مكارم الأخلاق ، فهما أحق الناس بحسن الصحبة.

١١. تعهد الكفيل لمن يكفله بالتربية والنصح والإرشاد والمراقبة، والحرص على الخير.

١٢. علو همة الأنبياء في الصلاح والخير.

وينبغي على الداعي أن يكون موقنًا بالإجابة، وحسن الظن بالله عز وجل وواثقًا بما عند الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله يقول أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني)[1].

وفي الحديث: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه)[2].

العلم الحديث مع التقدم الهائل والإمكانات العظيمة في مجال الطب فإنهم إلى الآن لم يكتشف ولن يكتشف علاج لمرض الشيخوخة ، وما يعتري الطاعنين في السن من ضعف ووهن.

والله عز وجل هو القادر وهو الفعال لما يريد، وفي هذا ما يزيد المؤمن إيمانًا وتسليمًا ويقينًا.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، التبني، عيسى عليه السلام، مريم عليها السلام

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء وحسن الظن بالله تعالى، ٤/ ٢٠٦٧، رقم ٢٦٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤٨٣، رقم ٣٤٧٩.

وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم ٢٧٦٦، ٣/ ١٦٤.



عناصر الموضوع

مفهوم الزنا

أولًا: المعنى اللغوي:

تطلق مادة (ز ن ي) على معانٍ مختلفة غير متداخلة[١].

وأشهر معانيها الفاحشة المعروفة، والزّنا يمدّ ويقصر، يقال: زنى يزني زنًا وزناءً، والنسبة إلى المقصور زِنَوِيٌّ، وإلى الممدود زِنائِيٌّ. والمرأة تزاني مزاناةً وزناء أي:تباغي[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو الوطء في قبلٍ خالٍ عن ملكٍ وشبهةٍ[٣]،أو من غير نكاح ولا شبهة نكاح[٤]، أو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعًا محرم قطعًا[٥].

ويعرّفه القرطبي فيقول: «هو اسم لوطء الرّجل امرأةً في فرجها من غير نكاحٍ ولا شبهة نكاحٍ بمطاوعتها. أو: هو إدخال فرجٍ في فرجٍ مشتهًى طبعًا محرّمٍ شرعًا؛ فإذا كان ذلك وجب الحدّ»[٦].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٦٩.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١١٥.
(٤) انظر: الهداية في شرح بداية المبتدي، المرغيناني ٢/ ٤٣٣.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٠٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٥٩.

الزنا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زني) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]
المصدر	١	﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]
اسم الفاعل	٦	﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢]

وجاء الزنا في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي والشرعي، وهو: وطء المرأة من غير عقدٍ شرعيٍّ وملك يمينٍ[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٦٠٣.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/١٣٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغاء:

البغاء لغةً:

مصدر بغت المرأة بغاء: زنت، والبغاء جمع بغي، ولا يقال بغية، وبغت الأمة: عهرت وزنت، أو فجرت، وقيل: البغيّ: الأمة، فاجرة كانت أو غير فاجرة، وقيل: البغيّ أيضًا: الفاجرة، حرة كانت أو أمة، وقال الأزهريّ: ومعنى البغي قصد الفساد[(١)].

البغاء اصطلاحًا:

«وهو الزنا» [(٢)]، أو «هو طلب المرأة للزنا» [(٣)] أو «الفجور»[(٤)].

الصلة بين البغاء والزنا:

البغاء وقوع في فاحشة الزنا، والزنا من الفجور[(٥)].

٢ العفّة:

العفّة لغةً:

قال ابن منظور((العفّة: الكفّ عما لا يحلّ ويجمل))[(٦)].

العفة اصطلاحًا:

قال الراغب: «العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر»[(٧)].

الصلة بين العفّة والزنا:

العفّة عن الزنا: هو ألا يكون قد وطء في عمره وطًا حرامًا، في غير ملك، ولا نكاح أصلًا، ولا في نكاح فاسد فسادًا مجمعًا عليه في عهد السلف[(٨)].

---

(١) انظر: غريب الحديث، إبراهيم الحربي ٢/ ٦٠٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٧٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٣٢.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٩٠.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٣٢.
(٦) لسان العرب، ٩/ ٢٥٣.
(٧) المفردات، ص٤٤٠.
(٨) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٧/ ٥٤٠٧.

٣ الزواج:

الزواج لغةً:

(زوج) الزّاء والواو والجيم أصلٌ يدلّ على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، من ذلك الزّوج زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح، ويقال: لفلانٍ زوجان من الحمام، يعني ذكرًا وأنثى[١].

الزواج اصطلاحًا:

هو عقد يقصد به حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر واتناسه به طلبًا للنسل على الوجه المشروع، أو هو عقد يرد على ملك المتعة قصدًا[٢]، أو هو عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين بالآخر على الوجه المشروع[٣].

الصلة بين الزنا والزواج:

قال الشافعيّ رحمه الله: (ووجدت اللّه تعالى حرم الزنا)) ، فقال المحاور: أجد جماعًا وجماعًا، فأقيس أحد الجماعين بالآخر، فقال الشافعي: «فقد وجدت جماعًا حلالًا حمدت به، ووجدت جماعًا حرامًا رجمت به»[٤]، فالزواج جماع يحمد الإنسان ويؤجر به، والزنا جماع يجلد أو يرجم به.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥.
(٢) انظر: كنز الدقائق، النسفي ٢/ ١٧٤ مع شرحه النهر الفائق.
(٣) انظر: الأحوال الشخصية، أبو زهرة ص١٧.
(٤) انظر: الواضح في أصول الفقه، ابن عقيل ٢/ ٢٨٤.

حكمة تحريم الزنا

حرّم الله الزنى لعظيم ما فيه من المفاسد والشرور، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

فهو اعتداء على أعراض المسلمين، حيث يفسد نساء المسلمين ورجالاتهم، إذ إنه من أعظم الذنوب التي تفسد المجتمعات، وتدمر الأخلاق والقيم، وما فشا في أمّة إلا ذهب حياؤها وسقطت مروءتها، وأصبحت كالبهائم لا ترعى حرمة ولا تحفظ ذمة، كما أنه ترجّح على غيره من الفواحش لما فيه من تضييع حرمة الحقّ، وهتك حرمة الخلق، ثم لما فيه من الإخلال بالنّسب، وإفساد ذات البين من مقتضى الأنفة والغضب[(١)].

وإنّ هذه الأضرار التي تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة، من اختلاط الأنساب، وإثارة الأحقاد، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة، كل واحد من هذه الأسباب يكفي لتحريم الزنا، ولكنّ السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد، هذا السبب هو الأهم، وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى[(٢)].

ويمكن أن نجمل هذه الأسباب بما يلي:

أولها: اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وانقطاع النسل وخراب العالم[(٣)].

وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها بأقوم الطرق وأعدلها، ولذلك لما حرم الزنى أوجب فيه الحد الرادع، وأوجب العدة على النساء عند المفارقة بطلاق أو موت، لئلا يختلط ماء رجل بماء آخر في رحم امرأة محافظة على الأنساب، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

وقال تعالى في إيجاب العدة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره، فمنع نكاح الحامل

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٣٢.

حتى تضع، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق:٤][1].

ثانيها: إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا[2].

كما أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت، وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب[3].

ولم يخلق الله الناس لهذا الهدف، بل جعلهم ذكرًا وأنثى ليتعارفوا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات:١٣].

ثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج، الذي جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾[الروم:٢١][4].

لأنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية[5].

رابعها: موافقة هذا التحريم للعقل والفطرة التي فطر الله الناس عليها: في تسمية الله للزنا بالفاحشة إنما يستفحش في الشرع والعقل، والفطر، لتضمنه التجرؤ على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد[6].

ومما يدل على قبحه عند العقل السليم والطبع القويم قبل ورود النهي عنه، ما روي عن عثمان بن عفان أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(لا يحل دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل زنى وهو محصن فرجم أو رجل قتل نفسًا بغير**

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٤٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٣٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٥/ ٤٢.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٣٢.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٣٠٠.

نفس، أو رجل ارتد بعد إسلامه)، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت نفسًا مسلمة، ولا ارتددت منذ أسلمت[1].

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الخيل له من طريق الأوزاعي أن مهرًا أنزي على أمه فامتنع فأدخلت في بيت وجللت بكساء وانزي عليها فنزى فلما شم ريح أمه عمد إلى ذكره فقطعه بأسنانه من أصله[2].

فإذا المهر غار على عرضه، واستقبح الزنا فأولى بالإنسان أن يغار على عرضه[3].

خامسها: وقاية الإنسان من أمراض خطيرة سببها الاتصال الجنسي غير المنظم، ويؤكد هذا ما ظهر أخيرًا من انتشار مرض فقد المناعة المعروف بالإيدز، ويلتقي مع الحديث الشريف حيث يقول صلى الله عليه وسلم: **(يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)**[4].

سادسها: إن الأرواح الإنسانية كريمة الجوهرة لأنها من عالم النور؛ فقد خلقت من نفخ الملك، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في الصحيح: **(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح)**[5].

ولذا أضافها الله تعالى إلى نفسه في معرض الامتنان، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩].

وما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال، أو تدسية تنحط بها إلى أسفل سافلين، حيث يتكون هذا المخلوق العظيم العجيب المسمى بالإنسان الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ليعمرها، ويستثمرها ويعبرها إلى دار الكمال الحق، والحياة الدائمة الأبدية، هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلًا قطعيا، وكلية عامة في الدين، وفي الزنا إراقة للنطفة، وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الحدود، باب لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رقم ٢٥٣٣، ٢/ ٨٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٧/ ١٦١.

(٣) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي، ص٢٤.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٣٤٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ٤/ ٢٠٣٦، رقم ٢٦٤٣.

الصلة، ساقط الحق، فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله، ولهذا بعدما نهى عن قتلهم نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم، لأنه سبب غير مشروع لوجودهم[1].

لذلك كله نجد أن الله تعالى وصف الزنا بصفتين: الأولى أنه فاحشة، والثانية أنه ساء سبيلًا، أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم واشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضًايوجب خراب العالم، وأما أنه ساء سبيلًا، فهو أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وأيضًا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورًا بشيء من المنافع[2].

ولهذا لما نهى الله عنها ساقها مع النهي عن الشرك بالله و النهي عن قتل النفس بغير حق فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وجعل جزاء ذلك: الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح، وقال الإمام أحمد: «ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا».

ومما ينبغي ملاحظته أن كل الأديان حرّمته لخطورة آثاره، حتى القوانين الوضعية لم تبحه على إطلاقه، ولذلك جاءت عقوبته قاسية، وقد وردت الآيات الدالة على تحريم الزنا مطلقة من غير تخصيص على تحريم الزنا بالمسلمات فقط، أو تحريمه في مكان دون آخر، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله : «الإسلام ملزم للمسلم حيثما كان، بوجوب تطبيق أحكامه وأداء فرائضه من عبادات وواجبات، وهي لا تسقط إذا كان في بلاد الكفار أو غيرها من الديار، ما دام حيًا عاقلًا مختارًا»[3].

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص٨٨-٩١.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٧٠.
(٣) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس الجلعود ٢/ ٧٦٦.

أسباب الوقوع في الزنا

لما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]

كان النهي أبلغ من قوله : لا تزنوا، ذلك أن النهي عن الاقتراب يقتضي النهي عن أسبابه ومقدماته ودواعيه.

الأسباب و المقدمات لجريمة الزنا:

١ . إطلاق النظر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

[النور:٣٠-٣١].

فإطلاق النظر هو النافذة الكبيرة والخطوة الرئيسة في الزنا، فعن بعض السّلف قال: «إن النّظر يزرع الشّهوة في القلب، ورب شهوة أورثت حزنا طويلًا». وعن خالد بن أبي عمران أنه قال: «إن الرجل لينظر نظرة فينغل قلبه، كما ينغل الأديم، فيفسد قلبه حتّى لا ينتفع به»[(١)].

والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواسّ إليه، وبحسب ذلك كثر السّقوط من جهته، ووجب التّحذير منه، وغضّه واجبٌ عن جميع المحرّمات، وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله.

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٩.

وعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إيّاكم والجلوس بالطّرقات) فقالوا: يا رسول اللّه، ما لنا من مجالسنا بدٌّ نتحدّث فيها، فقال: (إذا أبيتم إلّا المجلس، فأعطوا الطّريق حقّه) قالوا: وما حقّ الطّريق يا رسول اللّه؟ قال: (غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السّلام، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر)[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم لعليٍّ: (لا تتبع النّظرة النّظرة فإنّما لك الأولى وليست لك الثّانية)[(٣)].

كما أن من مضار إطلاق البصر أنه يفسد القلب والخلق ، ويحدث لوعة القلب ، وهياج الشّوق فيجرّ إلى الحرام، كما أنه يورث قلّة الحياء وفقد الحشمة[(٤)].

٢ . التبرج ونزع الحجاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، رقم ٦٢٢٩، ٨/ ٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات ٣/ ١٦٧٥، رقم ٢١٢١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٧٤، رقم ٢٢٩٧٤، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، ٢/ ٢٤٦، رقم ٢١٤٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣١٦، رقم ٧٩٤٩.

(٤) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٩/ ٣٩١١.

﴿ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١].

إذا نزعت المرأة حجابها، وعرضت مفاتنها، وهتكت عرض زوجها وأهلها، ثم خرجت تبيع الفتنة بلا ثمن، أوقعت في حبائلها المنخدعين والشهوانيين ممن لا يخافون الله، فتنتشر جريمة الزنا، فنهى الله المرأة أن تبدي من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل[١].

كما أنه أمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وسبب هذه الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة سدلنها من وراء الظهر، كما يصنع النبط فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك فأمر الله تعالى بضرب الخمار على الجيوب وهيئة ذلك يستر جميع ما ذكر[٢].

٣. الخضوع بالقول.

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

أي: فلا ترفقن بالقول عند الرجال فيطمع في الخيانة الذي في قلبه مرض، أي: شهوة الزنا، وقلن قولًا معروفًا، أي: حسنًا مع كونه خشنًا، فينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال، ويطمع مرضى القلوب[٣].

وقيل: وصفهم بذلك لأنهم يشتهون إتيان الفواحش، لضعف إيمانهم، أو نفاقهم، فهو يستخف بحدود الله، و يتهاون بإتيان الفواحش[٤].

٤. عدم التلبس بلباس التقوى.

يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾ [الأعراف:٢٦].

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: الإيمان، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، يقول: ذلك خير من الرياش واللباس يواري سوءاتكم[٥].

والتقوى جلباب ورداء ستر عليه خيمة تحترز بها من كل معصية، فإذا خرج الإنسان من هذا الرداء أو من هذا اللباس، وقع وسقط، قال عبد الرحمن بن أسلم: «يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى».

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وعن شعور التقوى لله،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٠.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٨.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٥٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٢.

ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري من الحياء والتقوى، والعري من اللباس وكشف السوأة[1].

٥. إلغاء العقوبة الشرعية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

إن العقوبة الشرعية المقررة في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزاني والزانية رادعة وزاجرة للزاني نفسه ، ولكل من تسول له نفسه القيام بهذه الفعلة النكراء، وبيان ذلك في المباحث القادمة، وفي كثيرٍ من بلاد المسلمين أسقطت هذه العقوبة فاعتبر الموضوع بسيطًا، فكان مدعاة لانتشار هذه الجريمة، ومما يجدر ذكره أن العالم الغربي يحارب الإسلام في نظام عقوباته، فيدعي أن هذه العقوبات قاسية ويحارب تطبيقها، ومن يتزعم هذه الحملات غالبًا هم اليهود، مع أن التوراة نفسها شرعت على هذه الجريمة عقوبات جسدية كالقتل والتحريق والرجم بالحجارة، إضافة إلى عقوبات معنوية وهي أن الزانية تعتبر ذليلة ورذيلة وخارجة من جماعة الرب[2].

٦. تحديد الزواج بواحدة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء:٤].

يروج أعداء الإسلام، ويشنون حربًا ضروسًا على تعدد الزوجات، وهم بهذا يريدون أن يضيقوا واسعًا، وأن يعرضوا العديد من الفتيات اللائي بالإمكان أن يستوعبوهن عن طريق التعدد للفساد والفتن، وقد تصاب المرأة بالبرود الجنسي ولا سيما عقب بلوغ سن اليأس أو قبله بسبب مرض، وقد يكون الرجل ذا قدرة جنسية زائدة، فلا يكتفي بامرأة واحدة، فيكون اللجوء للتزوج بثانية، حاجزًا له عن الوقوع في الزنى الذي يضيّع الدّين والمال والصّحة، ويسيء إلى السّمعة[3].

٧. تأخير الزواج، ووضع العراقيل أمامه.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ [النور:٣٢].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي ص٢٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٢٤٣.

إن تعقيد الشباب من الزواج المبكر، ووضع العراقيل أمامهم من غلاء المهور وزيادة التبعات، من أهم أسباب شيوع هذه الفاحشة، والله عز وجل أمر بعون الأيامى على الزواج واعتبر ذلك من واجبات ولي الأمر كما في الآية، وكما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج)[١].

٨. خروج المرأة من بيتها لغير حاجة.

من التدابير أيضًا التي شرعها الله للنساء القرار في البيوت، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قرئ بكسر القاف، من الوقار أو القرار في الموضع، وأما القراءة بالفتح[٢]، فمن القرار في الموضع، وهو الأرجح، لأن سودة رضي الله عنها قيل لها: لم لا تخرجين؟ فقالت: «أمرنا الله بأن نقرّ في بيوتنا»[٣].

وهو أمرٌ لهنّ من الوقار والقرار جميعًا[٤]، أي: لا تتكسّرن ولا تتغنّجن.

ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن[٥].

وعن قتادة: ((إذا خرجتن من بيوتكن، قال: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج وتبختر، يعني بذلك الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك)).

وقيل التبرج: هو إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال[٦]، أو أنها تلقي الخمار عن رأسها ولا تشده فيرى قرطها وقلائدها، والجاهلية الأولى: قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

أمرهن أيضًا بالعفة، وأمر بضرب الحجاب عليهن، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

يعني الإثم الذي نهاهن عنه في هذه الآيات.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٢/ ١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف أمر من قَرِرْنَ بكسر الراء الأولى يَقْرَرْنَ بفتحها، فالأمر منه اقْرَرْن حذفت الراء الثانية الساكنة لاجتماع الراءين، ثم نقلت فتحة الأولى إلى القاف، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها فصار قَرْن، والباقون بالكسر من قَرَّ بالمكان بالفتح في الماضي، والكسر في المضارع وهي الفصيحة.
انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص ٤٥٤

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٥١.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٨٦٥.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٧.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٠.

الوسائل الوقائية من الوقوع في الزنا

حدّ الله عز وجل حدودًا وشرع عقابًا رادعًا وزاجرًا لكل جريمة، يتناسب مع طبيعة هذه الجريمة كمًا وكيفًا ، ذلك أن الله عز وجل حفظ على المسلم نفسه وماله وعرضه، فما كان فيه تعد على أيٍّ منها كانت العقوبة، وإن العظمة في التشريع الإسلامي أنه وضع العلاجات الوقائية للجريمة المانعة من وقوعها، قبل أن تقع، ولذلك لما حرم الله هذه الجريمة النكراء الزنا ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]. نهى عن مقدماتها وكل ما يؤدي إلى الوقوع فيها[١].

وفيما يلي أمور وقائية لعلاج هذه الجريمة:

١ . إقامة حد الزنا.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور:٢].

إن الحد عقوبة تجمع بين الإيلام الخفيف والاستصلاح، أما الإيلام فلقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ فسميت العقوبة عذابًا، ويراد من هذه العقوبة أيضًا الزجر والإصلاح لأنه يمكن أن يراد من العذاب: ما يمنع المعاودة كالنكال، فيكون الغرض منه الاستصلاح[٢].

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليكون عليهم أشدّ، وليكون تخويفًا لمتعاطي ذلك الفعل، ثم من حقّ الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيم نعمة الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله، وكيف عصمهم من ذلك، وإن جرى منهم شيء من ذلك يذكروا عظيم نعمة الله عليهم كيف ستر عليهم ولم يفضحهم، ولم يقمهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المبتلى به[٣].

كان حد الزانيين في أول الإسلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّٰتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝١٦﴾ [النساء:١٥-١٦].

فكان حد المرأة الحبس في البيت والأذى بالتعيير، وكان حد الرجل الأذى بالتعيير، إلى أن جعل الله لهن سبيلًا، فأصبح الجلد هو حد البكر من الرجال والنساء، وهو الذي لم يحصن بالزواج، ويوقع عليه متى كان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٦

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٣٨

(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٩٤، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢١.

مسلمًا بالغًا عاقلًا حرًا، وأما المحصن وهو من سبق له الوطء في نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ فحده الرجم، وقد ثبت الرجم بالسنة، وثبت الجلد بالقرآن، ولما كان النص القرآني مجملًا وعامًا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم الزانيين المحصنين.

فقد تبين من هذا أن الجلد خاص بغير المحصن، وحديث عبادة بن الصامت: **(خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب جلد مائة ورجمها بالحجارة)**[1].

وهناك خلاف فقهي حول الجمع بين الجلد والرجم للمحصن، والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم، كما أن هناك خلافًا فقهيًا حول تغريب الزاني غير المحصن مع جلده، وحول حد الزاني غير الحر، وهو خلاف طويل لا ندخل في تفصيله هنا، يطلب في موضعه من كتب الفقه، إنما نمضي نحن مع حكمة هذا التشريع، فنرى أن عقوبة المحصن هي الرجم، ذلك أنه قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجرّبه، فعدوله عنه إلى الزنا يشي بفساد فطرته وانحرافها، فهو جدير بتشديد العقوبة، بخلاف البكر الغفل، الذي قد يندفع تحت ضغط الميل وهو غرير، كما أن هناك فارق آخر في طبيعة الفعل، فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر، فهو حري بعقوبة أشد، والقرآن حين يذكر حد البكر يشدد في الأخذ به، دون تسامح ولا هوادة[2].

وإن تقديم الزانية على الزاني: لأن الزنى في الأغلب يكون بتعرض المرأة للرجل وعرض نفسها عليه بأساليب متنوعة، كما أن مفسدة الزنى وعاره يصيبها أكثر من الرجل، فهي المادة الأصلية في الزنى[3].

٢. المنع من إنكاح الزاني، ونكاح الزانية.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣].

عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول (أو أم مهدون) وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها، فأنزل الله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

ومما ذكره الواحدي في سبب نزولها: «أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه، كان يحمل الأسارى بمكة، وكان بمكة بغي،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٦٩٠، ٣/ ١٣١٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٧.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٢٣.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢١١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

يقال لها عناق، وكانت صديقته، قال: فجئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أنكح عناق؟ قال: فسكت عني، فنزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣]. فقرأ علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (لا تنكحها)»[١].

وقد تكون الآية نزلت في مرثد المذكور، أو في جماعة من فقراء المهاجرين، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التزوج ببغايا من الكتابيات والإماء اللائي كن بالمدينة، فأنزل الله فيهم هذه الآية[٢].

وظاهر الآية وهذه الروايات تفيد تحريم العفيفة على الزاني، والزانية على العفيف ونكاح المؤمن للزانية ما لم تتب، ونكاح المؤمنة للزاني كذلك[٣].

وعن الشّعبيّ، قال: «من زوّج كريمته من فاسقٍ فقد قطع رحمها»[٤].

والمسألة خلافية تطلب في كتب الفقه، وعلى أية حال فهي فعلة تعزل فاعلها عن الجماعة المسلمة وتقطع ما بينه وبينها من روابط، وهذه وحدها عقوبة اجتماعية أليمة كعقوبة الجلد أو أشد وقعًا[٥].

والمعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله، وغالب الزواني لا يرغبن إلا في الزواج بزان مثلهن، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وسبب النزول يشهد له[٦].

ويقول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:٢٦].

«أكثر المفسرين على أن الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، وكذا الطيبات من القول للطيبين من الناس، وقال الزجاج: ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء»[٧].

وذكر أكثر من مفسر أن: النساء الخبيثات للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون للخبيثات، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، وهو الظاهر[٨].

والطّيّبات من الأشخاص هن: المبرّءات من التعريج في أوطان الشهوات، والطيبون من الرجال: الذين هم قائمون بحقّ الحقّ لا يصحبون الخلق إلا للتعفّف، دون

(١) أسباب النزول ٥/ ٢٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩٧.
(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ٦/ ٦٠١.
(٤) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ١١/ ١٥٧.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٢٤.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧.
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢١.
(٨) انظر: تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٣٩٥، التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٩٨.

استجلاب الشهوات[1].

وقيل: الخبيث من الرجال عبد الله بن أبي بن سلول كلامه في عائشة، والخبيثات من النساء أهل بيته، والطيبات هي عائشة من النساء وأمثالها، والطيبون النبي وقومه[2].

٣. إقامة حد القذف.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥﴾ [النور:٤-٥].

الرّمي بالزّنا[3]، أو قذفهن بالزنى[4].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النور:٢٣].

والمحصنات يراد بهن هنا : العفائف، والعفة أعلى معاني الإحصان إذ في طيه الإسلام[5].

وخصهن بالذكر لأن قذفهن أكثر وأشنع من قذف الرجال، ودخل الرجال في ذلك بالمعنى إذ لا فرق بينهم، وأجمع العلماء على أن حكم الرجال والنساء هنا واحد[6].

«إنّ ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا بتلك التهمة النكراء ثم يمضي آمنًا! فتصبح الجماعة وتمسي، وإذ أعراضها مجرحة، وسمعتها ملوثة وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه، وكل رجل فيها شاك في أصله، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق، ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث وأن الفعلة فيها شائعة فيقدم عليها من كان يتحرج منها، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها!

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه، والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحي بارتكاب الفحشاء، لهذا وصيانة للأعراض من التهجم، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم، شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ثمانين جلدة، مع إسقاط الشهادة، والوصم بالفسق، والعقوبة الأولى جسدية، والثانية أدبية في وسط الجماعة، ويكفي أن

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٠٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٢٠.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٣.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٦٤.
(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٦١.

يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متهمًا لا يوثق له بكلام! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم، فيوصف بالفسق، ذلك إلا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه. فيكون قوله إذن صحيحًا، ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة»[1].

٤ . مشروعية الاستئذان.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور:٢٧].

بعد بيان حكم قذف المحصنات وقصة أهل الإفك، ذكر الله تعالى ما يليق بذلك، وهو آداب الدخول إلى البيوت من الاستئذان والسلام، منعًا من الوقوع في التهمة، باقتحام البيوت دون إذن والتسلل إليها، أو حدوث الخلوة التي هي مظنة التهمة أو طريق التهمة التي تذرع بها أهل الإفك للوصول إلى بهتانهم وافترائهم، ومراعاة لأحوال الناس رجالًا ونساءً، الذين لا يريدون لأحد الاطلاع عليها، ولأن النظر والاطلاع على العورات طريق الزنى[2].

كان التشريع لا تدخلوا بيوتًا غيركم حتى يؤذن لكم، وحتى تسلموا على أهل البيت، حتى لا تنظروا إلى عورات غيركم، أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح)**[3].

ويروى أنّ أبا موسى الأشعري أتى منزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: واحدة، فقال أبو موسى: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثنتان، قال أبو موسى: السلام عليكم أأدخل؟ ومرّ، فوجّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلفه من ردّه فسأله عن صنيعه فقال: إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع)**[4]، فقال عمر: لتأتيني بالبيّنة أو لأعاقبنّك، فانطلق أبو موسى فأتاه بمن سمع ذلك معه[5].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٩٠، بتصرف.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه فلا دية له، رقم ٦٩٠٢، ٩/ ١١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الاستئذان ٣/ ١٦٩٤، رقم ٢١٥٣.

(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٥.

﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا اسْتَـْٔذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩ وَالْقَوَٰعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾ [النور:٥٨-٦٠].

وهذه الآية فيها بيان استئذان الذين يعيشون في دار واحدة لبعضهم من بعض، فذكر سبحانه وتعالى وجوب الاستئذان في ثلاثة أوقات، هذه الأوقات هي أوقات التجرد من الثياب وكون الناس يكونون في حال لا يرغبون أن يراهم فيها أحد، وبعد هذه الأوقات التي تكون مظنة كشف العورات إشارة إلى أن الإثم يلحق الذين يكشفون عوراتهم ولا يتخذون الأستار، وقاية من أن تنالها الأعين ولو كانت بريئة، وفي ذلك دعوة إلى ضرورة اتخاذ أسباب[(١)].

وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ فقال: (نعم)، قال الرجل: إني معها في البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استأذن عليها)، فقال الرجل: إني خادمها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استأذن عليها، أتحبّ أن تراها عريانةً؟) قال: لا، قال: (فاستأذن عليها)[(٢)].

٥. تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؛ لأنّ النظر بريد الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه[(٣)].

وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر، هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم[(٤)].

وغض البصر: خفضه كفًّا له عن النظر، ولفظ (من) قد تكون للتبعيض، فالمراد: غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل[(٥)].

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٢٢٥.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٥.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٠.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦.

(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١٤٠١.

وإنّ النظرة الأولى لا يملكها الإنسان وإنّما يغضّ فيما بعد ذلك، لذلك وقع التبعيض، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته،ووجب التحذير منه، والنواظر صوارم مشهورة فاغمدها في غمد الغضّ والحياء من نظر المولى وإلاّ جرحك بها عدوّ الهوى، ولا ترسل بريد النظر فيجلب لقلبك رديء الفكر، غضّ البصر يورث القلب نورًا، وإطلاقه يقدح في القلب نارًا[1].

ومما يجدر الإشارة إليه لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غض البصر من المستأذن، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**إنما جعل الإذن من أجل البصر**)[2].

وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل النظر إليه[3].

وعن حذيفة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**)[4].

أزكى: الذي هو أفعل التفضيل للمبالغة في أن غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل، والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعًا[5].

وأطهر لهم من دنس الريبة وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ في ذلك وعيد لمن لم يغض بصره ويحفظ فرجه[6].

وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيه إغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم! وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة، ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة بوصفهما سببًا ونتيجة أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع[7].

وقيل: من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته، أو في قلبه، فإن النظر هو رسول

---

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٨٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه فلا دية له، رقم ٦٩٠١، ٩/ ١٠.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقائق، رقم ٧٨٧٥، ٤/ ٣٤٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢١٤.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٧.
(٧) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥١٢.

الشيطان إلى تحريك الشهوة، والدعوة إلى الفاحشة، وقدّم الرجال على النساء، لأنهن عورة، والنظر إليهن يدعو إلى الفتنة أكثر من نظرهن إلى الرجال[1].

٦. تحريم التبرج والسفور.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

يعني: القناع الذي يكون فوق الخمار وذلك أن المهاجرين قدموا المدينة ومعهم نساؤهم فنزلوا مع الأنصار في ديارهم فضاقت الدور عنهم، وكان النساء يخرجن بالليل إلى النخل فيقضين حوائجهن، فكان المريب يرصد النساء بالليل فيأتيها فيعرض عليها ويغمزها، فإن هويت الجماع أعطاها أجرها وقضى حاجته، وإن كانت عفيفة صاحت فتركها، فذكر نساء المؤمنين ذلك لأزواجهن وما يلقين بالليل من الزناة، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل الآية[2].

وعن مجاهد: «يتجلببن حتى يعلم أنهن حرائر لا يعرض لهن فاسق بأذى من قول أو ريبة»[3].

وكان المنافقون هم الذين كانوا يتعرضون للنساء[4].

وهذا تنبيه لهن على حفظ الحرمة وإثبات الرّتبة، وصيانة لهن، وأمر لهن بالتصاون والتعفّف، وقرن بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإرجاف في المدينة، فقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝٦١﴾[الأحزاب:٦٠-٦١].

إنهم إن لم يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم ستّنا في التدمير على من سلف من الكفار[5].

ويقول تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩/ ١٢٦٣

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٥٠٧.

(٣) تفسير مجاهد ص ٥٥٢.

(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٣٨.

(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٧١.

﴿أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور:٣١].

ذكر الله تعالى أحكامًا خاصةً بالنساء ومنها: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، أي: يلا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب حين التحلي بها، وهي كل ما يتزين به ويتجمل من أنواع الحلي والخضاب وغيرها، فيكون إبداء مواقع الزينة منهيًا عنه بالأولى، أو لا يظهرن مواضع الزينة بإطلاق الزينة وإرادة مواقعها، بدليل قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ لأن الزينة نفسها ليست مقصودة بالنهي، وهناك تلازم بين الزينة وموضعها، والغاية هي النهي عن أجزاء الجسد التي تكون محلًا للزينة، ويستأنس بالحديث الذي روي عن عائشة رضي الله عنه: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: (يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا)[(١)].

وأشار إلى وجهه وكفيه، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ ما جرت العادة بظهوره[(٢)].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها، ٤/ ٦٢، رقم ٤١٠٤.

قال: أبو داود: هذا مرسل.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٩٥، رقم ٢٩٤٤.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ٢١٦.

فعن ابن مسعود، قال: ((الزينة زينتان: فالظاهرة منها الثياب، وما خفي: الخلخالان والقرطان والسواران))، وعن ابن عبّاسٍ الظاهرة: قال: (رقعة الوجه وباطن الكفّ))[(٣)].

والمسألة خلافية تطلب من مظانها في كتب الفقه.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ﴾ وليلقين بخمرهنّ، أي: بمقانعهن وهي جمع خمار، وهو غطاء رأس المرأة على جيوبهنّ وصدورهن ليسترن بذلك شعورهنّ وأقراطهنّ وأعناقهن، قالت عائشة: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول لمّا أنزل الله سبحانه هذه الآية شققن أكتف مروطهنّ فاختمرن به».

﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، الخفيّة التي أمرن بتغطيتها، ولم يبح لهنّ كشفها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور:٣١][(٤)].

وقد اختلف العلماء في تحديد عورة المرأة على مذاهب تطلب في كتب الفقه وليس محلها في بحثنا هذا، والزينة: ما تزينت به المرأة، وذكر الزينة دون مواقعها؛

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٥٥.

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٩٦، الكشف والبيان، الثعلبي، ٧/ ٨٧، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٧٤.

للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر، لأنّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، فنهى عن إبداء الزينة نفسها، ليعلم أنّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع- بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله- كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنا في الحظر، ثابت القدم في الحرمة، شاهدا على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها[1].

٧. تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط بها.

كان عمر بن عبد العزيز يقول: «لا يخلون رجل بامرأة وإن كان يحفظها القرءان»، فلا يعتد بالنوايا الطيبة فمعظم النار من مستصغر الشرر، ولابد في هذا وغيره من صحة العمل، لأنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، فلا يؤمن مع الخلوة وقوع المحظور، لاسيما في زمن يقل فيه وازع الإيمان والدين، ويكثر فيه الفساد، فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:(ولا يخلونّ رجلٌ بامرأةٍ فإنّ ثالثهما الشّيطان)[2].

وقد روى ابن عباس عن رسول صلى الله عليه وسلم قوله: (لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم). فقال له رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال: (انطلق فحج مع امرأتك)[3].

٨. الترغيب في الزواج.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٢-٣٣].

فالزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها، والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس.والإسلام نظام متكامل، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٨، رقم ١١٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع ذي محرم، رقم ١٣٤١، ٢/ ٩٧٨.

وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء، فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامدًا غير مضطر، لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال فيتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج، وتمكينهم من الإحصان، والآباء مسئولون عن تربية أبنائهم وتعليمهم وتزويجهم حصانة لهم أو مساعدتهم على ذلك[(١)]، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة، وهو واجب، ووسيلة الواجب واجبة[(٢)].

وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء)**[(٣)].

والباءة: القدرة على التزوج، وامتلاك الصلاحية له، والوجاء: الخصاء، الذي به تموت الشهوة، وينقطع اتصال الرجل بالمرأة. فالمسلمون مطالبون بأن يتحصنوا بالزواج، وأن يرغبوا فيه، وييسّروا أموره، وذلك حتى لا تفشو فيهم دواعي الفساد، والاعتداء على الفروج، أو حتى لا يتجه أصحاب الإيمان القويّ إلى الرهبنة، التي تحرمها شريعة هذا الدين.

فعن أنس رضي الله عنه أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر. فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: **(ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[(٤)(٥)].

---

(١) انظر: التربية الإسلامية ومراحل النمو، عباس محجوب ص ١٢٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٢/ ١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣، ٩/ ١٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة ٢/ ١٠٢٠، رقم ١٤٠١.

(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٧٠.

أساليب القرآن في النهي عن الزنا

اعتمد القرآن أسلوب الوقاية في إنشاء المجتمع النظيف قبل أن يعتمد العقوبة، وهو لا يحارب الدوافع الفطرية، لكنه ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة، والفكرة السائدة في منهج الإسلام في هذه الناحية، هي تضييق فرص الغواية، وقطع الطريق على أسباب التهييج والإثارة، مع إزالة العوائق دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة، كي لا تكون الفعلة سهلة ميسرة، فتغري بيسرها وسهولتها بالفحشاء[1].

وجميع الشرائع جاءت بتحريم الزنا، ولم يكن في يوم من الأيام مباحًا منذ أن خلق الله تعالى الخليقة؛ ولذلك قال الله تعالى عن مريم عليها السلام عندما جاءت بعيسى إلى قومها حكاية عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم:٢٧].

فجعلوا ذلك أمرًا عظيمًا ومنكرًا، كما حرّمته الديانة اليهودية أيضًا، بل وصفته أنه فاحشة وأنه منجس للأرض، وفرضت عليه العقوبات القاسية، من قتل وتحريق ورجم بالحجارة، وكان قبيحًا عند العرب قبل البعثة فلم يكن يرتكبه إلا سفاسف الناس وأرذلهم من الإماء والعبيد، وشدد الإسلام على حرمته حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع النساء على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢].

ولم يحرم الإسلام الزنا على مراحل مثلما حرم الخمر، وذلك لعظم قبحه وفحشه وكثرة أضراره وعواقبه، وإنما كان التدرج في إنزال العقوبة بفاعله، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ لم ينزل فيه عقوبة، وإنما كان الغرض منه تقبيح هذه الفعلة في النفوس، وذمها سبيلًا لإشباع هذه الرغبة، فكان ذلك تربية للنفوس وتهيئة لإنزال العقوبة.

ثم كان العقوبة أول الأمر بالإيذاء والتوبيخ والتعنيف بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء:١٦].

والحبس في البيوت للنساء، بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥][2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠٧.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي

فعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] ، ((كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت، وكان الرجل إذا زنا أوذي بالتعيير وضرب بالنعال، فأنزل الله الآية[1] .

وقال الشوكاني: «وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء»[2] .

فجعل الله السبيل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة ، والرجم للثيب حتى يموت، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عبادة بن الصامت: (خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[3] .

ومن أساليب القرآن في النهي عن الزنا ما يلي:

أولًا: أسلوب النهي المباشر:

١ . النهي عن قربان الزنا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

فإن هذا النهي تناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها ، وفي هذا زجر عن إتيانها، ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدًا إبلاغًا في التنفير عنه لما للنفس من شدّة الداعية إليه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ فقبحها بهذه التسمية أي: فعلةً ظاهرة القبح زائدته، والفاحشة هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح، وعظم قبح الزنا مركوز في العقول من أصل الفطرة كان ولم يزل كذلك معروفًا[4] .

ووصفته بالسبيل السيء، وقد نهى الله تعالى عن الفحشاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠][5] .

٢ . النهي عن قربان الفواحش.

يقول تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١].

ص ٣٧.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٠٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٥٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٦٩٠، ٣/ ١٣١٦

(٤) انظر: تفسير ابن باديس ص ٩٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٧.

وهو نهي عن أنواع الزنا سرًا وعلنًا، وكانت الزواني في الجاهلية على نحوين: كانت لبعضهنّ رايات على الأبواب، علمًا لمن أراد الزنا؛ فكن يزنين علنًا، وأخريات كن يزنين سرًا، فهذا المراد بالفواحش ما ظهر منها وما بطن[1].

فعن الضحاك: كان أهل الجاهلية يستسرّون بالزنى، ويرون ذلك حلالًا ما كان سرًّا، فحرّم الله السر منه والعلانية بقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2].

وعن ابن عباس: ((كانوا يكرهون أن يزنوا علانيةً فيفعلون ذلك سرًّا، فنهاهم الله عن الزنا سرًا وعلانية))[3].

وقال آخرون: الظاهر: التعرّي والتجرد من الثياب، وما يستر العورة في الطواف، والباطن: الزنا[4].

وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة وهي: أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس، وذلك باطل لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعًا من عقاب الله ونحوه، فإنه يخشى عليه من الكفر، ومن ترك المعصية ظاهرًا وباطنًا، دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيمًا لأمر الله تعالى وخوفًا من عذابه ورغبة في عبوديته[5].

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أجمع آية في كتاب الله آية في سورة النحل»، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾.

والفحشاء هنا: ما اشتد قبحه قولًا أو فعلًا، أو يتجاوز الحد في القبح، وقال ابن عباس)) :الزنى، و غالبًا ما يخصص به الاعتداء على العرض[6].

ثانيًا: أسلوب النهي غير المباشر:

١. اقتران الزنا بالشرك.

قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣].

والمعنى: أن الزاني لا ينبغي له أن يتزوج إلا زانية أو مشركة ولا يقترن بالعفيفة الشريفة الطيبة لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، فيقع

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٥٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢١٩.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٢.
(٥) مفاتيح الغيب بتصرف، الرازي ١٣/ ١٧٨.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩١، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٢٥، التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢١٠.

الزاني على من هي مثله وتقع الزانية على من هو مثلها زان أو مشرك، فاقتران الزاني بالمشركة والزانية بالمشرك إشارة إلى عظيم خطر الزنا وكبير ضرره.

قال العلامة الألوسي في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور:٣]: «تقبيح لأمر الزاني أشد تقبيح ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة فبينهما كما بين سهيل والثريا، وإنما يليق به أن ينكح زانية هي في ذلك طبقه ليوافق شن طبقه، أو مشركة هي أسوأ منه حالا وأقبح أفعالًا، فلا ينكح : خبر مراد منه لا يليق به أن ينكح، ثم المراد اللياقة وعدم اللياقة من حيث الزنا فيكون فيه من تقبيح الزنا ما فيه، ولا يشكل صحة نكاح الزاني المسلم الزانية المسلمة ، وكذا العفيفة المسلمة وعدم صحة نكاحه المشركة المذكورة في الآية، لكن يعني : الزانية بعد أن رضيت بالزنا فولغ فيها كلب شهوة الزاني لا يليق أن ينكحها من حيث إنها كذلك إلا من هو مثلها وهو الزاني أو من هو أسوأ حالًا منها وهو المشرك، وأما المسلم العفيف فإن غيرته تأبى ورود جفرتها»[1].

٢. النهي عن مقدمات الزنا وذرائعه وتحريمها.

ومنها: نهي المرأة عن إظهار زينتها أمام غير المحارم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

فذكرت الآية المحارم من الرجال الذين جاز للمرأة أن تبدي لهم زينتها.

ومنها: نهي المرأة عن الخضوع في القول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض، فحرم عليها أن تظهر جمالها بصوتها، فقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وإن نساء الأمة تبع لنساء النبي صلى الله عليه وسلم في الأخذ بهذه الأحكام وبغيرها من الآداب المذكورة في سورة الأحزاب، عندما تخضع المرأة بالقول تحرك الفتنة في قلب الرجل ،ولذلك يتشوق إلى رؤية هذا الصوت، قاله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهن أطهر النساء وهن يكلمن أطهر الرجال.

ومنها: نهي الله المرأة أن تضرب بخلخالها؛ ليعلم ما تخفي من زينتها.

فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

ومنها: أمر المرأة بالقرار في البيوت ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣].

ومنها: تحريم الخلوة بين الرجل والمرأة، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا يخلون

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٨٣-٢٨٢.

أحدكم بامرأة إلا والشيطان ثالثهما)[١].

ولا نطيل هنا في هذا الجانب، ذلك لأنه استوفى البحث في أسباب الوقاية من الزنا فلا داعي للتكرار.

ثالثًا: أسلوب الترغيب فيما يمنع الوقوع في الزنا:

١. الترغيب في الزواج.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

وقال صلى الله عليه وسلم: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢].

وعن عبد الله بن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا شباب قريش لا تزنوا، ألا من حفظ فرجه فله الجنة)[٣].

فأمره صلى الله عليه وسلم الشباب بالزواج وتبشيره بالجنة لمن حفظ فرجه لا شك أنها من أقوى الأساليب في النهي عن الفاحشة؛ لأنه ما من مسلم إلا ويشتاق للجنة إلا من أبى. كما أنه صلى الله عليه وسلم بين خطورة هذه الجريمة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن)[٤].

فينفي عنه صفة الإيمان عند قيامه بهذه الفاحشة.

٢. الترغيب في مساعدة الراغبين في الزواج.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

٣. أمر بالاستعفاف لمن لم يجد نكاحًا.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٦٨، رقم ١١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٧/ ٦١، رقم ٦٨٥٠، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الحدود، رقم ٨٠٦٢، ٤/ ٣٩٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٤٤٠، رقم ٢٦٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم ٥٧، ١/ ٧٦.

﴿... تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

٤ . إباحة تعدد الزوجات.

قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣].

فالإسلام حين حرّم الزنا وشدّد في تحريمه شرع الزواج، وأباح التعدد فيه كما مضى، ولا ريب أن منع التعدد ظلم للمرأة والرجل؛ فمنعه قد يدفع إلى الزنا؛ لأن عدد النساء يفوق عدد الرجال في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك في أيام الحروب؛ فقصر الزواج على واحدة يؤدي إلى بقاء عدد كبير من النساء دون زواج، وذلك يسبب لهن الحرج، والضيق، والتشتت، وربما أدى بهن إلى بيع العرض، وانتشار الزنا، وضياع النسل[(١)].

٥ . أمر بغض البصر وحث عليه.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

تنهي الآية الرجال والنساء عن النظرة الثانية، كما تبين ما في غض البصر من الخير، للمسلم في دنياه و أخراه، كما مر في مبحث الوسائل الوقائية من الوقوع في الزنا.

رابعًا: أسلوب الترهيب:

١ . تشريع العقوبة القاسية وتنويعها على مرتكبي الجريمة.

فأقام حد الجلد على غير المحصن، وتغريبه عام، وإسقاط شهادته، والحكم عليه بالفسق، أما المحصن فالرجم حتى الموت، وأهم من ذلك كله الفضيحة بأن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢].

٢ . ضمان العدالة في تطبيق هذه الحدود.

بحيث لا يمكن أن يقبل الحاكم بالعفو أو التقليل من الحد إذا وصل الأمر للقضاء. لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

٣ . اقتران النهي عن الزنا بالنهي عن الشرك والقتل.

وإذا ما نظرنا إلى سياق الآيات التي جاء النهي عن الزنا وجدنا أنها وردت بين نهيين عن القتل وذلك في قول الله تعالى:

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد أسد ص ٨٦.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء:٣١-٣٣].

توسطت آية النهي عن قربان الزنى بين آيتين، الأولى تنهى عن قتل الأبناء، والثانية تنهى عن قتل النفس بغير حق فاستنبط من ذلك، أن الزنى نوعٌ من أنواع القتل، بل هو أشد أنواع القتل إذ هو ليس قتل مادي فحسب، بل هو قتل معنوي أيضًا.

فهذه المرأة التي تقع في الزنى كأنك قتلتها فأخرجتها من إنسانيتها، وأبعدتها عن مهمتها المقدسة، وعن الوظيفة العليا التي خلقت من أجلها، وعن أن تقوم بدورها الطبيعي الإنساني، كما أن مرتكبي هذه الفاحشة غالبًا ما يعقبونها بجريمة قتل حرصًا منهما على التخلص من آثار هذه الجريمة فيقتلون هذا الجنين أو حتى بعد أن يولد يلقى على قارعة الطريق ليكون مصيره الموت، ولوشاء الله وقدر له الحياة سيعيش حياة الذل والقهر والحرمان، الأمر الذي يؤدي إلى إنتاج شخصية حاقدة على المجتمع تجنح للقتل وارتكاب الجرائم، ذلك أنه يقتل معنويًا في كل يوم مرات ومرات.

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، والزنا، وقتل النفس.

ذلك أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ،والثانية جريمة قتل للجماعة، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة، إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة. والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار. لذلك جعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار[1].

خامسًا: أسلوب النفي الذي غرضه النهي:

ذكره الله تعالى في وصف المؤمنين، الذين نفى عنهم الشرك بالله تعالى، ونفى عنهم أيضًا الزنا، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

هنا وصفهم الله بأنهم لا يزنون ، أي: لا يباشرون الزنا نفسه ، أما مقدماته فلم ينفها عنهم مصداقًا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب٣/ ١٢٣٢.

من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة. العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)[1][2].

نزّه المؤمنين عن الاتصاف بهذه الفاحشة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المعارج:٢٩-٣٠].

ووصف المؤمنات بالمحصنات، فعن ابن عباس قوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥].

يعني: تنكحوهن عفائف غير زواني في سرّ ولا علانية، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ يعني: أخلاء.

وعنه رضي الله عنه أنه قال : ((كان أهل الجاهليّة يحرّمون ما ظهر من الزّنا، ويستحلّون ما خفي، يقولون: أمّا ما ظهر منه فهو لؤمٌ، وأمّا ما خفي فلا بأس بذلك، فأنزل اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]))[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، رقم ٢٦٥٧، ٤/ ٢٠٤٧.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٩١.

(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩٣.

أثر شيوع الزنا على الفرد والمجتمع

دعا الإسلام الحنيف إلى الزواج ورغب فيه؛ لأنه أسلم طريقة لتصريف الغريزة الجنسية، وهو الوسيلة المثلى لإخراج سلالة يقوم على تربيتها الزوجان ويتعهدانها بالرعاية، لكي تستطيع هذه السلالة أن تنهض بتبعاتها وتسهم بجهودها في ترقية الحياة وإعلائها[4].

وإن ممارسة هذه الجريمة وشيوعها ليترك آثاراً وأضرارًا تشيب منها الرؤوس وتقشعر منها الأبدان[5].

وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)[6].

وعن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خلقك) قلت: ثم أي؟ قال: (أن

(٤) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال عبدالرحمن إسماعيل ص ١٩-٢١.

(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٣٨.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٣٤٣.



تقتل ولدك خشية أن يأكل معك)، قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزني بحليلة جارك) فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨][1].

أولًا: أثر شيوع الزنا على الفرد:

١ . انتشار الأمراض الجنسية وضعف بنية الشباب.

فالزنا سبب مباشر في انتشار الأمراض الجنسية الخطيرة التي تفتك بالبدن وتضعف الشباب وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء وأبناء الأبناء[2].

يقول الدكتور جون بيستون وهو أستاذ الطب الوقائي في جامعة كاليفورنيا: «إن القرائن التي جمعت من عدة دراسات تدل على أن الأمراض الجنسية تنتج في معظمها عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج أي : من الزنا»[3].

و لا شك، أن هذه الأمراض تشكل عقابًا إلهيًا عاجلًا لمن تجرأ و اعتدى على الفطرة الإنسانية السليمة و سلك غير سبيل الهدى بارتكاب الفواحش.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادا)، رقم ٧٥٢٠، ٩/ ١٥٢.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنى، فضل إلهي ص ٥١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٥٢.

٢ . اختلاط الأنساب.

في الزنا ضياع الأنساب واختلاطها وتمليك الأموال لغير أصحابها عند التوارث، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يخلط النسب حينما أراد رجل أن يطأ جارية وكانت حاملًا فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لقد هممت أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره، كيف يورثه وهو لا يحل له، كيف يستخدمه وهو لا يحل له)**[4].

قال ابن القيم: «يعني: إن استلحقه وشركه في ميراثه لا يحل له لأنه ليس بولده، وإن أخذه مملوكا يستخدمه لم يحل له، لأنه قد شرك فيه لكون الماء يزيد في الولد».

قال: «وفي هذا دلالة ظاهرة على تحريم نكاح الحامل»[5].

فإذا كان نكاح الحامل محرمًا سواء كانت حرة فتزوجها، أو من السبايا فوطأها؛ فما بالنا إذا زاد الطين بلّا فزنى، والزاني لا يفتّش فيمن يزني بها، وهي إما أن تحمل منه فتدخل على قومها من ليس منهم، وإما أن تكون حاملًا فماء الزاني يزيد في ولدها، وإما لا يعلم أمن زوجها الحمل أم من غيره، ومن هنا تختلط الأنساب والنّطف.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم وطء الحامل المسبية، رقم ١٤٤١، ٢/ ١٠٦٥.

(٥) زاد المعاد، ٥/ ١٥٥.

٣. مشكلة أولاد الحرام.

إن في هذه الفاحشة جناية على الجنين الذي يأتي من الزنا؛ حيث يعيش مقطوع النسب، محتقرًا ذليلًا، وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة بين أطفال المحاضن أن الطفل الذي تتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتنفك ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون[١].

ولقد أخذت هذه المشكلة تتفاقم، حيث بلغت نسبة الأولاد غير الشرعيين في بعض المدن الفرنسية ٥٠٪ بالنسبة للمجموع الكلي لعدد المواليد[٢].

٤. الهم والحزن والمقت بين الناس والخوف.

إذ إنه دنس العرض والشرف ونزع شعار الطهر والعفاف والفضيلة ولطخ فاعله بالعار والشنار، ويجعل الزانية والزاني بين خطرين، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤوسهم، فإن حملت من الزنا وقتلت ولدها جمعت بين جريمتي الزنا والقتل، وإن أمسكته أضافت إلى زوجها غير ولده.

ثانيًا: أثر شيوع الزنا على المجتمع:

١. كثرة الجرائم.

والزنا أحد أسباب جريمة القتل فقد لا يجد الغيور على عرضه وسيلة يغسل بها العار الذي لحقه ولحق أهله إلا سفك الدم[٣]، أثبت علماء النفس أن معظم المجرمين والجانحين في العالم يكونون من أولاد الحرام وممن عاشوا في ملاجئ الأطفال، وفي أجواء بعيدة عن العاطفة، الأمر الذي يؤدي إلى كثرة الجرائم وعدم الأمن والأمان في المجتمع.

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة، وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس لذات الصلة وذات المناسبة؛ إن في الزنا قتلًا من نواحٍ شتى، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها. يتبعه غالبا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة، أو حياة مهينة، فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء، وهو قتل في صورة أخرى، قتل للجماعة التي يفشو فيها، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين

(١) التدابير الواقية من الزنى،فضل إلهيص ٥٤.
(٢) انظر: حقوق الإنسان في الاسلام، عبدالواحد وافي ص١٥٩.
(٣) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي ص ٧٨.

الجماعات.

وهو قتل للجماعة من جانب آخر، إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه.

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث، وقد يغر بعضهم أن أوروبا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما، ولكن آثار هذا الانحلال في الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها، أما في الأمم الفتية كالولايات المتحدة، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذي يسرف في شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عند ما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن، كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده! والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا، وهي مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان[1].

٢. تفكك المجتمع وذلك عن طريق تشتيت العلاقة الزوجية.

فالزنا يشتت الحياة الزوجية إذ ينتج عنه الإحجام عن الزواج ؛ لأنه يجد إشباعًا لحاجاته دون تحمله لأدنى مسؤولية والزواج يحمله هذه المسؤولية، حتى بعض من يقبل على الزواج سرعان ما تنهار حياته الزوجية[2].

فيفسد نظام البيت ويهز كيان الأسرة ويقطع العلاقة الزوجية، ويعرض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه التشرد والانحراف والجريمة، مما يحطم المجتمعات ويفكك روابطها ويكثر فيها اللقطاء والضائعون حيثما يولد الولد وهو لا يدري أباه ولا أمه[3].

والتهرب من مسؤولية بناء الأسرة التي هي لبنة المجتمع، يفكك عرى هذا المجتمع و يحوله إلى أفراد لا يجمع بينهم أي رابط مشترك.

٣. ظهور الزنا من أمارات خراب العالم.

فقد ورد في الصحيحين من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال : **(يا أمة محمد، والله إنه**

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٣.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي ص ٧٠.

(٣) انظر: ولا تقربوا الفواحش، محمد جمال إسماعيل ص٢٢.

لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ثم رفع يديه وقال:اللهم هل بلغت؟)[1].

قال ابن القيم: «وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم»[2].

فتغير حال الشمس وذهاب ضوئها بالكسوف علامة من علامات تغير الحال من الأحسن إلى الأسوأ وقد يكون بسبب المعاصي والذنوب، لذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في صلاة الكسوف.

٤ . انخفاض نسبة المواليد.

ذلك أن هذه الجريمة تعمل على نشر الأمراض، الأمر الذي يؤدي إلى موت كثير من الأطفال وهم في سن مبكرة، كما أن كل من يمارس هذه الفاحشة سيحرص على أن يخفي أو يتخلص من تبعاتها فربما يقتل الجنين ابن الزنا.

٥ . انتشار الزنا من أشراط الساعة.

وذلك كما جاء في الصحيحين عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال : لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم : **(أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)**[3][4].

وفي إشارة نبوية رائعة لنتائج انتشار هذه الفواحش انتشار الأمراض يقول صلى الله عليه وسلم: **(ولم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا)**[5].

فكان انتشار هذه الأمراض مع الإباحية الجنسية والعلاقات الفاجرة ما هو إلا تحقيق لنبوءة وإعجاز لسيد البشر بهذا الحديث.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم ١٠٤٤، ٢/ ٣٤.

(٢) الجواب الكافي ص ١٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إثم الزناة، رقم ٦٨٠٨، ٨/ ١٦٤.

(٤) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال عبدالرحمن إسماعيل ١/ ٢٦، الطريق إلى الإسلام ، محمد أسد ص ٨٦.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٣٤٣.

الاعجاز التشريعي في تحريم الزنا

إنّ من الإعجاز التشريعي في تحريم الزنا أنّه لما نهى الله عز وجل عن الزنى نهى عن قربانه قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

أي: لا تقتربوا منه ولا من أسبابه ودواعيه، لأن تعاطي الأسباب مؤد إليه وهو فعل شديد القبح و عظيم الذنب، كمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه[1].

كما أن الله عز وجل سماه فاحشة وقد نهانا عن الاقتراب من الفواحش في آية أخرى، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١][2].

كما أن النهي عن الزنى جاء بعد النهي عن الوأد؛ لأنه من بابه، وإذا كان الوأد قتلًا للولد، فالزاني كذلك؛ لأنه يرمي النطفة، ولذا لوحظ في الأمم التي تكثر فيها الفاحشة، أنها تفنى شيئًا فشيئًا، وأن شيوع الزنى في أمة يضعف قوتها ونخوتها ويجعلها جماعة لاهية لاعبة[3].

قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله)[4].

والدواء نوعان:

- دواء تحصين واكتساب للمناعة ضد هذا المرض ينتج عنه تحصين وحفظ الفرج.
- دواء لاقتلاع المرض بعد حدوثه واستئصال جذوره[5].

وقد استعمل القرآن الكريم أساليب متنوعة في علاج هذه الجريمة؛ فمن الأمور العلاجية ما يلي:

١. فرض الاسلام العقوبات المشددة لمنع الزنا والتحرشات.

قال تعالى في عقوبة الزناة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، مع التنكيل بهما ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والتشهير بهم ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، شرع القرآن الكريم حدّ الزّنا، وأوجب الله سبحانه وتعالى على أولي الأمر إقامة الحد عليهم حفاظًا على الأعراض، ومنعًا لاختلاط

(١) انظر: مراح لبيد، الجاوي ١/ ٥٢٩.
(٢) انظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٧.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٣٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٥٠، رقم ٣٥٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧١، رقم ١٨٠٩.
(٥) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال عبدالرحمن إسماعيل ٢/ ١٠٨.

الأنساب، وتحقيقًا للعفاف والصون وطهر المجتمع.

وفي قول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ثلاث إشارات بيانية:

أولها: في تقديم الزانية على الزاني، قالوا: لأن قوة الشهوة الدافعة إلى الزنى عند المرأة أقوى، وربما لا نوافق على ذلك كثيرًا؛ لأن الرجل يطلب المرأة في أكثر الأحيان، والمرأة لا تطلب الرجل إلا قليلًا، وإن حدثتها نفسها فإن الحياء يكفها إلا إذا خلعته، وقد نقول: إنها إن طلبها الرجل ولم تكن مؤمنة سارعت إليه، ونقول في تعليل ذلك إن العقوبة قاسية، وقد قدمت المرأة لكيلا يمتنع أحد عن إقامة الحد بدعوى ضعفها، والشفقة عليها والرفق بها؛ لأنها من القوارير.

ثانيها: أن كلمة الزاني والزانية وصف بالزنى، وذلك يكون في أكثر الأحوال من تعوّد هذه الجريمة، ولذلك لا يكون إلا ممن أعلن هذه الجريمة الفاحشة ولذلك كان لابد من شروط لإقامة هذا الحد: أن يشهد أربعة بها، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الجريمة معلنة مجاهرًا بها، وذلك لا يكون إلا ممن تعودوا هذه الجريمة، وقد يكون الزنى في أول أمره، ولكن يندر أن يحضره أربعة من الرجال العدول، ومع ذلك يطبق الحكم سدًا للذريعة.

ثالثها: أن التعبير عن الضرب بالجلد للإشارة إلى أنه يؤلم الجلد، وذلك بأن يكون الضرب قريبًا من الجلد، فلا يستره إلا ثوب عادي، ولا يضرب على حشوة من قطن أو نحوه.

وهذه هي العقوبة الأولى، وقد تبعتها عقوبة أخرى، وهي أن تكون هذه العقوبة في العلن لا في السر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

أي: ليحضر العقوبة ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وما حد الطائفة ، قيل : اثنان. وقيل : أربعة.

والظاهر: أنها الطائفة التي يكون بها الإعلام، بأن تكون العقوبة في مكان تكون فيه علنية لا سرية، وسمى الله هذه العقوبة عذابا؛ لأنها عذاب الدنيا، ووراءها عذاب الآخرة، إن لم يتوبا توبةً نصوحًا؛ ولأنها قاسية غليظة، والرحمة بالجاني تشجيع على الجناية، والغلظة في عقابه رحمة بالجماعة الإنسانية.

ولغلظة العقوبة قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢].

والرأفة انفعال نفسي يدفع إلى الشفقة والألم، فلا يصح أن تكون الرأفة هي المسيطرة ، أي : لا يصح أن تستولي عليكم حتى يقال: إنها أخذتكم، فالرأفة بالجاني

استهانة بالحكم وتشجيع عليه[(١)].

وقد خص الله سبحانه وتعالى حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

الأولى: القتل فيه بأشنع القتلات للزاني المحصن، فقد دلّت السّنة الصحيحة على أنّ الحدّ لكل منهما هو الرجم[(٢)]، وعندما يكون الحد جلدًا للزاني غير المحصن، فقد جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

جاء في الصحيحين: أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله، إن ابني كان عسيفًا (أجيرًا) على هذا فزنى بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ، ووليدة (جارية)، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني : جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجل : الرجم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردٌّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها)، فغدا عليها فاعترفت فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فرجمت[(٣)].

الثانية: نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن تأخذهم بالزناة رأفة في دين الله عند إقامة الحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

والرأفة ترك إقامة حدّ الله عليهما وتعطيله، فأما إذا أقيم عليهما الحد فلم تأخذهم بهما رأفة في دين الله، أو تخفيف الضرب عنهما، ولكن يجب أن يوجعوهما ضربًا[(٤)].

الثالثة: أنه سبحانه أوجب عليهما الفضيحة رغم أنه تعالى «ستّيرٌ» يحب الستر وعفوٌّ يحب العفو، لكن لقبح الزنا وبشاعته أوجب ذلك ردعًا للغير، فأمر أن يكون الحد بمشهد من المؤمنين، ولا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر، فقال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢][(٥)].

والأمر بشهادة الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٣٩.

(٢) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل ٢/ ١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط التي لا تحل في الحدود، ٣/ ١٩١، رقم ٢٧٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ٣/ ١٣٢٤، رقم ١٦٩٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩١، ٩٢، تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٢٤.

(٥) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل ٢/ ١٣٥.

والاثنان ليسوا بتلك المثابة، ويشهد له قول ابن عباس رضي الله عنهما : ((أربعة إلى أربعين رجلًا من المصدقين بالله، واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل))[1].

٢. عقوبة خوض اللسان في الفواحش وقذف المحصنات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④﴾ [النور:٤].

شرع القرآن الكريم أيضًا حدًّا للقذف من أجل الحفاظ على العرض، والذي هو جلد ثمانين جلدة، وهي عقوبة جسدية، وعدم قبول شهادتهم، والحكم عليهم بالفسق وهي عقوبة معنوية، بل وحرم على المسلم الأقل من ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

وقبح جل وعلا غيبة المسلم غاية التقبيح فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١][2].

فإذا كانت الغيبة محرمة ومجرمة وكذلك التنابز بالألقاب فمن باب أولى أن يحرم القذف.

٣. قرن الزنا بالشرك وقتل النفس.

وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح[3].

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ⑥⑧ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ⑥⑨ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑦⓪﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

ويتضح اقتران الزنى والقتل بالشرك أيضًا في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي ورد في الصحيحين فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم؟ **فقال: (أن تجعل الله ندًا وهو خلقك)، قلت: ثم أي؟ قال: (أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك) قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزاني حليلة جارك)**[4].

وقرن الزاني بالمشركة أو الزانية، حيث

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١١.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٩.

(٣) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل، ٢/ ١٣٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، رقم ٧٥٢٠، ٩/ ١٥٢.

يقول الله عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣].

أما الأمور الوقائية فهي كثيرة تدعو بمجموعها الفصل بين الجنسين وعدم حصول الإغراءات بينهما والتي هي سبب في مثل هذه الجرائم.

١. نهى القرآن عن اتباع خطوات الشيطان.

لكي تحول بينهم و بين الوقوع في الشهوات و العقوبات فدعت إلى تخفيف نار الشهوة في النفوس بنهيها عن اتباع الشيطان وخطواته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

٢. الأمر بغض البصر.

فبين الله أهمية غض البصر في كبح جماح الشهوة وحفظ الفروج للرجال والنساء وأمر به.

فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠].

وأمر النساء به كذلك فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١].

٣. الأمر بالستر والحجاب.

فحث المرأة على ستر زينتها، حتى لا يفتن بها الرجال ونهى عن إبداء ما لا يجوز إبداؤه من هذه الزينة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[النور:٣١].

٤. الحث على المساعدة على الزواج.

شجّع المولى تبارك وتعالى تيسير الزواج الحلال، ذلك مقابل كفّ النفس عن إشباع الغريزة الجنسية بالحرام، حتى لا يحدث كبت نفسي الذي قد يؤدي إلى انفجار غير محسوب، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

وقال صلى الله عليه وسلم عن علاج الشهوة بالصوم : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[١].

ومع الصوم أمر الإسلام بالتعفف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٢/١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

والاستعفاف لمن حيل بينه وبين الزواج حتى ييسر الله عليه، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣][1].

٥. تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء.

فهو سبب لتأجيج نار الشهوة، ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، فقد حرص شرعنا الحنيف على منع الاختلاط بين الجنسين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، فدلت الآية على أن الأصل احتجاب النساء عن الرجال وعدم الاختلاط لاسيما في دور العلم حرصا على طهارة قلوب الرجال و النساء، بل و نهى الشرع عن خلوة الرجل بالمرأة.

٦. تحريم لمس المرأة الأجنبية.

فحرّم الإسلام مصافحة الرجال للنساء: يقول صلى الله عليه وسلم: (إني لا أصافح النساء)[2]، فقد حرم على الرجل أن يمسّ يد امرأة من غير محارمه.

موضوعات ذات صلة.

الإحصان، العفة، الفواحش، اللعن، النكاح

---

(١) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل ٢/ ١٣٣.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب البيعة، بيعة النساء، رقم ٤١٨١، ٧/ ١٤٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٤، رقم ٢٥١١.







عناصر الموضوع

مفهوم الزور

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(زور) الزاء والواو والراء: أصل واحد يدل على الميل والعدول، من ذلك الزور: الكذب؛ لأنه مائل عن طريقة الحق. ويقال: زور فلان الشيء تزويرًا، إذا: هيأه؛ لأنه يعدل به عن طريقة تكون أقرب إلى قبول السامع»[1].

والزور في اللغة هو: الكذب، والباطل، وفعلهما[2]، يقال: زّور فلان الكتاب والكلام تزويرًا: إذا قواه وشدده، وسواه وحسنه؛ والكلام المزوّر أي: المحسن الذي يبدو حقيقيًا وصوابًا[3]، ثم يتكلم به؛ ومنه شهادة الزور؛ لأنه يقويها ويشددها ويحسنها ويشبهها بالشهادة الصحيحة حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه، أنها خلاف ما هو عليه[4].

والتزوير هو: التزيين والتحسين والتشبيه، وفعل الكذب والباطل، وأصل الزور: الميل والعدول، وبهذا يكون المعنى اللغوي للزور أنه الكذب والباطل، وفعلهما بكل أشكالهما وصورهما[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى الزور اصطلاحًا عن معناه اللغوي، الدال على الميل والانحراف، الذي يصحبه تحسين للباطل، وإظهاره على غير حقيقته.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٣٦.
(٢) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/ ٤٨٧.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٣٧، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٤٦٩.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧١١.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٦٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٠٦.

الزور في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زور) في القرآن الكريم (٤) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٤	﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج:٣٠]

وجاء الزور في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، الدال على الميل وانحراف، وتحسين للباطل، والذي من صوره ، الشرك، والكذب، وشهادة الزور، وغير ذلك[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٣٤.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكذب:

الكذب لغة:

نقيض الصدق[١]، قال ابن فارس: «(كذب) الكاف والذال والباء: أصل صحيح يدل على خلاف الصدق»[٢].

الكذب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع؛ سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»[٣].

الصلة بين الزور والكذب:

«أن الزور هو الكذب بعينه إلا أنه كذب محسن، مزين يخيل لمن سمعه أو رآه أنه على خلاف ما هو به»[٤].

٢ البهتان:

البهتان لغة:

مشتقٌ من بهت الرجل يبهته بهتًا وبهتانًا فهو بهّات، أي: قال عليه ما لم يفعله، فهو مبهوتٌ، والبهتان: افتراءٌ[٥].

البهتان اصطلاحًا:

هو الافتراء على الغير، وهو: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه؛ لأنه يبهت من ينقل عنه[٦].

الصلة بين الزور والبهتان:

أن الزور هو: الكذب الذي قد سوي وحسن في الظاهر؛ ليحسب أنه صدق، وهو من قولك: زورت الشيء: إذا سويته وحسنته، وأما البهتان فهو مواجهة الإنسان بما لم يحبه[٧]،

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٠٤، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٨.
(٢) مقاييس اللغة ٥/ ١٦٧.
(٣) التعريفات ص٧٤.
(٤) جامع البيان ١٩/ ٣١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٨.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٧.

أي: الكذب الذي يواجه الإنسان به صاحبه على جهة المكابرة[١].

٣ الافتراء:

الافتراء لغةً:

الفرية: الكذب. فرى كذبًا فريًا وافتراه: اختلقه. ورجلٌ فريٌّ ومفرًى وإنه لقبيح الفرية[٢].

الافتراء اصطلاحًا:

اختراع قضية لا أصل لها، أو هو: الكذب العظيم عن عمد[٣].

الصلة بين الزور والافتراء:

أنهما من أسماء الكذب، وأن كلًّا منهما يطلق على الشرك وعلى الكذب.

٤ الإفك:

الإفك لغة:

أفك إفكًا وأفوكًا: كذب، وأفك فلانًا: جعله يكذب، وحرمه مراده[٤].

الإفك اصطلاحًا:

أعظم الكذب، وكل شيء في القرآن إفك فهو كذب[٥].

الصلة بين الزور والإفك:

أن كلًّا منهما من أسماء الكذب وأشده وأعظمه، إلا أن الإفك هو أشد الزور وأكذبه.

---

(١) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٤٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٥٤.
(٣) انظر: مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٧، الكليات، الكفوي ص ١٥٤، دستور العلماء، القاضي الأحمد نكري ١/ ٩٩.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٣١.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٣.

مجالات الزور

إن مجالات الزور من خلال القرآن الكريم تكون في الأقوال والأفعال، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الزور في الأقوال:

يمكن تصنيف الأقوال التي وصفها الله تعالى بأنها من قول الزور في النقاط الآتية:

١ . أقوال الشرك بجميع أنواعها.

إن من الزور الشرك بالله تعالى بالقول: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال الإمام الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «يعني: الشرك بالله، وكان أهل الجاهلية يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، ويريدون: الصنم»[(١)].

وكقولهم في الملائكة: قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٣].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩-٢٠]

ومنه شرك اليهود والنصارى بقولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

أي: جميع الأقوال المحرمات التي تدخل في العقيدة، إنها من قول الزور الذي هو الكذب على الله تعالى[(٢)].

٢ . التكذيب بالقرآن.

بين الله تعالى أن التكذيب بالقرآن من القول الزور الباطل، ومن وضع الأشياء في غير موضعها، ومن الكذب على الله تعالى. قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:

---

(١) انظر: التفسير الوسيط ٣/ ٢٧٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٧.

٤-٦].

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كذب افتراه، يعنون: النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

أي: فقد افتروا هم قولًا باطلًا، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون.

قال الإمام ابن كثير: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث : الأمين؛ لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] الآية، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًّا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج، ماضيًا ومستقبلًا الذي يعلم السر، أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر»[(١)].

وقال الإمام الرازي: «إن الله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم وبأنه زور، أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه وذلك هو الظلم، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه، وقال أبو مسلم: الظلم: تكذيبهم الرسول والرد عليه، والزور: كذبهم عليهم»[(٢)].

ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي: فقد قالوا ظلمًا هائلًا عظيمًا وكذبًا ظاهرًا، وانتصاب (ظلمًا) بـ(جاءوا)، فإن جاء: قد يستعمل استعمال

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٨٥.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٣٣.

أتى، ويعدى تعديته، وقال الزجاج: إنه منصوب بنزع الخافض، والأصل: جاءوا بظلم. وقيل: هو منتصب على الحال، وإنما كان ذلك منهم ظلما؛ لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهذا هو الظلم، وأما كون ذلك منهم زورا فظاهر؛ لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة[1].

أي: فقد وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وكذبوا على ربهم؛ إذ جعلوا القرآن -الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- إفكًا مفترى من قبل البشر، وكيف يتقولون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذوو اللسن والفصاحة والغاية في البلاغة، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك في مكنتهم ما ادخروا وسعًا في معارضته، وقد ركبوا الصعب والذلول؛ ليدحضوا حجته، ويبطلوا دعوته، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا هم بغيرهم، فما مثله في اللغة إلا مثلهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤-٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٧-٨][2].

٣. تحريم ما أحل الله.

كما أن من الزور بالقول تحريم ما أحل الله تعالى، وقيل أيضًا: شهادة الزور. وهذا كله جائز.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٢، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٤٧٧.

(٢) تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

والآية تدل على أنهم نهوا أن يحرموا ما حرم أصحاب الأوثان نحو قولهم: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، ونحو: نحرهم البحيرة والسائبة، فأعلمهم الله أن الأنعام محللة إلا ما حرم الله منها، ونهاهم الله عن قول الزور أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام؛ ليفتروا على الله كذبًا[١].

وقد وصف الله تعالى هذا القول الزور بأنه افتراء وكذب على الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦][٢].

٤ . جميع الأقوال المحرمة.

كما أن من الزور بالقول: الكذب وشهادة الزور، وجميع الأقوال المحرمة، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور[٣].

والآية تدل على أن الله نهى عن الكذب وقول الزور، وشهادة الزور، والنفاق، وكل قول محرم؛ لأنه باطل، وهذا ما قال به أكثر المفسرين[٤].

٥ . الظهار من الزوجة من القول الزور.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور: هو الكذب، وإنما جعله كذبًا؛ لأن المظاهر يصيّر امرأته كأمّه، وهي لا تصير كذلك أبدًا؛ لأن قوله: أنت علي كظهر أمي، إما أن يجعله إخبارًا أو إنشاء، وعلى التقدير الأول أنه كذب؛ لأن الزوجة محللة والأم محرمة، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب، وإن جعلناه إنشاء كان ذلك أيضًا كذبًا؛ لأن كونه إنشاء معناه: أن الشرع جعله سببًا في حصول الحرمة، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه، كان جعله إنشاء في وقوع هذا الحكم يكون كذبًا وزورًا، وقال بعضهم: إنه تعالى إنما وصفه بكونه: منكرًا

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٢.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٧.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٧٠.

من القول وزورًا؛ لأن الأم محرمة تحريمًا مؤبدًا، والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريمًا مؤبدًا، فلا جرم كان ذلك منكرًا من القول وزورًا، وهذا الوجه ضعيف؛ لأن تشبيه الشيء بالشيء لا يقتضي وقوع المشابهة بينهما من كل الوجوه، فلا يلزم من تشبيه الزوجة بالأم في الحرمة تشبيهها بها في كون الحرمة مؤبدة، لأن مسمى الحرمة أعم من الحرمة المؤبدة والمؤقتة[1].

وهذا تشبيه باطل؛ لتباين الحالين إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هن الوالدات وغيرهن ملحقات بهن؛ لدخولهن في حكمهن، فالمرضعات أمهات[2].

ثم زاد الأمر إيضاحًا وبالغ في الاستهجان؛ توبيخًا لهم على صنيعهم فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإنهم ليقولون قولًا منكرًا لا يجيزه شرع، ولا يرضى به عقل، ولا يوافق عليه ذو طبع سليم، فكيف تشبه من يسكن إليها وتسكن إليه وجعل الله بينه وبينها مودة ورحمة، وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم؟ إلا أن الرجل قوام على المرأة له حق تأديبها إذا اعوجت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت ولم يعط ذلك لابن ليعامل به أمه، فهذا زور وبهتان عظيم[3].

وأما حكم الظهار فإنه معصية ومحرم لا يجوز إيقاعه؛ لقوله بعده: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ٤].

فإيقاع الظهار معصية، وبكونه معصية فسر ابن عطية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ بالحرام، وبذلك أيضًا فسر القرطبي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وقال ابن الفرس: ((هو حرام لا يحل إيقاعه. ودل على تحريمه ثلاثة أشياء:

أحدها: تكذيب الله تعالى من فعل ذلك.

الثاني: أنه سماه منكرًا وزورًا، والزور الكذب، وهو محرم بإجماع.

الثالث: إخباره تعالى عنه بأنه يعفو عنه ويغفر، ولا يعفي ويغفر إلا على المذنبين)).

وأقوال فقهاء الحنفية تدل على أن الظهار معصية، ولم يصفه أحد من المالكية ولا الحنفية بأنه كبيرة، ولا حجة في وصفه في الآية بزور؛ لأن الكذب لا يكون كبيرة إلا إذا أفضى إلى مضرة[4].

وكعادة القرآن الكريم في قرن الترهيب

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٨١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٢٨، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٨٩، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٠، تفسير المراغي ٢٨/ ٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٣.

بالترغيب، حتى لا تيأس النفوس من رحمة الله، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله تعالى.

فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: وإن الله تعالى لكثير العفو والمغفرة، لمن تاب إليه سبحانه وأناب وأقلع عن تلك الأقوال والأفعال التي يبغضها سبحانه[1].

ثانيًا: الزور في الأفعال:

وصف سبحانه عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

أي: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين، قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب ولا كذب فوق (الشرك) بالله، قال الواحدي: ((أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا: بمعنى الشرك، والحاصل: أن يشهدون إن كان من الشهادة، ففي الكلام مضاف محذوف، أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان من الشهود والحضور -كما ذهب إليه الجمهور- فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية: لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب. وروي عن مجاهد أيضًا، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد: الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنًا ما كان، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو: كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو: المعاصي كلها))[2].

قال ابن جرير: «فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئًا من الباطل لا شركًا، ولا غناء، ولا كذبًا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل»[3].

فمعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الباطل في أي لون من ألوانه قولًا أو فعلًا أو إقرارًا، وكل ما خالف الحق.

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٢٨، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٨٩، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٤٧.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٣.

(٣) جامع البيان ١٩/ ٣١٤.

[الأنعام: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠][١].

أي: لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه. والزور: كل باطل زوّر وزخرف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس، وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين. وعن عكرمة: اللعب[٢].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه -وإن كان لا إثم فيه- فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربئوا بأنفسهم عنه[٣].

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل، وقال محمد ابن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية وطاووس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هي أعياد المشركين.. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا، وقال مالك عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)[٤].

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٧٧، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٧٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٧.

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم ٦٧٠٨، ٦/ ٢٥٧، والحاكم في المستدرك رقم ٧٧٧٩، ٤/ ٣٢٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٥٠٦، ٢/ ١١٠٩.

أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾[1].

المعنى: على الاحتمال الأول: والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم في كل مجلس تتعدى فيه الحدود، أو تنتهك فيه الحرمات، أو يحكم فيه بالجور أو تعظم فيه الطواغيت، أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيى فيه معالم الوثنية، أو تطمس فيه السنة النبوية، أو يدعى فيه أحد مع الله، أو يضرع إلى سواه.

وعلى الاحتمال الثاني: والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون إلاّ بالحق الواقع. ترجيع وترجيح:

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور؛ لوجهين:

الأول: لأنهم إذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالأحرى أنهم لا يقولونه.

والثاني: أن مشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها؛ فيكون الوجه الأول أولى؛ لأنه أشمل.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم، ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوه سفها منافيا لمكارم الأخلاق.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره، ولا سماعه، ولكن يحصل ذلك بغير قصد، فيكرمون أنفسهم عنه[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٨.

(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٦٦.

التحذير من الزور

هناك أساليب ذكرها القرآن الكريم في التحذير من الزور، وهي الأمر بالاجتناب، والتشنيع بأهله، والثناء على تاركيه، ويمكن بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بالاجتناب:

إن من الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم في التحذير من الزور بكل صوره وأشكاله الأمر بالاجتناب، عما هو أقصى المحرمات قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

فقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور لما فيها من ادعاء الاستحقاق، كأنه تعالى لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما، والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك، ولم يعطف قول الزور على الرجس، بل أعاد العامل؛ لمزيد الاعتناء، والمراد من الزور: مطلق الكذب، وهو من الزور بمعنى: الانحراف، فإن الكذب منحرف عن الواقع، والإضافة بيانية.

وقيل: هو أمر باجتناب شهادة الزور؛ لما أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن ابن مسعود: أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح، فلما انصرف قائمًا قال: (عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى) ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية[(١)(٢)].

والزور: الباطل والكذب. وسمي زورًا؛ لأنه أميل عن الحق، ومنه: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧].

ومدينة زوراء، أي: مائلة، وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور، وهذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور، وينبغي للحاكم إذا عثر على الشاهد بالزور أن يعزره وينادي عليه؛ ليعرف؛ لئلا يغتر بشهادته أحد، ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرز فيها لم تقبل؛ لأنه لا سبيل إلى علم حاله في التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه، وإن كان دون ذلك فشمر في العبادة وزادت حاله في التقى قبلت شهادته.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، ٣/ ٣٠٥، رقم ٣٥٩٩، والترمذي في سننه، أبواب الشهادات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شهادة الزور، ٤/ ٥٤٧، رقم ٢٢٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، ٢/ ٧٩٤، رقم ٢٣٧٢.
ضعفه ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٤٦٠، والألباني في الجامع الصغير وزيادته، رقم ٦٣٨٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥٥.

وفي الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وكان متكئًا فجلس فقال:(ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور) فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت)[1].

وجمع بين الشرك وقول الزور أي: الكذب والبهتان أو شهادة الزور، وهو من الزور، وهو الانحراف؛ لأن الشرك من باب الزور؛ إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة[2].

قال محمد رشيد رضا: «إنه جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب وهو أبلغ من الترك؛ لأنه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك بأن يكون التارك في جانب بعيد عن جانب المتروك -كما تقدم-، ولذلك نرى القرآن لم يعبر بالاجتناب إلا عن ترك الشرك والطاغوت الذي يشمل الشرك والأوثان وسائر مصادر الطغيان، وترك الكبائر عامة، وقول الزور الذي هو من أكبرها، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[النجم: ٣٢]»[3].

قال الشنقيطي: «وفي هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب عبادة الأوثان، ويدخل في حكمها، ومعناها عبادة كل معبود من دون الله كائنًا من كان، وهذا الأمر باجتناب عبادة غير الله المذكور هنا، جاء مبينًا في آيات كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

وبين تعالى أن ذلك شرط في صحة إيمانه بالله في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأثنى الله على مجتنبي عبادة الطاغوت المنيبين لله، وبين أن لهم البشرى، وهي ما يسرهم عند ربهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾[الزمر: ١٧].

وقد سأل إبراهيم ربه أن يرزقه اجتناب عبادة الطاغوت، في قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم ٥٩٧٦، ٨/ ٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٣٩.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥٤.

﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والأصنام تدخل في الطاغوت دخولًا أوليًّا»[1].

وقال في موضع آخر: «وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال: واجتنبوا قول الزور بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور، وقال في الذين يظاهرون من نسائهم، ويقول الواحد منهم لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

فصرح بأن قولهم ذلك منكر وزور، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قلنا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الإشراك بالله وعقوق الوالدين) وكان متكئًا فجلس فقال: (ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[2].

وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضًا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ لأن قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قول الزور، وقد أتى مقرونًا بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وذلك يدل على عظمة قول الزور؛ لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله، وكتكذيبه صلى الله عليه وسلم فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله، نعوذ بالله من كل سوء»[3].

وعموم الأمر باجتناب قول الزور وجيهة، حتى ولو صحّ أن الجملة من الوجهة الزمنية ومقام ورودها قد عنت تلك الصيغة، ويوجب على المسلم أن يتجنب الزور وقول الزور وشهادة الزور في كل ظرف ومكان؛

(١) انظر: أضواء البيان ٥/ ٢٥٥.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٦.

لما في ذلك من عظيم البغي والضرر والشرّ، حتى استحقّ وصف الرسول الأعظم له بأنه من أكبر الكبائر وبأنه يعدل الشرك[1].

والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أبلغ من التعبير بلفظ حرم؛ لأنه يفيد التحريم وزيادة، وهو التنفير والابتعاد عنه بالكلية[2].

كما تفيد الآية وجوب التباعد عن قول الزور كما يجب أن يتباعد عن الشرك[3].

ثانيًا: التشنيع بأهله:

شنع الله تعالى على القائل بالزور بأن رفع الذكر بالقبيح الذي قالوه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

أي: إن الله تعالى شنع على هؤلاء العصاة الذين لم يستجيبوا لدعوة النبي إلى الإسلام، وإنما افتروا على الله الكذب بوصف المعجزات بأنها سحر، ثم ذكر غرضهم من الافتراء، وهو محاولة إبطال دين الله وإطفاء نوره وشرعه، والحال أن الله متم نوره، ومظهر دينه على الأديان كلها[4].

كما شنع سبحانه على المظاهرين من نسائهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

فقد وصف الله تعالى قولهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ،أي: وإن هؤلاء المظاهرين ليقولون بهذا قولًا منكرًا، أي :فظيعًا ينكره الشرع ويقبحه ولا يجيزه، كما لا يقره عقل، ﴿وَزُورًا﴾، أي: كذبًا، وإن الله كثير العفو والمغفرة؛ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا المنكر، كما أن الله غفور لمن أذنب وتاب، وغفور من غير توبة لمن يشاء، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

يتبين منه أن الله وصف الظهار بأنه منكر وزور؛ لتشبيه الزوجة بالأم، فهو خبر زور كذب، وإنشاء منكر ينكره الشرع ولا يعرفه، وهو يدل على أن الظهار محرم، وهو أيضًا عند الشافعية معصية كبيرة؛ لأن فيه الإقدام على إحالة حكم الله تعالى وتبديله بدون إذنه سبحانه، ولأن المقدم على ذلك كاذب معاند للشرع[5].

ثالثًا: الثناء على تاركيه:

أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين لا

---

(١) التفسير الحديث، محمد دروزة ٦/ ٤٦.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٣٤.
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٩٩.
(٤) انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٢/ ٢٦٤.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٣.

يشهدون الزور.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ثم بين ثوابهم فقال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

يعني: غرف الجنة كقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ يعني: صبروا على أمر الله تعالى في الدنيا، وعلى الطاعة ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا﴾ يعني: في الجنة ﴿تَحِيَّةٗ﴾ يعني: التسليم ﴿وَسَلَٰمًا﴾ يعني: سلام[(١)].

«والزور: هو الكذب والباطل، ولا يشاهدونه وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين، قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب ، ولا كذب فوق الشرك بالله، قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا: بمعنى الشرك، والحاصل أن ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ إن كان من الشهادة، ففي الكلام مضاف محذوف، أي: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ﴾ شهادة الزور وإن كان من الشهود والحضور، كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية: لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب. وروي عن مجاهد أيضًا، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنًا ما كان، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو: كل ساقط من قول أو فعل، قال الحسن: اللغو: المعاصي كلها، وقيل: المراد مروا بذوي اللغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه، أي: يتنزه ويكرم نفسه عن الدخول في اللغو والاختلاط بأهله، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بالقرآن، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ أي: لم يقعوا عليها حال كونهم صما وعميانا، ولكنهم أكبّوا عليها سامعين مبصرين، وانتفعوا بها، قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها»[(٢)].

كما جاء في الحديث الذي رواه جابر رضي الله عنه: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)[(٣)].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٤٧، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٣٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٨٩.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم ٦٧٠٨، ٦/ ٢٥٧، والحاكم في المستدرك رقم ٧٧٧٩، ٤/ ٣٢٠.

لا يحضرون من المشاهدة، والزور: الشرك والصنم أو الكذب أو آلة الغناء أو أعياد النصارى[1].

قال سيد قطب: «وبعد هذا البيان المعترض يعود إلى سمات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.. وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب، أنهم لا يؤدون شهادة زور، لما في ذلك من تضييع الحقوق، والإعانة على الظلم. وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه؛ ترفعًا منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات. وهو أبلغ وأوقع. وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ لا يشغلون أنفسهم به، ولا يلوثونها بسماعه إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته بله المشاركة فيه! فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل»[2].

أحكام متعلقة بشهادة الزور

هناك أحكام متعلقة بشهادة الزور تدل على مدى اهتمام الشريعة الإسلامية بهذه الشهادة، وهذه الأحكام يمكن ذكرها باختصار كما يأتي:

أولًا: حكم شهادة الزور:

لا خلاف بين الفقهاء بأن شهادة الزور من أكبر الكبائر، وأنها محرمة شرعًا، وقد نهى الله تعالى عنها في كتابه مع نهيه عن الأوثان، فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠][3].

ونهى عنها رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قلنا: بلى يا رسول الله، قال ثلاثا: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين) -وكان متكئًا- فقال: (ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور) فما زال يقولها حتى قلنا: ليته سكت[4].

وبما رواه خريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح فلما انصرف قام قائمًا، فقال: (عدلت شهادة الزور الإشراك بالله)،

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٥٠٦، ٢/ ١١٠٩.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٤٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٣/ ١٧١، رقم ٢٦٥٤.

ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠][(١)].

وشهادة الزور جريمة خلقية شائنة تتنافى مع النظام العمراني، وتفضي إلى الفوضى في كل نواحي الحياة، فهي شر مستطير، يجب على الناس أن ينزهوا أنفسهم عنها تنزيهًا تامًا[(٢)].

كما أن شهادة الزور شهادة باطلة لا يجوز الحكم بها؛ لأن الغاية من التزوير إبطال الحق وتفويته على صاحبه والقضاء بالحق لغير صاحبه، وذلك كله من الباطل والمحرم في الشريعة[(٣)].

ثانيًا: ثبوت شهادة الزور:

تثبت شهادة الزور بأحد ثلاثة أوجه:

أحدها: الإقرار، وذلك بأن يقر الشاهد أنه شاهد زور: فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن شهادة الزور لا تثبت إلا بالإقرار؛ لأنه لا تتمكن تهمة الكذب في إقراره على نفسه، ولا تثبت عندهم بالبينة؛ لأنها نفي لشهادته، والبينة حجة للإثبات دون النفي، وقد تعارضت البينتان، فلا يعزر في تعارض البينتين، أو ظهور فسقه أو غلطه في الشهادة؛ لأن الفسق لا يمنع الصدق، والتعارض لا يعلم به كذب إحدى البينتين بعينها، والغلط قد يعرض للصادق العدل ولا يتعمده فيعفى عنه[(٤)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣].

الثاني: تثبت من جهة الواقع، وذلك بأن يشهد بما يقطع بكذبه: كأن يشهد على رجل بفعل في الشام في وقت، ويعلم أن المشهود عليه في ذلك الوقت في الحجاز، أو يشهد بقتل رجل وهو حي، أو أن هذه البهيمة في يد هذا منذ ثلاثة أعوام، وسنها أقل من ذلك، أو يشهد على رجل أنه فعل شيئًا في وقت وقد مات قبل ذلك، أو لم يولد إلا بعده، وأشباه هذا، مما يتيقن بكذبه ويعلم تعمده لذلك، وإذا ثبت ذلك بالبينة فعليه العقوبة،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، ٣/ ٣٠٥، رقم ٣٥٩٩، والترمذي في سننه، أبواب الشهادات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شهادة الزور، ٤/ ٥٤٧، رقم ٢٢٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، ٢/ ٧٩٤، رقم ٢٣٧٢.
ضعفه ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٤٦٠، والألباني في الجامع الصغير وزيادته، رقم ٦٣٨٧.

(٢) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ٥/ ٣٩١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٦٠٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١١٢.

(٤) انظر: المبسوط، السرخسي ١٦/ ١٤٥، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، روضة الطالبين، النووي ١١/ ١٤٥، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣٣.

سواء أكان ذلك قبل الحكم أم بعده.

الثالث: أن تقوم عليه البينة أنه شاهد زور، ذهب إلى ذلك الإمام ابن فرحون من المالكية والشيرازي من الشافعية[1].

ثالثًا: عقوبة شاهد الزور:

اتفق الفقهاء على أن عقوبة شاهد الزور عقوبة تعزيرية، فمتى ثبت عند القاضي عن رجل أنه شهد بزور عمدًا عزره باتفاق الفقهاء؛ لأن الشريعة لم تقدر عقوبة محددة لشاهد الزور[2]، لكن اختلف الفقهاء في تفصيلات هذه العقوبة التعزيرية على أقوال:

القول الأول: قال الشافعية والحنابلة وبعض المالكية: «تأديب شاهد الزور مفوض إلى رأي الحاكم، إن رأى تعزيره بالجلد جلده، وإن رأى أن يحبسه، أو كشف رأسه وإهانته وتوبيخه فعل ذلك ولا يزيد في جلده على عشر جلدات»، وقال الشافعي: «لا يبلغ بالتعزير أربعين سوطًا»[3].

القول الثاني: قال الإمام أبو يوسف، ومحمد بن الحسن وبعض المالكية: «إذا ثبت عند القاضي أو الحاكم عن رجل أنه شهد بالزور، عوقب بالسجن والضرب، ويطاف به في المجالس؛ لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه ضرب شاهد زور أربعين سوطًا وسخم وجهه، والتسخيم هو: التسويد، وسخم وجهه: سوده وطلاه بالسخام، وهو سواد القدر والفحم، ويكون ذلك في التعزير عقوبة شاهد الزور»[4].

ولما روي عن عمر رضي الله عنه أيضًا أنه كتب إلى عماله بالشام: «إذا أخذتم شاهد الزور فاجلدوه بضرب أربعين سوطًا وسخموا وجهه وطوفوا به حتى يعرفه الناس ويحلق رأسه ويطال حبسه؛ لأنه أتى كبيرة من الكبائر، يتعدى ضررها إلى العباد بإتلاف أنفسهم وأعراضهم وأموالهم»[5].

قال الإمام ابن العربي: «ومن الوسم الصحيح في الوجه ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور علامة على قبح

---

(١) انظر: تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢/ ٣٠٥، المهذب في فقه الإمام الشافعي، الشيرازي ٣/ ٤٤٤.

(٢) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٩، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، نهاية المطلب، الجويني ١٨/ ٥٨٠، روضة الطالبين، النووي ١١/ ١٤٥، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣٢.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ١٥١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٥٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٨٠، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، روضة الطالبين، النووي ١١/ ١٤٥.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٨٣، تاج العروس، الزبيدي٣٢/ ٣٥٥، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي ص١٣٠.

(٥) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٩، البحر الرائق، ابن نجيم ٧/ ١٢٧، القوانين الفقهية، ابن جزي ص٢٠٣، الشرح الكبير، الدردير وحاشية الدسوقي ٤/ ١٤١.

المعصية، وتشديدًا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته. وقد كان عزيزًا بقول الحق، وقد صار مهينًا بالمعصية؛ وأعظم الإهانة إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببًا لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن الله قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، حسبما ثبت في الصحيح[1]»[2].

القول الثالث: قال أبو حنيفة: «إذا أقر الشاهد أنه شهد زورًا: يشهر به في الأسواق إن كان سوقيًا، أو بين قومه إن كان غير سوقي، وذلك بعد صلاة العصر في مكان تجمع الناس، ويقول المرسل معه: إنا وجدنا هذا شاهد زور فاحذروه، وحذروه الناس، ولا يعزر بالضرب أو الحبس؛ لأن القاضي شريح كان يشهر شاهد الزور ولا يعزره، وكانت قضاياه لا تخفى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقل أنه أنكر عليه منكر؛ ولأن المقصود هو التوصل إلى الانزجار؛ وهو يحصل بالتشهير بل ربما يكون أعظم عند الناس من الضرب، فيكتفى به، والضرب وإن كان مبالغة في الزجر لكنه يقع مانعًا عن الرجوع فوجب التخفيف في ذلك؛ نظرًا إلى هذا الوجه»[3].

والذي يظهر أن عقوبة شاهد الزور عقوبة تعزيرية مفوضة إلى رأي الحاكم، فله أن يحبسه طويلًا بحسب ما يراه الحاكم ويضربه، ولا يسخم وجهه؛ لأنه مثلة، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن المثلة[4]، ولا يركبه مقلوبًا، ولا يكلف الشاهد أن ينادي على نفسه، وفي الجملة ليس في ذلك تقدير شرعي فللحاكم أن يفعل ما يراه ما لم يخرج إلى مخالفة نص أو معنى نص[5].

ففي الآية وعيد على شهادة الزور، ولكن ليس في الآية ما يدل على تعزير شاهد الزور؛ لأنها اقتصرت على تحريم شهادة الزور. وإنما يعزر من قبيل المصلحة والسياسة الشرعية، التي للحاكم أن يسير على نهجها لحفظ الحقوق العامة، وردع أهل الفساد. وهذا رأي المالكية وأبي يوسف ومحمد[6].

رابعًا: تضمين شهود الزور:

اتفق الفقهاء على تضمين شهود الزور، إن كان المحكوم به مالًا أو حقًا لم يفت،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم ٦٥٧٣، ٨/ ١١٧.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٣٠٧.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٧٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٩.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة، ٥/ ١٢٩، رقم ٤١٩٢.

(٥) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢٤٢، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢/ ٢٩١، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣٣.

(٦) التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ٢١٢.

وكذلك إن كان إتلافًا؛ لأن القاضي متى علم أن الشهود شهدوا بالزور: تبين أن الحكم كان باطلًا، ولزم نقضه وبطلان ما حكم به، ويضمن شهود الزور ما ترتب على شهادتهم، فإن كان المحكوم به مالًا أو حقًّا رده إلى صاحبه، وإن كان إتلافًا: فعلى الشهود ضمانه؛ لأنهم سبب إتلافه[1]، واختلفوا إن كان المحكوم به حدًّا أو قصاصًا على قولين هما:

القول الأول: ذهب الشافعية والحنابلة: إلى وجوب القصاص على شهود الزور إذا شهدوا على رجل بما يوجب قتله، كأن شهدوا عليه بقتل عمد عدوان أو بردة أو بزنى وهو محصن، فقتل الرجل بشهادتهما، ثم رجعا وأقرا بتعمد قتله، وقالا: تعمدنا الشهادة عليه بالزور؛ ليقتل أو يقطع: فيجب القصاص عليهما؛ لتعمد القتل بتزوير الشهادة، لما روى الشعبي: «أن رجلين شهدا عند علي رضي الله عنه على رجل بالسرقة فقطعه ثم عادا فقالا: أخطأنا، ليس هذا هو السارق، فقال علي: لو علمت أنكما تعمدتما لقطعتكما»، ولا مخالف له في ذلك من الصحابة فيكون إجماعًا، وإنهما تسببا إلى قتله أو قطعه بما يفضي إليه غالبًا فلزمهما كالمكره[2].

وكذلك الحكم إذا شهدوا زورًا بما يوجب القطع قصاصًا، فقطع أو في سرقة لزمهما القطع وإذا سرى أثر القطع إلى النفس فعليهما القصاص في النفس[3].

القول الثاني: ذهب الحنفية والمالكية: إلى أن الواجب هو الدية لا القصاص؛ لأن القتل بشهادة الزور قتل بالسبب، والقتل تسببًا لا يساوي القتل مباشرة، ولذا قصر أثره، فوجبت به الدية لا القصاص عندهم[4].

خامسًا: توبة شاهد الزور:

اختلف الفقهاء في قبول شهادة شاهد الزور بعد توبته على أقوال:

القول الأول: ذهب الحنفية إلى أنه إذا تاب شاهد الزور، وأتت على ذلك مدة، قيل: سنة، وقيل: ستة أشهر، والصحيح أنها مفوضة لرأي القاضي.

فإن كان فاسقًا تقبل شهادته؛ لأن الحامل له على الزور فسقه، وقد زال بالتوبة، وإن

(1) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢٤٥، حاشية ابن عابدين رد المحتار على الدر المختار ٥/ ٥٠٤، البيان والتحصيل، ابن رشد ١٠/ ٧، القوانين الفقهية، ابن جزي ص٢٠٦، تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي ١٠/ ٢٨١، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٦٠٧.

(2) انظر: نهاية المطلب، الجويني ١٦/ ١٦٩، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ٨٦.

(3) انظر: روضة الطالبين، النووي١١/ ٩٩ كشاف القناع، البهوتي ٦/ ٤٤٣.

(4) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٥، البحر الرائق، ابن نجيم ٧/ ١٢٨

كان مستورًا لا يقبل أصلًا، وكذا إذا كان عدلًا، على رواية بشر عن أبي يوسف، لأن الحامل له على ذلك غير معلوم، فكان الحال قبل التوبة وبعدها سواء، وروى أبو جعفر أنها تقبل، قالوا: وعليه الفتوى.

القول الثاني: ذهب الشافعي وأحمد: تقبل شهادته إذا أتت على ذلك مدة تظهر فيها توبته، ويتبين فيها صدقه، وعدالته.

القول الثالث: قال مالك: «لا تقبل شهادته أبدًا؛ لأنه لا يؤمن على قول الصدق»[1].

سادسًا: حكم التزوير في الوثائق:

الأصل في التزوير أنه محرم شرعًا بكل صوره ومعانيه، سواء أكان في الشهادة؛ لإبطال حق أو إثبات باطل، أو في المستندات والوثائق التقليدية أو الإلكترونية، والدليل على حرمته:

من الكتاب قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: **(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (الإشراك بالله وعقوق الوالدين)، وجلس وكان متكئًا، ثم قال: (ألا وقول الزور). فما يزال يكررها حتى قلنا: ليته سكت**[2][3].

ولأن التزوير أساسه الكذب، والكذب محرم في الإسلام، والتزوير في مدلوله يعني: تغيير الحقيقة أيًّا كانت وسيلته، بالقول أم بالكتابة، فهو في جوهره كذب وفي مرماه اغتيال لعقيدة الغير؛ لأنه تحريف مفتعل للحقيقة في الواقع والبيانات التي يراد إثباتها بصكّ أو مخطوط يحتج بها، قد ينجم عنها ضرر مادي أو معنوي أو اجتماعي[4].

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٢١، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٠١، البيان والتحصيل، ابن رشد ١٠/ ٢٢٤، تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي ١٠/ ٢٤١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٣/ ١٧١، رقم ٢٦٥٤.

(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣١.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ٢٠٣.

أثر انتشار الزور على الفرد والمجتمع

إن لانتشار الزور بمفهومه العام آثارًا على الفرد والمجتمع، وهذه الآثار يمكن بيانها من خلال المحاور الرئيسة لمعنى الزور بمفهومه العام:

أولًا: انتشار الزور الذي بمعنى الشرك:

إن انتشار الزور الذي هو بمعنى الشرك بالله تعالى بكل صوره وأشكاله يؤدي إلى انتهاك حرمات الله تعالى، وأن ذلك يجعل الفرد مضطرب الفكر والعقل والجسم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

والمعنى: أي: اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان، وقول الشرك، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصًا دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئًا من دونه، فإنه من يشرك بالله شيئًا من دونه، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خرّ من السماء فخطفته الطير فهلك، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني: من بعيد[(١)].

فقد ضرب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور في الهواء ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه[(٢)].

أي: إن المشرك يعيش في اضطراب عقدي ونفسي وجسمي، وهذا أثر بارز لانتشار الزور قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ثانيًا: آثار انتشار الزور الذي بمعنى الكذب والافتراء على الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

والآية تدل على أن عدم الهداية للخير والصواب والدين الحق من ثمار انتشار

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٢٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٩.

الزور، أي: إن الله لا يوفق للحق من هو متعد إلى فعل ما ليس له فعله، كذاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحق، وقد اختلف أهل التأويل في معنى الإسراف الذي ذكره المؤمن في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الشرك، وأراد: إن الله لا يهدي من هو مشرك به مفتر عليه[1].

والكذب هو: مخالفة القول للواقع، وهو من أبشع العيوب والجرائم، ومصدر الآثام والشرور، وداعية الفضيحة والسقوط، لذلك حرمته الشريعة الإسلامية، ونعت على المتصفين به، وتوعّدتهم في الكتاب والسنة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

والمعنى: إن الذين لا يؤمنون بحجج الله وأدلته، فيصدقون بما دلت عليه ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل: ١٠٤].

أي: لا يوفقهم الله لإصابة الحق، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة وعند الله إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع[2].

والكذب باعث على سوء السمعة، وسقوط الكرامة، وانعدام الوثاقة، فلا يصدق الكذاب وإن نطق بالصدق، ولا تقبل شهادته، ولا يوثق بمواعيده وعهوده، ويضعف ثقة الناس بعضهم ببعض، ويشيع فيهم أحاسيس التوجس والتناكر.

والكذب هو الذي يؤثر سلبا في بنية المجتمع الأخلاقية والإنسانية، ويؤدي إلى تفكك أواصر العلاقات السليمة، ويلحق الأضرار الجسيمة والبالغة بالأفراد والمجتمع على حد سواء؛ منها ما يسبب إراقة وهدر الدماء ،وإزهاق النفوس، وهتك الأعراض ،وغمط الحقوق، وتدنيس الشرف، وانتهاك الحرمات، وأكل المال العام والخاص دون مبالاة أو اكتراث أو شعور بالمسئولية ،أو وخز الضمير بعد موته بالذنوب والآثام ،وأعظمها خطرًا الخلل والميلان بالميزان الاجتماعي واستقراره على قواعده الصحيحة.

ثالثًا: الزور الذي هو بمعنى شهادة الزور:

إن شهادة الزور جريمة خطيرة، وظلم سافر هدّام، تبعث على غمط الحقوق، واستلاب الأموال، وإشاعة الفوضى في المجتمع، بمساندة المجرمين على جرائم التدليس والابتزاز.

إن مقترف شهادة الزور، يسيء إلى نفسه إساءة كبرى بتعريضها إلى سخط اللّه تعالى،

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣١٣.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٣٠٢.

وعقوباته التي صورتها النصوص السالفة، ويسيء كذلك إلى من سانده ومالأه، بالحلف كذبًا، وبالشهادة زورًا، حيث شجّعه على بخس حقوق الناس، وابتزاز أموالهم، وهدر كراماتهم.

ويسيء كذلك إلى من اختلق عليه الشهادة المزورة، بخذلانه وإضاعة حقوقه، وإسقاط معنوياته، ويسيء إلى المجتمع عامة بإشاعة الفوضى والفساد فيه، وتحطيم قيمه الدينية والأخلاقية.

ويسيء إلى الشريعة الاسلامية بتحدّيها، ومخالفة دستورها المقدس، الذي يجب اتباعه وتطبيقه على كل مسلم، وأضرار شهادة الزور على الفرد والمجتمع يمكن تلخيصها فيما يأتي:

«**أولًا**: إن شهادة الزور من أكبر الكبائر وأعظم المصائب، حيث إن شاهد الزور يقف أمام القاضي بدون خجل ولا حياء، ويتهم بريئًا لم يقترف ذنبًا؛ لتوقع به العقوبة إثر شهادات مزيفة وأقوال مزورة. وهذا عمل يغضب الرب ويستحق صاحبه أن يعجل الله له العقوبة، فضلًا عن كونه عملًا منقصًا لإيمان عامله.

ثانيًا: إن شهادة الزور تتسبب في ضياع حقوق الناس زورًا وكذبًا، فالشاهد للزور أضاع حق المشهود عليه، وأثبت للمشهود له حقًا ليس له بسبب شهادته الكاذبة.

ثالثًا: ما ينشأ عن شهادة الزور وقوله من فقدان العدالة؛ إذ سيترتب على ذلك ضياع الحقوق، وهنا ستطمس معالم العدالة، فكيف تكون هناك عدالة والحقوق مضيعة ومعطاة لغير أهلها.

رابعًا: قلب الحياة بشهادة الزور إلى شقاء وبلاء؛ إذ لا سعادة وهناء في مجتمع تضاع فيه الحقوق وينصر الظالم ويخذل المظلوم.

خامسًا: ما يترتب على شهادة الزور أو قوله أو فعله من جرائم لا تطاق ومظالم لا تحتمل كالقتل، والقطع، والجلد، وأخذ المال بالباطل.

سادسًا: تضليل القضاة والحكام والمسئولين، فيحكمون بخلاف الحق بسبب الشهادة الباطلة أو التزوير المكذوب.

سابعًا: ولو لم يكن في شهادة الزور إلا ما فيها من قلب للحقائق والموازين لكفى.

والتزوير والزور ليس مقصورًا على شهادة يدلي بها شاهد أمام قاض ونحوه فقط، بل هي أشمل وأعم؛ إذ يدخل فيها كل ما حمل معناها، فالتزوير في الأوراق والمعاملات الرسمية محرم، وهو من أعظم المصائب. وذلك كتزوير الأختام الرسمية لإحدى المصالح الحكومية أو المؤسسات أو الأفراد ،وكالتزوير الذي يرتكبه موظف أو غيره في المحاضر أو الوثائق أو السجلات

أو السندات أو الأوراق الرسمية، سواء ، أكان ذلك بوضع توقيعات وأختام مزورة أو بتغيير المحررات أو الأختام أو التوقيعات أو بزيادة كلمات أو بوضع أسماء أشخاص آخرين كل هذه الأمور من المعاصي المحرمة شرعًا»[1].

كما أن في شهادة الزور تعاونًا على الإثم والعدوان؛ لأنه تعاون على الباطل، والباطل في معاني الزور كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

ومن ذلك الإعانة على إقامة المنكر وما هو باطل أو التهيئة له، ومنه تكثير سواد أهل الباطل، فقد مدح الله عباد الرحمن فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

فالمفروض أن المؤمن يعرف خطورة إثم الزور قولًا وفعلًا وشهادةً، وضرر إشاعة الفاحشة بين المسلمين، ويعرف أن مصلحة المجتمع الإسلامي هي مصلحته، فلا يقدم على شهادة من هذا النوع في حق أخيه المسلم إلّا إذا كان على يقين منها، بحيث يعتقد أنه مؤاخذ عند الله إذا كتمها، في حين أن هذا لا يكون مؤكدًا من غير المسلم في حق المسلم[2].

موضوعات ذات صلة:

الافتراء، الشهادة، الصدق، الكذب، الميسر

(١) انظر: مقال: التزوير مضاره وآثاره السيئة، د.عقيل بن عبدالرحمن العقيل، منشور في: جريدة الرياض الإلكترونية العدد ١٣٨٣٦ بتاريخ الجمعة ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ-١٢ مايو ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٨/ ٥٣.





الزينة

عناصر الموضوع

مفهوم الزينة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الزاء والياء والنون: أصل صحيح يدل على حسن الشيء وتحسينه»[(١)]، و«الزينة بالكسر: ما يتزين به»[(٢)]، وفي التهذيب: «اسمٌ جامع لكل شيء يتزين به»[(٣)]، و«الزّين: خلاف الشّين، وجمعه أزيانٌ»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أما في الاصطلاح فقال ابن الجوزي: «الزّينة: ما يحصل به التحسين للشّيء حتّى تتوق النّفس إليه بالشهوة»[(٥)].

ويقال: «الزينة: تحسين الشيء بغيره؛ من لبسة أو حلية أو هيئة»[(٦)].

ويقول ابن عاشور: «الزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرًّا له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم، وذلك في طباع النساء أشد»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة. ابن فارس ٣/ ٤١.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ١٣٩.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١٧٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٠١.
(٥) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٣٩.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٨٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٢.

الزينة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زين) في القرآن الكريم (٤٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٦	﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت:١٢]
الفعل المضارع	١	﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩]
اسم المصدر	١٩	﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]

وجاءت الزينة في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: ما يتزيّن به، ويشمل الملابس والحلي وغيرها: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

الثاني: التحسين والتجميل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٣٥-٣٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم ص٦٠٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٥١-٢٥٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٣٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٥٥-١٦٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ١٥٨-١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الريش:

الريش لغة:

كسوة الطائر الواحدة ريشة واللباس الفاخر والحالة الجميلة، والجمع أرياش ورياش.

الريش والرياش: ما ظهر من اللباس[١].

الريش اصطلاحًا:

قال ابن عاشور: «والريش: لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطير لأنه زينته، ويقال للباس الزينة رياش»[٢].

العلاقة بين الريش والزينة:

الريش جزء من الزينة التي يتزين بها، فالزينة: اسمٌ جامع لكل شيء يتزين به.

٢ الزخرف:

الزخرف لغة:

الزينة، فكل زينة زخرف، يقال: زخرف البيت زخرفة، أي: زينه وأكمله. وكل ما زين، فقد زخرف[٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

قال الزجاج: «الزخرف: الزينة، والمعنى أن بعضهم يزيّن لبعضٍ الأعمال القبيحة»[٤].

الزخرف اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، الذي هو الزينة وكمال حسن الشيء[٥].

العلاقة بين الزخرف والزينة:

زخرف هو حالة اكتمال الزينة وتمامها، وأما الزينة فهي أعم من ذلك.

---

(١) انظر: لسان العرب ٦/ ٣٠٨- ٣٠٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨-ب/ ٧٥.
(٣) انظر: لسان العرب ٩/ ١٣٢.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٨٤ بتصرف.
(٥) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٩١.



أنواع الزينة

«من بديع حكمة الله في خلقه:أنه ألبس مطالب الحياة أثواب مطالب الشهوات، لتكون هذه الشهوات بمثابة المحرّض الذاتي على تناول حاجات الجسد، التي تمدّه بالبقاء إلى أمده المقدّر له، أو على ممارسة الغرائز التي تمد النوع بالتكاثر والبقاء، إلى الأمد المقدّر لبقاء النوع، أو لبقاء الحياة على هذه الأرض، أو على السعي لتحقيق حاجاتٍ نفسيّة ترتبط بها مصلحةٌ من المصالح الإنسانية الفردية أو الجماعية.

ولقد أبدع القرآن أيما إبداع؛ إذ اختار لفظة «الزينة» للتعبير عن الخصائص التي أودعها الله في الأشياء، ليكون فيها ملاءمة وجذب للغرائز والطبائع التي فطر الله الأنفس عليها، وتلك نعمةٌ كريمة من نعم الله في الحياة، ولو أن حاجات الحياة مرتبطة بأشياء لا زينة فيها، فلا ملاءمة بينها وبين شهوات الأنفس وغرائزها وطبائعها؛ لكان السعي لاستمرار الحياة مشكلةٌ قد تستعصي على الحل!»[1].

سنحاول في النقاط الآتية التأمل في أنواع الزينة في القرآن الكريم بشيء من التفصيل بعون الله تعالى.

(١) أجنحة المكر الثلاثة، عبدالرحمن حبنكة ص ٥٠٥.

أولًا: زينة الكون:

إن الله سبحانه هو أحسن الخالقين، خلق هذا الكون فأبدع خلقه، وزينه وأتقن صنعه، وجعله كالبيت الواحد؛ فالسماء سقفه المحفوظ، والأرض فرشه الممهود، والجبال جدرانه الراسيات، وخلق فيه كل ما تحتاجه المخلوقات في ذلك البيت: من الماء والنبات وأنواع المشروبات والمطعومات، والأعظم من هذا والأجل: أن الله سبحانه خلق كل ذلك في أحسن صورة، وأجمل منظر، وأبدع شكل، فيه من الزخرف والزينة ما عجزت فصاحة البشر أن تفصح عنه، وبلاغتهم أن تبلغ وصفه!

قال الله سبحانه ممتنًا على عباده: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً﴾ [الكهف:٧].

« قال الزمخشري في معنى هذه الآية الكريمة: «ما عليها » يعني ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها، من زخارف الدنيا وما يستحسن منها»[2].

وقال بعض العلماء: كل ما على الأرض زينة لها من غير تخصيص، وعلى هذا القول فكل الحيات وغيرها مما يؤذي زينة للأرض؛ لأنه يدل على وجود خالقه، واتصافه بصفات الكمال والجلال، ووجود ما يحصل به هذا العلم في شيء زينة له.

فمن أنواع البيان المذكورة في القرآن

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٠٤.

الكريم: أن يذكر لفظ عام ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج:٣٢].

مع تصريحه بأن البدن داخلة في هذا العموم بقوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٦]الآية.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً﴾ قد صرح في مواضع أخر ببعض الأفراد الداخلة فيه، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

إلى غير ذلك من الآيات»[1].

وطوّف الله تعالى بنا في آيات بديعات لنتأمل زينة هذا الكون، وبديع إتقان الله له، فقال في معرض ردّه على المكذبين بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:٦-١١].

«إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه، أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب! إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا، مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال، ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج»[2].

وعن بديع لون السماء يقول الرازي رحمه الله: «تفكّر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير؛ فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له، حتى أن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملونًا بهذا اللون الأزرق، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها، فهو سبحانه وتعالى جعل لونها أنفع الألوان، وهو المستنير ، وشكلها أفضل الأشكال، وهو المستدير»[3].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٠٣ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٥٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٤٠.

ثم قال الحق تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ «وكذلك الأرض صفحةٌ من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس، الجميل البهيج، فالامتداد في الأرض، والرواسي الثابتات، والبهجة في النبات؛ تمثّل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال، التي وجّه النظر إليها في السماء.

وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة، والأرض الممدودة الراسية البهيجة؛ يلمس قلوب أولئك المكذبين، ويوجهها إلى جانبٍ من حكمة الخلق، ومن عرض صفحات الكون: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ تبصرة تكشف الحجب، وتنير البصيرة، وتفتح القلوب، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب.. تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب، يرجع إلى ربه من قريب...

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح، الذي يقرأ بكل لغة، ويدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زادًا من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق»[1].

إن إخبار الله تعالى بمنته على خلقه بهذا الكون المزيّن البديع «يجمع الامتنان على الناس والتذكير ببديع صنع الله؛ إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف، والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل:٦].

وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران:١٤].

ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثةٌ فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها، وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان، واستمرارها باستمرار أنواعها، وإن كان الزوال يعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاصٌ أخرى من نوعها، فيتضمن هذا امتنانًا ببث الحياة في الموجودات الأرضية.

ومن لوازم هذه الزينة: أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها، وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موفٍ بحق الشكر، ومقصّر فيه، وجاحدٍ كافرٍ بنعمة هذا المنعم؛ ناسبٍ إياها إلى غير موجدها!

ومن لوازمها أيضًا: أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها، فتستثار من ذلك مختلف الكيفيات في تناولها، وتعارض الشهوات في الاستيثار بها، مما يفضي إلى تغالب الناس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٥٩.

بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، وذلك الذي أوجد حاجتهم إلى الشرائع لتضبط لهم أحوال معاملاتهم، ولذلك علل جعل ما على الأرض زينة بقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]»[1]، «وتحقيق معنى كونها ابتلاء: أن الله تعالى يختبر بها:

- طالبها ما يقصد منها؟
- وواجدها أيشكر المنعم عليه بها إذا استعملها، ويقف عند الحد المشروع فيها، وماذا يقصد وينوي بترك ما يتركه منها؟
- وفاقدها أيصبر على فقدها، أم يكون ساخطًا على ربه، وحاسدًا لأهلها؟»[2].

ولو أردنا استقصاء كلّ زينةٍ لله سبحانه وتعالى في هذا الكون لتطلب منا ذلك كتبًا مستقلة! وهي موجودة ولله الحمد لمن أراد مزيد علم في هذا الباب، لكنا اقتصرنا هنا على ما يناسب هذا البحث؛ فذكرنا أمثلة تدل على ما وراءها.

ثانيًا: زينة بني آدم:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

وامتن عليه سبحانه فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

فـ«جعلهم أحسن الحيوان كلّه وأبهاه، بدليل: أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبًا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

فإن قلت: فكم من دميم مشوّه الصورة!

قلت: الحسن كغيره من المعاني؛ على طبقات ومراتب، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطًا بيّنًا وإضافتها إلى الموفى عليها؛ لا تستملح، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه، ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها، ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها، فينبو -ينصرف- عن الأولى طرفك، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها، وتهالكك عليها! وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال، والبيان»[3].

«وإن شئت فتأمل عضوًا واحدًا من أعضاء الإنسان، وهو العين:

فخلق الحدقة سوداء، ثم أحاط بذلك السواد بياض العين، ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار، ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان، ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين، ثم خلق فوق ذلك السواد بياض

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٢٥٧.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٢٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٤٦-٥٤٧ بتصرف يسير.

الجبهة، ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر! وليكن هذا المثال الواحد أنموذجًا لك في هذا الباب»[١].

ثم كمّل الله هذا الإنسان بزينة خارجة عن ذاته، ويهمّنا هنا أن ندرس ما ذكره القرآن الكريم من تلك الزينة، وعند البحث في القرآن ، نجد أنه ذكر أنواعًا من الزينة لبني آدم، منها:

١ . زينة اللباس.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف:٢٦] «فالزينة (الإنسانية) هي زينة الستر، بينما الزينة (الحيوانية) هي زينة العري، ولكن (الآدميين) في هذا الزمان يرتدّون إلى رجعية جاهلية! تردهم إلى عالم البهيمة، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!»[٢].

قال عبد الرحمن بن أسلم: «يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى»[٣].

فجمعت هذه الآية بين الزينتين: الحسية ﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾، والمعنوية: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، «فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه...والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم! وفي تمكينهم منه بما يسّر لهم من الوسائل: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾»[٤].

«والمراد بإنزال ما ذكر: أن الله تعالى خلق لبني آدم مادّته من القطن والصوف والوبر وريش الطير والحرير وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل:٨٠-٨١].

وعلّمهم بما خلق لهم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس منها كالزراعة والغزل والنسج والخياطة، كما قال جل وعلا: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٧٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٨.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.

وإن منته تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف منته على المتقدمين من شعوب بني آدم؛ فيجب أن يكون شكرهم له أعظم»[1].

ثم قال رشيد رضا: «فقد بلغ من إتقان صناعات اللباس: أن عاهل ألمانية الأخير (قيصرها) دخل مرة أحد معامل الثياب ليشاهد ما وصلت إليه من الإتقان؛ فجزّوا أمامه عند دخوله صوف بعض أكباش الغنم، ولما انتهى من التجوال في المعمل ومشاهدة أنواع العمل فيه وأراد الخروج؛ قدّموا له معطفًا ليلبسه تذكارًا لهذه الزيارة، وأخبروه أنه صنع من الصوف الذي جزوه أمامه عند دخوله! فهم قد نظفوه في الآلات المنظفة فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصلوه فخاطوه في تلك الفترة القصيرة، فانتقل في ساعة أو ساعتين من ظهر الخروف إلى ظهر الإمبراطور»![2].

٢. زينة النساء.

ولعلهن من أعظم زينة بني آدم، فهي إن كانت أمًّا فهي زينة بحنانها وعطفها ورحمتها، وإن كانت بنتًا فهي زينة كونها نعمة يسعى لها كل والدين، وزينة بدلالها لوالديها وتحببها لهما، والتهائهما بها، وإن كانت زوجة فهي زينة بجمالها وحبها ومشاعرها وسكون الزوج إليها، قال الحق سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ [آل عمران: ١٤].

قال ابن عاشور: «وتعليق التزيين بالحب جرى على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المزين للناس هو الشهوات، أي المشتهيات نفسها، لا حبها، فإذا زينت لهم أحبوها، فإن الحب ينشأ عن الاستحسان، وليس الحب بمزين، وهذا إيجاز يغني عن أن يقال: زينت للناس الشهوات فأحبوها...»[3].

وقال ابن عطية: «وإذا قيل: زيّن الله، فمعناه: بالإيجاد والتهيئة لانتفاع وإنشاء الجبلّة عن الميل إلى هذه الأشياء، وإذا قيل: زين الشيطان، فمعناه: بالوسوسة والخديعة، وتحسين أخذها من غير وجوهها، والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين»[4].

«وأخّر ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين، لأنهما أقوى في الشهوة الجبلية من المال، فإن الطبع يحث على بذل المال فيحصل النكاح، والنساء أقعد من الأولاد في الشهوة الجبلية، والبنون أقعد من الأموال، والذهب أقعد من الفضة، والفضة أقعد من الأنعام، إذ هي وسيلة إلى تحصيل النعم، فلما صدّرت الآية بذكر الحب، وكان المحبوب مختلف المراتب، اقتضت حكمة

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣١٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٢٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٩.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٠٨.

الترتيب أن يقدّم ما هو الأهم فالأهم في رتبة المحبوبات»[1].

٣. زينة البنين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

وأنه من زينة بني آدم قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَأُولَٰئِكَ وَأُولَٰئِكَ وَأُولَٰئِكَ﴾ [آل عمران:١٤].

«وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، وما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به، أو يفرح بسببه، أو يقيم له في نظره وزنًا»[2].

وقد جعلهم الله هنا زينة «اعتبارًا بأحوال الناس في تزيّنهم بهم، وسماهم فتنة في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨] اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم، وسمّاهم عدوًّا في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن:١٤] اعتبارًا بما يتولّد منهم»[3].

فالبنون زينة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

فمنهم من يرزقه الله إناثًا فقط، ومنهم من يرزقه ذكورًا فقط، ومنهم من يرزقه الزوجين؛ إناثًا وذكورًا، ومنهم من يجعله الله عقيمًا، فالبنون هبة من الله تعالى يزين بهم حياة من شاء من عباده، فواجب المسلم مع هذه المنّة والهبة الإلهية أن يحوطها بالحفظ والرعاية والتربية الحسنة، فهم رعية سيسأل عنهم يوم القيامة.

٤. زينة المال.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

«وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، لأن في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوة ودفعًا؛ فصارا زينة الحياة الدنيا»[4].

وهنا تساؤل: لماذا قدّم في سورتي آل عمران والتوبة البنون على الأموال؟

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٢٤٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٧ بتصرف.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٤ بتصرف.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٣.

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

الجواب: لـمّا يذكر سبحانه الحبّ الفطري يؤخّر الأموال، لأن الأموال تترك للأبناء؛ يعمل ويكد ويعلم أنه ميت ويترك الأموال للأبناء.

أما في مواطن الإلهاء قدّم الأموال على الأولاد مع أن حبّ الأولاد أكثر! لكن الالتهاء بالمال يكون أكثر، لذا قدّم الأموال على الأولاد للتحذير.

قال أبو حيان رحمه الله: «ولما كان المال في باب المدافعة والتقرب والفتنة أبلغ من الأولاد؛ قدّم في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠].

وفي قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

وفي قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وفي قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء: ٨٨]، بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]؛ فإنه ذكر هنا حبّ الشهوات، فقدّم فيه النساء والبنين على ذكر الأموال»[1].

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: (يا حكيم! إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)[2].

فيجب على المسلم أن يحذر من فتنة المال وزينته وزخرفه، بل يتق الله تعالى في أخذه وفي إنفاقه؛ فهو مسؤل عن ذلك يوم القيامة.

٥. زينة الحلي.

والحلي: اسم لكل ما يتزين به من مصاغ الذهب والفضة، والجمع حليٌّ بضم الحاء

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا المال خضرة حلوة)، رقم ٦٤٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة، رقم ١٠٣٥.

وكسرها، كالخلخال، والسّوار، والقرط، والقلادة، والطّوق، ونحو ذلك[1].

قال الله تعالى عن قوم موسى أنهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ [طه:٨٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف:١٨].

«﴿فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ وهو الحلي الذي لا يليق إلا بالإناث دون الفحول، لتزينهن بذلك لأزواجهن...وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل لا يناسب له التزين كالمرأة، وأن يكون مخشوشنًا»[2].

ولا يعني هذا أن الرجل لا يتزين بأي زينة لامرأته! بل لقد ؤ قال ابن عباس رضي الله عنه: « إني أحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨]»[3]، إنما المحرم تشبه الرجل بالمرأة في زينتها، كالتحلي بالذهب ولبس الحرير...الخ.

ثالثًا: زينة الحياة الدنيا:

كثيرة هي الآيات التي تحدثت عن هذه الحياة الدنيا وزينتها وزهرتها وزخرفها ومتاعها وغرورها وحقيقتها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

وضرب لنا فيها الأمثال فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

وكان من الآيات الجامعة في هذا الباب هي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] «يعني منفعة ومتعة، كالفأس والقدر والقصعة، ثم تزول ولا تبقى، وقال الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات؛ لا حاصل له»[4].

وأجمع منها قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤٣٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٥٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٣٦٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٣٢.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٤٥.

﴾٢٠﴿ [الحديد:٢٠].

قال ابن عاشور: «واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا، فهو جزء عظيم من أحوالها، وحسبك أنه يعمر معظم أحوال الصبا.

واللهو: يغلب على أحوال الشباب، فطور الشباب طوره.

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرًّا له...ويكثر التزين في طور الفتوة، لأن الرجل يشعر بابتداء زوال محاسن شبابه، والمرأة التي كانت غانية تحب أن تكون حالية.

والتفاخر: الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل... وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأشد؛ لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر»[١].

وأوضح لنا القرآن الكريم أن زينة الحياة الدنيا ليس شيئًا واحدًا؛ بل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ومجالسة الأغنياء والأشراف زينة الحياة الدنيا[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

«أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم، وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين، الذين جعلوا همّهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية؛ فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا همّهم الصور الظاهرة»[٣].

وعند التأمل في أمثال هذه الآيات؛ نجد أن الله تعالى يتبع الحديث عن زينة الدنيا وزخرفها ومتاعها الزائل بثواب الآخرة الدائم الثابت الجليل، فمثلًا:

بعد قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴿ [آل عمران:١٤-١٥]

وبعد قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٢-٤٠٣ بتصرف.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٦٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥ بتصرف يسير.

﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦] [1].

وبعد قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد:٢٠] قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد:٢١].

وغيرها من الآيات الدالة على ذلك.

ولعل من أبرز حكم ذلك: ليعلمنا الله تعالى «أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية، وخيرات الآخرة دائمة باقية، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي، وهذا معلوم بالضرورة، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة، وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة» [2].

مظهر الاغترار بالزينة وآثاره

حذّر الله تعالى المؤمنين في كتابه الكريم من أن يغتروا بهذه الحياة الدنيا أو بشيء من زينتها ، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٣٣﴾ [لقمان:٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون:٩].

لكن: ما هي مظاهر الاغترار بالدنيا وزينتها؟ وما عواقب ذلك؟ في هذا المبحث نريد أن نتعرف على ذلك من خلال آيات القرآن الكريم.

أولًا: مظاهر الاغترار بالزينة:

من مظاهر وصور الاغترار بالزينة ما يأتي:

١ . الشرك.

كما في قول الحق سبحانه: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝٣٢﴾ [الكهف:٣٢].

فلما أهلك الله ملكه، وأخذ ما كان معه

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٨.

من زينة هذه الحياة الدنيا، وصف الله حاله فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢]!

فاعترف أخيرًا بالذنب والخطيئة التي أخذ الله ملكه بسببها ، وهي: الشرك، بسبب اغتراره بما أعطاه الله من نعم وزينة وصفها الله بقوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف:٣٢-٣٣].

وفي هذا المثل المضروب «زجر للكفرة من قريش أو غيرهم؛ لئلا تجيء لهم حالٌ يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم»[1].

١ . الضلال والإضلال.

قال الله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

«فالزينة تلهيهم عن اتباع المواعظ، وتعظّم شأنهم في أنظار قومهم، والأموال يسخّرون بها الرعية لطاعتهم، وقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش ما سار ذكره في الآفاق، وظهرت مثلٌ منه في أهرامهم ونواويسهم»[2].

٣. كفر النعمة.

يبين ذلك هذا المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

قال الرازي: «قوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن، وقوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحة، لأن هواء ذلك البلد لما كان ملائماً لأمزجتهم اطمأنوا إليه واستقروا فيه، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إشارة إلى الكفاية، قال المفسرون: وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ السبب فيه: إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام[3] وهو قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم:٣٧]»[4]، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظم ذلك بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم»[5].

٤ . نسيان ما ذكروا به من مواعظ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥١٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٩.
(٣) على القول بأن هذه القرية هي مكة، كما رجح ذلك الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٨.

﴿بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام:٤٤].

«أي: تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء، ولم ينزجروا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾ أي: أعجبوا بما أوتوا من النعم، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه، ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾»[1]، « قال أهل المعاني: « وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة، ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ أي آيسون من كل خير»[2].

٥. الفرح المذموم.

قال الله سبحانه محذرًا من هذا النوع من الفرح: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد:٢٣].

«قال المبرد: «ليس نفي الأسى والفرح على الإطلاق، بل معناه: لا تحزنوا حزنًا يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تعتدوا بثواب على فوات ما سلب منكم، ولا تفرحوا فرحًا شديدًا يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا»[3].

٦. البغي والكبر.

كما في قوله تعالى عن قارون الذي اغتر بما آتاه الله من زينة الحياة الدنيا: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [القصص:٧٦].

«فتجاوز حدّه في الكبر والتجبّر عليهم»[4]، والبغي هو الاعتداء[5].

وقد «بغى على قومه بأنواع من البغي ، من ذلك: كفره بموسى، واستخفافه به، ومنعه حقوق الفقراء من زكاة ماله، إلى غير ذلك مما يصدر عمن فسد اعتقاده»[6].

ثانيًا: آثار الاغترار بالزينة:

لا شك أن الاغترار بالزينة، وعدم شكر الله تعالى عليها، وإيثارها على محبة الله تعالى وطاعته والقيام بحقوقه؛ أنه يجلب على صاحبه آثارًا وخيمة في الدنيا والآخرة، ومن خلال آيات القرآن الكريم سنحاول التعرف على بعض تلك الآثار على الفرد والمجتمع:

١. زوال النعم.

قال الله تعالى عن الرجل الذي دخل بستانه وهو ظالم لنفسه وهو يقول في كبر وغرور: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ

(١) البحر المديد، الفاسي ٢/ ١١٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٣٥.
(٣) المصدر السابق ٢٩/ ٤٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١٦.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٦.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٩٨ بتصرف.

إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

فقال الله عن خاتمته كما سبق ذكرها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

٢. الخسف.

قال سبحانه عن قارون بعد أن اغتر بما أعطاه الله من زينة الحياة الدنيا، وبعد أن قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٧].

فقال في كبر وغرور: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨]!

فكانت العاقبة الإلهية: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

«لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم؛ عقَّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض»[1]،

«والخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، وعكسه، يقال: خسفت الأرض، وخسف الله الأرض فانخسفت، فهو يستعمل قاصرًا ومتعديًا، وإنما يكون الخسف بقوة الزلزال، وأما قولهم: (خسفت الشمس) فذلك على التشبيه»[2].

٣. الخسران.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

«لا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾ والتصرف فيها، والسعي في تدبير أمرها، والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال، وابتغاء النتاج والتلذذ بها، والاستمتاع بمنافعها، ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ وسروركم بهم، وشفقتكم عليهم، والقيام بمؤنهم، وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وإيثاره عليها، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ حيث باعوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٨٥.

العظيم الباقي بالحقير الفاني!»[1].

فبما أن الأموال والأولاد من زينة الحياة الدنيا؛ فحذّر الله تعالى عباده المؤمنين أن تسوقهم تلك الزينة إلى الخسار في الدنيا والآخرة؛ بعدم استغلال تلك الزينة فيما أمر الله تعالى، أو باستخدامها فيما يغضب الله تعالى، أو الالتهاء بها عن ذكر الله سبحانه.

٤ . النار والعذاب.

كما قال الحق سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

«﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أي: مما زيّنه لهم الشيطان، واللهو: كل ما صدّ عن الحق، واللعب: كل أمر باطل، أي: ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك، إذ هو دأبهم وديدنهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزخارفها العاجلة، فلم يعملوا»[2].

فانظر كيف ساقتهم زينة الحياة وزخرفها إلى نسيان دين الله تعالى، فاغتروا بها؛ حتى كانت لهم تلك العاقبة المؤلمة في نار جهنم!

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٤٤.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٦٤-٦٥.

أحكام الزينة ومواطنها

أولًا: حكم الزينة:

بعد تتبع آيات الزينة في القرآن الكريم؛ وجدنا أنه يقسّم حكمها إلى قسمين:

١ . زينة مباحة.

والزينة هنا يدخل فيها جميع أنواع الزينة؛ كتنظيف البدن، وزينة المركوب، والطّيب، والسواك، والثياب الحسنة غير الحرير للرجال، والنعل الحسنة، وتسريح شعر اللحية، وقص الشارب، وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يقصد به مستعمله الخيلاء، ولا تعدى به إلى الإسراف[3].

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢].

«فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة... ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا -كأصحاب الصّفّة- يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون بما يصيبهم في الدنيا من

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٩٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٣٠.

المصائب والشدائد، كما هو معلوم»[1].

قال ابن بطال: «﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ فدخل فيه كل زينة مباحة»[2].

ومن الزينة المباحة التي ذكرها القرآن الكريم: زينة الأنعام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه:٨٧] وهي: الحلي.

٢. زينة واجبة.

كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

فهذا أمر، والأمر في الشريعة للوجوب، والزينة هنا هي: ستر العورة، يرجح ذلك أمران:

الأول: أن سبب نزول الآية كما سبق طواف المشركين بالبيت عراة، فنزلت هذه الآية التي توجب على المسلم ستر عورته عند العبادة.

الثاني: نقل بعض العلماء الإجماع أن مقصود الآية هنا هو: ستر العورة، قال ابن حزم رحمه الله عند هذه الآية: «فاتفق على أنه ستر العورة»[3].

وتبويب البخاري رحمه الله في صحيحه يشير لذلك، حيث قال: «باب وجوب الصلاة في الثياب، وقول الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾»[4].

قال ابن عبد البر عن القول بالوجوب: «والقول الأول أصح في النظر، وأصح أيضًا من جهة الأثر، وعليه الجمهور»[5].

ثانيًا: مواطن الزينة:

ورد في القرآن الكريم ذكر المواطن التي يباح أو يجب على المسلم أن يبدي فيها زينته، وهي كما يلي:

١. التزين عند ارتياد المساجد.

كما في قول الله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

قال ابن عطية: «عند كل موضع سجود... ويدخل مع الصلاة: مواطن الخير كلها، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك»[6].

قال ابن كثير: «ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة: يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب: البياض»[7].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٣٠، وانظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ٣٢١.
(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٢/ ٣٩.
(٣) المحلى بالآثار، ابن حزم ٢/ ٢٤٠.
(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة ١/ ٧٩.
(٥) الاستذكار، ابن عبدالبر ٢/ ١٩٧.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٩٢.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٦.

تزين الزوجين لبعضهما: قال تعالى في حق الزوج: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وقال في حق الزوجة: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

«عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾»[1].

ولاشك أن الزينة التي يظهرها الزوجان لبعضهما ليست هي التي يظهرانها لأقاربهما أو الأجانب عنهما.

ثالثًا: إظهار الزينة:

أما بالنسبة لإظهار الزينة كما ورد في القرآن الكريم؛ فنقسمها كما يلي:

١ . زينة الرجل.

كاللباس الحسن، والمظهر الحسن، والمركب الحسن، فهذا ذكر القرآن الكريم أن الرجل يظهره بلا كبر أو خيلاء في المساجد ،كما في الآية السابقة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

وفي مجامع الناس كما مرّ أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨].

ثم الزينة التي يتزين بها الرجل لزوجته كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

فهذه مواطن يجوز للرجل إظهار زينته فيها، وفي كل موطن بحسبه.

٢ . زينة المرأة.

أما المرأة فكونها محط فتنة للرجال، والفتنة بها أشد من غيرها؛ فقد كان من حكمة الشريعة أن سدّت كل الذرائع التي تدعو للافتتان بالمرأة؛ حتى لا يغرق المجتمع في مستنقع الرذيلة والفاحشة، ولتحفظ الأنساب، فأمر الشرع الرجل بأن يغض بصره عن النساء، وأمر النساء بأن لا يظهرن زينتهن لكل أحد.

ومن خلال آيات القرآن الكريم؛ نجد أنه حدّد المواضع التي يجوز للمرأة فيها أن تظهر زينتها، وقد جمعت أغلب تلك المواضع في آية واحدة.

وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور:٣١].

وقبل الشروع في التفصيل ؛ نبدأ بتعريف

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٣٢.

الزينة في هذه الآية، يقول الشنقيطي: «الزينة في لغة العرب: هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها -كالحلي، والحلل-»، ثم قال رحمه الله: «فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه...»[1] وذكر ما يرجح قوله، فليراجع ذلك من أراد مزيد تفصيل.

أولًا: ما ظهر منها:

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، «...عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: هي الثياب»[2]، «أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها، إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها»[3]، فهذه لا حرج على المرأة في إظهارها.

ثانيًا: الزوج:

قال سبحانه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ و«البعولة: جمع بعل، وهو الزوج، وسيد الأمة...وأصل البعل الرب والمالك (وسمي الصنم الأكبر عند أهل العراق القدماء بعلًا، وجاء ذكره في القرآن في قصة أهل نينوى ورسولهم إلياس)، فأطلق على الزوج لأن أصل الزواج ملك وقد بقي من آثار الملك فيه: الصّداق؛ لأنه كالثمن»[4].

فللزوج أن ينظر لكل بدن امرأته، كما للزوجة أن تنظر لكل بدن زوجها، وقد ثبت في الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تغتسل هي وزوجها رسول الله عليه الصلاة والسلام من إناء واحد[5].

أما حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنها: **(ما نظرت -أو ما رأيت- فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط)**[6] فقد ضعف.

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥١٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٥٦.
إسناد رواية ابن جرير هذه هو: «حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني الثوري، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أبي الأحوص، عن عبد الله...»، قال المقدّم: «إسناده في غاية الصحة وأورد هذا الأثر الإمام ابن كثير في تفسيره» عودة الحجاب. المقدّم ٣/ ٢٨٧.

(٣) إظهار الحق والصواب في حكم الحجاب، سعيد القحطاني ص ١٠٧.
وانظر: عودة الحجاب، محمد المقدّم ٣/ ٢٨٣.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٠٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب غسل الرجل مع امرأته، رقم ٢٥٠، ومسلم في صحيحه كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر، رقم ٣٢١.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها، ٤٢/ ٣٦٧، رقم ٢٥٥٦٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب النهي أن يرى عورة أخيه، رقم ٦٦٢.
وضعفه الألباني في الإرواء، ٦/ ٢١٣، رقم ١٨١٢.

ثالثًا: المحارم:

قال جل وعلا: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «الزينة التي يبدينها لهؤلاء: قرطاها، وقلادتها، وسوارها، فأما خلخالاها ومعضداها ونحرها وشعرها؛ فإنه لا تبديه إلا لزوجها»[1].

رابعًا: النساء المسلمات:

قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال ابن كثير: «يعني: تظهر زينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة؛ لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك -وإن كان محذورًا في جميع النساء- إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد؛ فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**) أخرجاه في الصحيحين[2]، عن ابن مسعود»[3].

خامسًا: ملك اليمين:

قال سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾

قال ابن عطية: «يدخل فيه الإماء الكتابيات ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، وقال ابن عباس وجماعة من العلماء : لا يدخل العبد على سيدته فيرى شعرها ونحو ذلك إلا أن يكون وغدا، فمنعت هذه الفرقة الكشف بملك اليمين وأباحته بأن يكون من ﴿التَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾»[4].

سادسًا: الرجال التابعين من غير أولي الإربة:

قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ التابعين أي: «كونهم من أتباع بيت المرأة وليسوا ملك يمينها، ولكنهم يترددون على بيتها لأخذ الصدقة أو للخدمة»[5].

ويكون هؤلاء الرجال من الذين «لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنّين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره»[6]، «مع السلامة الغالبة

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٦٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، رقم ٥٢٤٠ .وليس الحديث في مسلم كما وهم ابن كثير رحمه الله.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٩.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢١١.
(٦) إظهار الحق والصواب في حكم الحجاب، سعيد القحطاني ص ١٠٨.

من تطرق الشهوة وآثارها من الجانبين»[1].

سابعًا: الأطفال غير المميزين:

قال جل وعز: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ «يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن؛ من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك؛ فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء؛ فلا يمكّن من الدخول على النساء»[2].

ثامنًا: القواعد من النساء:

و«هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد؛ من الكبر، ولا مطمع لهن في الأزواج»[3].

فهؤلاء يجوز لهن وضع ثيابهن الظاهرة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ [النور:٦٠].

أي: حرج وإثم، ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور:٦٠].

أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فهؤلاء: يجوز لهن أن يكشفن وجوههن؛ لأمن المحذور منها وعليها، ولما كان نفي الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء؛ دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠]»[4].

أي: «غير مظهرات زينةً، يريد: الزينة الخفية التي أرادها في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه ، والاستعفاف من الوضع ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور:٦٠].

لما ذكر الجائز عقّبه بالمستحب، بعثًا منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها، كقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧].

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٠]»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٢٠.
قال ابن قتيبة: «ولا أراها سميت قاعدًا، إلا بالقعود. لأنها إذا أسنّت: عجزت عن التّصرّف وكثرة الحركة، وأطالت القعود».
انظر: غريب القرآن ص ٣٠٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٤.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٥٥.

صور التزيين

«التزيين: تصيير الشيء زينًا أي حسنًا، فهو تحسين الشيء المحتاج إلى التحسين، وإزالة ما يعتريه من القبح أو التشويه، ولذلك سمّي الحلاق مزيّنًا»[1]، وللتزيين في القرآن الكريم صور متعددة، بيانها فيما يلي:

أولًا: تزيين محمود:

وهو: تزيين الإيمان:

دليل ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات:٧-٨].

فقوله سبحانه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ «أي: حبّبه إلى نفوسكم، وحسّنه في قلوبكم»[2].

إن من يحب شيئًا قد يمل منه حين يجده ثم يطول مكثه عنده! إلا الإيمان بالله تعالى؛ فإنه «كل يوم يزداد حسنًا، ولكن من كانت عبادته أكثر، وتحمله لمشاق التكليف أتم؛ تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل، ولهذا قال في الأول: حبّب إليكم، وقال ثانيًا: وزينه في قلوبكم، كأنه قرّبه إليهم ثم أقامه في قلوبهم»[3].

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة، مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِي﴾ [الأعراف:١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ [الإسراء:٩٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا[4].

ثانيًا: تزيين مذموم:

وبتتبع آيات التزيين في القرآن نجد أن هذا النوع من التزيين له صور، منها:

١ . تزيين الكفر والضلال.

قال الله تعالى عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجر:٣٩].

أي: لأزينن لهم المعاصي والكفر في الدنيا[5].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٧٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٢.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤١٢.
(٥) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٨٨.

﴿إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٢]

ومعناه أنهم يغرّون به المضلّلين، ويوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلافه![1]، قال السدي: أما «شياطين الإنس»: فالشياطين التي تضل الإنس، «وشياطين الجن»: الذين يضلون الجن، يلتقيان فيقول كل واحد منهما: «إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، وأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا»، فيعلّم بعضهم بعضًا»[2].

٢. تزيين الشيطان للأعمال السيئة.

كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام:٤٣].

وقوله جل وعلا: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النحل:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

والأعمال في كل هذه الآيات يقصد بها الأعمال الخبيثة والسيئة، التي تصدهم عن سبيل الله ورضوانه.

«فإن قلت: قد أسند الله هنا التزيين إلى الشيطان وأسنده إلى نفسه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فهل هو حقيقة فيهما أو في أحدهما؟

قلت: وقع التزيين في النظم في مواضع كثيرة، فتارة أسنده إلى الشيطان، وتارة إلى نفسه، وتارة إلى البشر كقوله: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ [الأنعام:١٣٧].

وتارة مجهولًا غير مذكور فاعله كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [يونس:١٢]؛ لأنّ التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة:

أحدها: إيجاد الشيء حسنًا مزينًا في نفس الأمر، كقوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الصافات:٦].

والثاني: جعله مزينًا من غير إيجاد، كتزيين الماشطة العروس.

والثالث: جعله محبوبًا للنفس، مشتهى للطبع، وإن لم يكن في نفسه كذلك، فهذا إن كان بمعنى خلق الميل في النفس والطبع فلا يسند إلا إلى الله، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النمل:٤]

أي: زينا لهم أعمالهم القبيحة، بأن جعلناها مشتهاة بالطبع محبوبة للنفس، -وذلك عقوبة لهم لعدم إيمانهم بالآخرة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

فإذا بيّن لهم ما يتقون فلم ينقادوا له؛ عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٣٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢.

الحق المبين»[1].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

وإن كان تزيين الباطل بمجرّد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه، كالوسوسة والإغواء كما أفصح عنه تعالى في حكايته قول إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر:٣٩] فهذا يسند إلى الشيطان أو البشر»[2].

٣. تزيين قتل المشركين لأولادهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧].

تأتي هذه الآية بعد أن حكى لله تعالى شيئًا من سفه المشركين وضلالهم، وطاعتهم العمياء لشياطين الإنس والجن، فبين الله تعالى في هذه الآية أن من سفه المشركين وضلالهم أيضًا: «أنه زيّن لكثير من المشركين شركاؤهم -أي: رؤساؤهم وشياطينهم- قتل أولادهم، وهو: الوأد، الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة».

فهذه كلها أنواع من التزيين المذموم، الذي يفتن العباد ويصرفهم عن ما خلقهم الله تعالى له من عبادته وتوحيده، وصاحب هذا التزيين المذموم متوعد بعذاب الله تعالى في نار جهنم إن لم يتب إلى ربه قبل موته، بل هو ومن اتبعه في تزيينه ذلك يتلاومون في نار جهنم! كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣﴾ [الصافات:٢٧-٣٣].

« عن السدي، في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال: « تأتوننا من قبل الحق تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق»[3].

وفي ختام هذا النوع المذموم من التزيين، نورد كلامًا قيمًا لابن عاشور رحمه الله، وهو قوله: «وقد استقريت مواقع التزيين المذموم فحصرتها في ثلاثة أنواع:

الأول: ما ليس بزينٍ أصلًا -لا ذاتًا ولا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٤.
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ٥٩ بتصرف يسير.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢.

صفة- لأن جميعه ذمٌّ وأذى، ولكنه زيّن للناس بأوهام وخواطر شيطانية، وتخييلات شعرية (كالخمر).

الثاني: ما هو زين حقيقة، لكن له عواقب تجعله ضرًّا وأذى (كالزنا).

الثالث: ما هو زين لكنه يحف به ما يصيره ذميمًا (كنجدة الظالم)»[1].

ثالثًا: تزيين كوني قدري:

وهو: تزيين الحياة الدنيا ومتاعها:

وهذه الزينة أو التزيين سماه بعض العلماء: (الزينة الحيادية)! وهي تزيين الله تعالى متاع الدنيا للناس؛ التي يمكن للإنسان أن يستخدم ذلك التزيين في طاعة الله تعالى، ويمكنه أن يستخدمه في المعصية، كما قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾[آل عمران:١٤].

وحسن المآب يكون لمن استقام في الدنيا على الصراط الذي رسمه الله للمتقين، وكما قال سبحانه: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[النحل:٨].

وعن الحكمة من هذا التزيين يقول سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧]

فهذا النوع من التزيين إنما هو: ليبتلي الله عباده، فيكشف المطيعين والعاصين عن طريقه.

فحبّ الشهوات من النساء، وحبّ البنين، وحبّ المال، وحبّ المآكل والمشارب، وحبّ المراكب، وحبّ الخيل المسوّمة والأنعام والحرث، إلى غير ذلك ممّا جعل الله فيه زينة للناس، فالزينة في كلّ ذلك من خلق الله، ومن فطرته التي فطر المزيّنات والنفوس عليها؛ ليمتحن إرادات الناس بها.

فإن استخدمت هذه الزينة في حدود ما أذن الله، دون عدوان، ولا ظلم، ولا بغي، ولا إسراف، ولا تبذير، ولا تجاوز إلى مواطن الضرر؛ كانت منّة من الله تعالى وإكرامًا لعبده، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣١-٣٢].

أمّا إن استخدمت هذه الزينة في غير ما أذن الله وأحلّ؛ فإنّها تكون إمهالًا من الله تعالى واستدراجًا لصاحبها ، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٩٥.

﴿أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤][1].

وبعد: فقد ذكرنا في صور التزيين أن الأولى: تزيين محمود، لأنه يعود على الإنسان بالخير والرحمة، فحري بالمسلم أن يسعى قدر مستطاعه لتزيين الأعمال الصالحة لنفسه ولغيره، فمن فعل ذلك فهو محمود ممدوح، وهو داخل في الدعوة إلى الله تعالى، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣].

أما الصورة الثانية: فتزيين مذموم ؛ لأنه يعود على الإنسان بالشر والعذاب، فعلى المسلم أن يسعى لاجتناب تزيين الشر لنفسه أو لغيره؛ فقد قال تعالى ماقتًا ومحذرًا الذين يزخرفون ويزينون الباطل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

أما الصورة الثالثة: التزيين القدري، فعلى المسلم أن يعلم ذلك ثم يسعى لاغتنام ذاك التزيين فيما يعود عليه بالخير والفلاح.

موضوعات ذات صلة:

حجاب المرأة، الحياة، العفة، النساء

(١) أجنحة المكر الثلاثة ص ٥٠٧ بتصرف.



عناصر الموضوع

مفهوم السؤال

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «السين والهمزة واللام كلمة واحدة، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألة، وتساءل الرجال أي سأل بعضهم بعضًا، ومن أكثر منه يقال له: رجل سؤالة وسؤله كهمزة: كثير السؤال»[(١)]. ولهذا فالفقير يسمى سائلاً إذا كان مستدعيًا لشيء، ولأنه من طبعه أن يسأل كثيرًا[(٢)]، حتى يعطى وتقضى حاجته، ومن يكثر السؤال يصبح ملحًا، وجمع السائل الفقير: السؤّال[(٣)]. وبه فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى:١٠] وفسّره الحسن بطالب العلم[(٤)]. فالسائل هو الطالب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء السؤال بأنه استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة[(٥)]، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللّسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللّسان خليفة لها، إمّا بوعد أو برد[(٦)].

يقول الراغب الأصفهاني: والسؤال على ضربين:

الأول: طلب مقال، وجوابه المقال: وهذا مثاله : قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]. وقال: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾[الأحقاف:٣٢].

والثاني: طلب نوال: وجوابه النوال: وعلى الثاني قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٩]. أي: أعطيتما ما سألتما[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص٥٠١.
وانظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٩/ ١٥٨.
(٢) العين، الفراهيدي، ٧/ ٣٠١.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٤٨.
(٤) تاج العروس، الزبيدي، ٢٩/ ١٦٠.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٤٣٧.
(٦) الكليات، الكفوي، ١/ ٥٠١.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢١٠.

السؤال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سأل) في القرآن الكريم (١٢٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢١	﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك:٨]
الفعل المضارع	٧٨	﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾ [القيامة:٦]
فعل الأمر	١٦	﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]
اسم الفاعل	٧	﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات:١٩]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦]
مصدر	٢	﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص:٢٤]

وجاء السؤال في القرآن الكريم على وجهين[٢]:

الأول: بمعناه اللغوي، وهو استدعاء معرفة أو ما يؤدي إليها، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إليه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣].

الثاني: الحساب: ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر:٩٢]

أي: لنحاسبنهم على ما كان منهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٣٦-٣٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٦٨-٢٦٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاستخبار:

الاستخبار لغةً:

يقول ابن فارس:«الخاء والباء والرّاء أصلان، فالأوّل ؛ من الخبر وهو العلم، والثّاني :من الخبراء، وهي الأرض اللّيّنة، وهو يدلّ على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ. ويقال: استخبره أي سأله عن الخبر وطلب أن يخبره. والخبير العالم، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

الاستخبار اصطلاحًا:

أما اصطلاحًا فهو طلب خبر ما ليس عندك.

الصلة بين السّؤال والاستخبار:

يقول أبو الهلال العسكري: أن الاستخبار طلب الخبر فقط والسّؤال يكون طلب الخبر الأمر والنّهي وهو أن يسال السّائل غيره أن يأمره بالشي أو ينهاه عنه والسّؤال والأمر سواء في الصّيغة، وإنّما يختلفان في الرّتبة، فالسؤال من الأدنى في الرّتبة والأمر من الأرفع فيها[(١)].

يقول الراغب الأصفهاني: وكل استخبار سؤال، وليس كل سؤال استخبارًا[(٢)].

٢ الاستفهام:

الاستفهام لغةً:

هو مصدر من الاستفعال، وهو من الفهم، يقول ابن فارس: «الفاء والهاء والميم علم الشّيء»[(٣)]. يقال «استفهم أي سأله أن يفهّمه ، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهّمته تفهيمًا»[(٤)]. والاستفهام طلب الإفهام وهو أخص من الاستخبار[(٥)].

الاستفهام اصطلاحًا:

هو «استعلام ما في ضمير المخاطب»[(٦)]. أو هو «طلب المتكلم من مخاطبة أن يحصل

---

(١) الفروق اللغوية ص ٣٧.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٤٦٦.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٥٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٥٩.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني، ٥/ ٤٦٦.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٤٩.

في ذهنه ما لم يكن حاصلاً عنده مما سأله عنه»[1]. أو هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن تصديقًا أو تصورًا، فإن كانت تلك الصورة هي وقوع نسبة بين الشيئين، فحصولها هو التصديق وإلا فهو تصور[2].

الصلة بين السّؤال والاستفهام:

قال صاحب الفروق اللغوية: إن الاستفهام لا يكون إلّا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه ؛ وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم ،ويجوز أن يكون السّائل يسأل عمّا يعلم لا يعلم ، فالفرق بينهما ظاهر[3].

(١) الكليات، الكفوي ص٩٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٩.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٧.

أنواع السؤال في القرآن

١ . السؤال الاستفهامي.

والاستفهام طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن، بواسطة أدوات استفهامية. ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [الماعون:١].

فقوله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ حرف يستعمل في موضع السؤال والاستفهام[١]؛ كقوله: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤].

والاستفهام يرد مجازًا على غير حقيقته، بحيث إن المستفهم لا يرجو من سؤاله حصول علم لم يكن قبل السؤال، والسؤال في هذا الصنف من الله تعالى ولا ريب، وقد أحصى علماء اللغة أغراضًا مجازية كثيرة يمكن أن يستعمل الاستفهام لها، ومن تلك الأغراض ما يلي[٢]:

- الأمر، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]. أي: انتهوا.
- النهي، كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣]. أي: لا تخشوهم. قال المرسي: «إن الأمر والنّهي والاستفهام كلها بمعنى السّؤال والاستدعاء»[٣].
- النفي، قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩] أي: لا هادي لمن أضلّ الله. ومنه قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩] أي: لست منقذهم.
- الإنكار، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤٠].
- التقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح:١]. أي: لقد شرح الله صدرك.
- التهويل، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:٣].
- الاستبعاد، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ [الدخان:١٣] وغير ذلك. ومن الأمثلة الدالة عليه كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] هذا استفهام معناه التوبيخ لمن ادعى ذلك على المسيح، ويكذبهم المسيح فيكون ذلك توبيخاً لهم، وهو قوله: قال سبحانك أي: برأتك من السوء، ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]. أي: لست أستحق العبادة فأدعو الناس إليها[٤].

٢ . السؤال الإنكاري.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٦٢٢.
(٢) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص٤٥.
(٣) المخصص، ابن سيده المرسي، ٥/ ٢٣٤.
(٤) الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٤٧.

وهو إنكار على المخاطب المستفهم عنه بالسؤال[1]، ومنه الأسئلة التي استخدمها موسى عليه السلام للتعبير عن إنكاره لما جرى أمام عينيه من تعدٍّ وظلم ظاهر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

إن أسئلة نبي الله موسى الإنكارية المتكررة هي التي جعلت الخضر عليه السلام لا يجد مناصًا من تبيين حكمة ما فعل لموسى عليه السلام، وهذا يدل على فاعلية السؤال وقوة تأثيره في القصة، إذ أثمر معرفةً وفهمًا وتفسيرًا لأمور كانت أسبابها غير معروفة وغير ظاهرة للعيان.

٣. السؤال الطلبي.

الطلب هو محاولة وجدان الشّيء[2] وأخذه، والسؤال الطلبي: هو سؤال يتضمن معاني الطلب أمرًا أو نهيًا[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أي: فاطلب بالله ما تطلب[4].

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص١٢٦.
(٢) العين، الفراهيدي، ٧/ ٤٣٠.
(٣) السؤال في ضوء القرآن الكريم، وردة مصطفى كحيل، ص٢٤.
(٤) غرائب التفسير، الكرماني، ٢/ ٨٢٠.

ومن أمثلته، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سبأ:٥٢] أي: التناول، وهو من بعد الطلب[5]. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨].

٤. السؤال التقريري.

«هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقر عنده»[6].

ومن أمثلته في القرآن، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه:١٧].

فهذا السؤال هو سؤال تقريرٍ والحكمة في هذا السّؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصًا حتّى إذا قلبها حيّةً علم أنها معجزةٌ عظيمةٌ[7]. ويقال: «قررت عنده الخبر حتّى استقر ثبت بعد أن حققته له، وقرر المسألة أو الرّأي: صححه وحققه»[8].

٥. السؤال التوبيخي.

التوبيخ هو الملامة[9] والتهديد والتأنيب[10]، والسؤال التوبيخي هو توبيخ المخاطب على فعل وقع، لماذا وقع، أو

(٥) غريب الحديث، الحربي، ٢/ ٨٨٤.
(٦) السؤال في ضوء القرآن الكريم، كحيل، ص٢١.
(٧) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٥٨.
وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري، ٢/ ٥٤٦.
(٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٠٢/ ٧٢٥.
(٩) العين، الفراهيدي، ٤/ ٣١٥.
(١٠) الصحاح، الجوهري، ١/ ٤٣٤.

على ترك فعل ما كان ينبغي ألا يقع[1].

يقول قطرب: السّؤال ضربان: سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن:٣٩]. يعني: استعلامًا. وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر:٩٢] يعني: توبيخًا وتقريعًا[2].

ومن التوبيخ لأعداء الله قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات:١٥١-١٥٣].

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص١٢٦.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٦٧.
وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري، ١/ ٤٧٥.

السؤال في الجانب العقدي

هناك أسئلة كثيرة وردت في الخطاب القرآني حول القضايا الاعتقادية، والتي صدق وجزم بها المؤمن بدون ريب أو شك؛ لأنها من الأشياء التي يجب الاعتقاد بها ضرورة، ويمكن أن ندرجها حول أصول الإيمان ؛لأنها واجبات فرضت فرض عين على كل مسلم ومسلمة. ومن هذه الأسئلة ما كان حول الخالق سبحانه، وما يكون يوم القيامة ومتى تقوم الساعة، وما هو مصير العباد في ذلك، ناهيك عن السؤال الذي أحيل به الجواب إلى الله عز وجل، وهو سؤال الروح.

١ . السؤال عن الخالق.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

أخرج ابن أبي حاتم أنه جاء رجلٌ إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول اللّه أقريبٌ ربّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فسكت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللّه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[3]، إذا دعوني، استجبت

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٧٣.
قال الترمذي: حسن صحيح.

لهم[1].

والفاء في قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، جواب إذا، وفيه حذف تقديره: فقل لهم إنّي قريبٌ؛ لأنّه لا يترتّب على الشّرط القرب، إنّما يترتّب الإخبار عن القرب[2].

فالله عز وجل قريب من كل شيء، عالم بكل شيء، يصدقه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة:٨٥] وهو قرب العلم والإحاطة وارتفاع الجهات، لا قرب الذات[3].

قال أبو حيان: «والقرب المنسوب إلى اللّه يستحيل أن يكون مكانيًّا، وإنّما قصد منه سماع الدعاء، والإسراع في الإجابة»[4].

وفي هذا إرشاد لنناجيه ولا ننادي عليه برفع الصوت، فهو قريب لا يحتاج لكي ينادى عليه، كما أنه قريب من عابده، و(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[5].

وفي الحديث القدسي: (أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا اقتربت منه ذراعًا، وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[6]. فهذا قربه من عابده[7].

وقد ورد أن اليهود سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: كيف يسمع ربك دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام؟! فنزل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، هذا لما لم يعرفوا الصانع، ألا تراهم جعلوا له الولد، وجعلوا له شركاء، فخرج سؤالهم ، مخرج سؤال المتعنت، لا المسترشد»[8].

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليسألنكم النّاس عن كلّ شيءٍ حتّى يقولوا: الله خلق كلّ شيءٍ فمن خلقه؟) قال يزيد: فحدّثني نجبة بن صبيغ السّلميّ: أنّه رأى ركبًا أتوا أبا هريرة، فسألوه عن ذلك فقال: الله أكبر

وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٩٠.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ١/ ٣١٤.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٢٠٥.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٤٨.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٢٠٥. وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٢٥، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٤٨.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٢١٥.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في حسن الظن بالله عز وجل، رقم ٣٦٠٣.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٥٢، رقم ٨١٣٧.

(٧) التفسير القيم، ابن القيم، ص٢٥٦.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٠٨.

ما حدّثني خليلي بشيءٍ ، إلّا وقد رأيته وأنا أنتظره، قال جعفرٌ: بلغني أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سألكم النّاس عن هذا فقولوا: الله كان قبل كلّ شيءٍ، والله خلق كلّ شيءٍ والله كائنٌ بعد كلّ شيءٍ)[1].

٢. السؤال عن يوم القيامة.

قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف:١٨٧].

قال ابن عادل الحنبلي: «لما سمع المشركون أخبار القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل: ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً، متى تكون الساعة؟»[2].

والمعنى: في أي شيء هم من سؤال الساعة، ألم يعلموا أنك أنت من علاماتها، فإنك بعثت في نسيم الساعة، واسمك نبي آخر الزمان.

وأما قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧] حفي عن الشيء إذا سأل، وحفي بالشيء، عني به، وحفى بالشيء أيضًا حفاوة فرح به. قال الزجاج: «كأنك حفيٌّ، أي فرحٌ بسؤالهم»[3].

وفي الآية دلالة على أن المقصد من سؤال الكفار عن الساعة للتمويه والتلبيس على ضعفة الإيمان من الناس؛ لأنهم عرفوا أن وقت الساعة ليس بيد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن سألوه عنها ومتى وقتها وطلبوا الاستعجال بها، عرفوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بيده الجواب عنها فيستغلوا ذلك في التحريض ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودينه.

كما دل إخفاء الساعة عن الخلق بما فيهم الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون ؛ لأن ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، ومثله كإخفاء الأجل والصلاة الوسطى وليلة القدر ، فالله عز وجل كتم وقت قيام الساعة عن الخلق ليسرع المكلفون إلى التوبة والطاعة في جميع الأوقات ؛ فإنه لو علم وقت قيامها لتقاصر الخلق عنها وأخروا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم ٢١٦.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٢٠/ ١٤٩.

(٣) غرائب التفسير، الكرماني، ١/ ٤٣٠.

الطاعة[1].

هناك ثلاثة آراء في السائلين عن الساعة، فالرأي الأول: منهم من قال إن السائلين هم قريش ، قال أبو جعفر: عني بذلك قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش[2]. فسؤالهم ينبئ عن شكهم من قيامها، قال عز وجل: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٦٦].

وقصدهم من طرح تلك النوعية من الأسئلة : التمويه والتلبيس على ضعاف الإيمان، ونسوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت أنا والسّاعة كهاتين)[3].

يقول الشاطبي: «إن الله تعالى قال بعد سؤالهم عن السّاعة أيّان مرساها: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾﴾ [النازعات:٤٣] ، أي: إنّ السّؤال عن هذا سؤالٌ عمّا لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنّه لا بدّ منها، ولذلك لمّا سئل صلى الله عليه وسلم عن السّاعة ، قال للسّائل: (ما أعددت لها؟)[4]؛ إعراضًا عن صريح سؤاله إلى ما يتعلّق بها ممّا فيه فائدةٌ، ولم يجبه عمّا سأل»[5].

الرأي الثاني: السائلون هم اليهود[6]: قال ابن عباس: أتى قوم من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا؟ أي: متى قيامها؟[7].

وهذه الطائفة يمكن أن يكونوا من المؤمنين بالبعث، لكنهم لم يؤمنوا بالنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

والرأي الثالث: السائلون هم من المؤمنين بالبعث والنشور والساعة ، وكان سؤالهم سؤال استهداء، كأنه لما قيل لهم: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار:١].

و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١].

قالوا: متى تكون الساعة؟ فنزلت هذه الآية[8].

هل في الآيتين تكرار لنفس الجواب؟

قال الخازن: عبر عن الجواب في السؤال الأول بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣] فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين؟

قلت: فيه فرق لطيف، وهو أنه لما كان

(١) روح البيان، إسماعيل حقي، ٣/ ٢٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٢٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والسّاعة كهاتين»، رقم ٦٥٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرّجل ويلك، رقم ٦١٦٧.
(٥) الموافقات، الشاطبي، ١/ ٤٥.
(٦) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٢٨٤.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٤/ ٢٦٦٠.
(٨) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٤١٥.

السؤال الأول واقعاً عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي. أي: يعلم جليّة أمرها، ومتى يكون على التّحديد[1].

فهو سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا.

ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدها وثقلها ؛ عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله ؛ لأنه أعظم الأسماء[2] مهابة وجلالة وعظمة وهيبة.

٣. السؤال عن مصير العباد في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصافات:٥٠-٥١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠﴾ [المدثر:٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾ [ص:٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٥-٢٨].

لا شك إن مصير العباد بيده سبحانه، فهو وحده القادر على محاسبتهم على القطمير والنقير، ولا يماري في ذلك إلا كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، على الأغلب أنها: ولهذا ما يؤيده قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة:١٣].

وفي ذلك اليوم فإن ملك الملوك سوف يخبر كل إنسان بجميع أنواع الأعمال التي قام بها في القديم ، وفي الحديث سواء كانت صغيرة أم كبيرة، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

يقول السعدي: «فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

ويقول الله عز وجل عن أهل الجنة[4] بأنهم سوف يتساءلون تساؤل راحة وتنعم عن الفضائل والمعارف، وعما جرى لهم وعليهم في الدنيا، فالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتمًا[5].

فالآية تدل على أن هناك أوقات سمر واجتماع بين المؤمنين من أهل الجنة الذي خلت بالهم من كل المشاغل، فيتخلله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٥١٨.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٧٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٢١.
(٤) تفسير يحيى بن سلام، ٢/ ٨٣١.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٩٢. وانظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٥٩٨.

شراب، وفي وقت الشراب يحلو الحديث والتساؤل، ومن أسئلتهم أنهم يتذكرون أحوالهم في الدنيا، ويكون هذا من تمام النعمة عليهم، ويقول أحدهم: إنه كان لي قرين وصاحب سوء ملازم لي في الدنيا، وكان هذا الصاحب كافر بالبعث، بل منكر له، فهو ينكر على المؤمن إيمانه بالله ، ويوبخه على تصديقه بوعد الله وما أعد للمؤمنين في الجنة. يقول المراغي: «والحديث ذو شجون، فهم يتحادثون في شتى الفضائل والمعارف وفيما سلف لهم من شئون الدنيا، وما أحلى تذكر ما فات حين رفاهية الحال، وفراغ البال، واطمئنان النفس، وخلوّها من المخاوف العاجلة والآجلة»[1].

وتأكد هذا الموقف من خلال قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾ [المدثر:٣٩-٤٠].

فمن تمام نعيم أهل الجنة الذين يجلسون في الغرفات آمنون مكرمون أنهم يتساءلون فيما بينهم عن المجرمين الذين حبسوا في سقر، بسبب تكذيبهم لدعوة الله، ورفضوا الاستجابة لأمر الله عز وجل.

يقول ابن عاشور: «ومعنى يتساءلون يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التّفاعل للدّلالة على صدور الفعل من جانبين، أي: يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضًا عن شأن المجرمين، وتكون جملة ما سلككم في سقر بيانًا لجملة يتساءلون»[2].

وقال تعالى في سورة الطور: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ [الطور:٢٥].

في المقابل نجد أن الله عز وجل يخبرنا عن أهل النار الطغاة المستكبرين الذين كانوا يعدون أنفسهم من الأشراف والرؤساء، يتساءلون فيما بينهم لماذا لا نرى رجالًا كنا نعدهم من الأشرار، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢﴾ [ص:٦٢].

لحظة التذكر هذه تدل على حالة أسف وتوبيخ لأنفسهم ولذواتهم، إذ لم يجدوا المستضعفين والمخالفين والفقراء والمؤمنين بالله عز وجل معهم في جهنم. يقول ابن الجوزي: قال الفراء: «وهذا استفهام بمعنى التعجّب والتوبيخ، والمعنى أنهم يوبّخون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين»[3]. وصدق الله العظيم حين قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾ [ص:٦٤].

قال الرازي معلقًا على الموقفين: «واعلم أنّه تعالى ذكر من أحوال أهل النّار أنواعًا فالأوّل: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٢٥.

(٢) تفسير المراغي، ٢٣/ ٥٩.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٨١.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾ [ص:٥٥]. وهذا في مقابلة قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾ [ص:٤٩]. فبيّن تعالى أنّ حال الطّاغين مضادٌّ لحال المتّقين»[1].

فالمؤمنون لهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ [الكهف:٣١].

والكافرون الطغاة الظلمة لهم نار جهنم يصلونها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف:٢٩].

وعليه فإنه لا بد من تصنيف الناس يوم القيامة ، كل حسب عمله وحسب إيمانه وتقواه، فهو سبحانه يعطينا سؤالًا استفهاميًّا استنكاريًّا فيقول تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾ [القلم:٣٥].

وإجابة الاستفهام معروفة أنهم لا يستوون ؛ فليس المسلمون كالمجرمين. فالسؤال ينكر بشكل بليغ كيف يطالب هؤلاء مساواة المسلم مع المجرم، وكيف يستوي عند هؤلاء من أسلم نفسه لله واتبع منهجه وآمن بربه وبشرعه مع من خرج على منهج الله ورفض اتباعه وعصى وأبى، وأفسد في الأرض...لا يستوون.

أورد عمر سليمان الأشقر توجيهًا منهجيًا لمن توهم أن في النصوص تعارض في موضوع مساءلة الكفار يوم القيامة، قال رحمه الله: «فإن قيل: قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون، فيكف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] مضاد لقوله: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٣] يتناقض مع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون:١٠١] ونحو ذلك من النصوص»[2].

قال القرطبي رحمه الله: «فنقول: ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة:

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم بما لا يحبون بطريقة فيها تقريع

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٤٠٣

(٢) القيامة الكبرى، عمر سليمان الأشقر، ص٢٠٠.

وتوبيخ.

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة.

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي: «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك»[1].

قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنيّة: «أوّل ما تبعث الخلائق على مقدار ستّين سنةً، لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثمّ يؤذن لهم في الكلام فيتكلّمون، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة:١٢] الآية، فإذا أذن لهم في الكلام تكلّموا واختصموا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر:٣١] عند الحساب وإعطاء المظالم، ثمّ يقال لهم بعد ذلك ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾ [ق:٢٨] يعني في الدّنيا، فإنّ العذاب مع هذا القول كائنٌ»[2].

(١) التذكرة في أحوال الموتي وأمور الآخرة، القرطبي، ١/ ٣٢٩.

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ١٧٤.

٤ . السؤال عن الروح.

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء٨٥].

إن الله عز وجل أخبرنا عن الروح بعد أن سئل عنها رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعطنا عن كيفيتها علمًا، يقول أبو الحسن الأشعري: «إن الله لم يخبر عنها ما هي، لا أنها جوهر ولا أنها عرض»[3]. ويقول فهد الرومي: «صرف الجواب عن ماهيتها؛ لأنه ليس من شئون العقل ولا من مداركه»[4].

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله وهو ابن مسعود[5]، قال: (بينما أنا أمشي مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم في حرثٍ، وهو متكئٌ على عسيبٍ، إذ مرّ بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعضٍ: سلوه عن الرّوح، فقالوا: ما رابكم إليه، لا يستقبلكم بشيءٍ تكرهونه، فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله عن الرّوح، قال: فأسكت النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فلم يردّ عليه شيئًا، فعلمت أنّه يوحى إليه، قال: فقمت مكاني، فلمّا نزل الوحي قال: (﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ

(٣) مقالات الإسلاميين، الأشعري، ص٣٣٤.

(٤) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، ٢/ ٧١٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٨/ ٤٠١.
وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٢١٤.

﴿الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥][1].

قال ابن وهبٍ عن مالكٍ: لم يأته في ذلك جوابٌ، وقد قال بكر بن مضر في رواية ابن وهبٍ عنه: إنّ اليهود قالوا: سلوه عن الرّوح، فإن أخبركم فليس بنبيٍّ، وإن لم يخبركم فهو نبيٌّ، فسألوه فنزلت الآية[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبّيّ صلى الله عليه وسلم عن الرّوح، رقم ٢٧٩٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٢١٥.

السؤال عن الجانب التشريعي

القرآن الكريم كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ولهذا فإن آياته في غاية الدقة والإحكام وتشريعاته واضحة بينة فصلها الخبير العليم، من أجل إسعاد البشرية، فكان القرآن العظيم هو المصدر الأول للتشريع، ولأجل هذا ذكر القرآن عددًا من التساؤلات حول الجانب التشريعي كالإنفاق والرزق والمال والخراج والإرث، ثم ذكر القرآن الكريم تساؤلات عن اليتامى والخمر والميسر والمحيض والحلال والحرام وعن القتال في الأشهر الحرم وتقسيم الغنائم. يقول ابن عاشور: وجميع الآيات الّتي افتتحت بيسئلونك هي متضمّنةٌ لأحكام وقع السّؤال عنها فيكون موقعها في القرآن مع آياتٍ تناسبها نزلت في وقتها أو قرنت بها[3].

وتفصيل كل ذلك في المطالب التالية:

١ . السؤال عن الإنفاق.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ١٩٠.

﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة:٢١٩].

يقول الطبري: «يسألك أصحابك يا محمد، أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ وعلى من ينفقونه؟ فقل لهم: أنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفّيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعمتموه بإحسانكم عليه»[١].

فالصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على من ينبغي أن يفضلوا؟ فأعلم الله عز وجل أن أول من تفضّل عليه الوالدان والأقربون[٢].

وفي الآية دلالة على أن المنفق في سبيل الله لا بد أن ييسر الله له من ينفق عليه وعلى عياله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران:١٣٤].

لأنه يقرض الله قرضًا حسنًا، ولن يضيع الله مال من أقرضه ، وصدق الله حين قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [المزمل:٢٠].

كما أن على الناس أن يعلموا أن المال في الحقيقة هو مال الله، ولكنه استخلفه عباده ليرى كيف يعملون.

وقد ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عبّاسٍ: «أنّ نفرًا من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، حين أمروا بالنّفقة في سبيل اللّه، أتوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبيّ اللّه: إنّا لا ندري ما هذه النّفقة الّتي أمرتنا بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فأنزل اللّه في ذلك: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة:٢١٩] وكان قبل ذلك ينفق ماله حتّى ما يجد ما يتصدّق به، ولا ما يأكل حتّى يتصدّق عليه»[٣].

وأورد الطبري بسنده عن السدي قال: «يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وإنما هي النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة»[٤].

٢. السؤال عن الإرث.

قال تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩١.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ٢٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٢/ ٣٨١.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩٤.

﴿مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٦].

ورد في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن جابر بن عبد الله مرض، فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «كيف أصنع في مالي يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيءٍ، حتّى نزلت آية الميراث»[١].

والثاني: أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بابنتين لها، فقالت: يا رسول قتل أبو هاتين معك يوم أحد، وقد استفاء عمهما مالهما، فنزلت، روي عن جابر بن عبد الله أيضاً[٢].

والثالث: أن عبد الرحمن أخا حسان بن ثابت مات، وترك امرأة ، وخمس بنات، فأخذ ورثته ماله، ولم يعطوا امرأته ، ولا بناته شيئا، فجاءت امرأته تشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي.

الإرث: ملك ما يتركه الميت لمن بعده ممن هو أولى به في حكم الله[٣]. أو هو تركة الماضي للباقي[٤] بدون كسب.

قال أبو حيان الأندلسي: روي عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنّه قال في خطبته: «ألا إنّ آية أوّل سورة النّساء أنزلها اللّه في الولد والوالد، والآية الثّانية أنزلها اللّه في الزّوج والزّوجة والأخوة من الأمّ، والآية الّتي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام»[٥].

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي اللّه عنهما، قال: «كان المال للولد، وكانت الوصيّة للوالدين، فنسخ اللّه من ذلك ما أحبّ، فجعل للذّكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكلّ واحدٍ منهما السّدس، وجعل للمرأة الثّمن والرّبع، وللزّوج الشّطر والرّبع»[٦].

٣. السؤال عن اليتامى.

يقول الله تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب عيادة المغمى عليه، رقم ٥٦٥١ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، ٣/ ١٢٠، رقم ٢٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب الفرائض،باب ما جاء في ميراث البنات، ٤/ ٤١٤، رقم ٢٠٩٢.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في الإرواء، ٦/ ١٢٢، رقم ١٦٧٧.

(٣) تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون، إلى آخر سورة السجدة، ص٦٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٢.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ١٥٠ .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧٤٧.

﴿حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾ [البقرة:٢٢٠].

ورد في تفسير عبد الرزاق عن قتادة قال: لمّا نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء:١٠] اعتزل النّاس اليتامى، فلم يخالطوهم في مأكولٍ، ولا مشروبٍ، ولا مالٍ، فشقّ ذلك على النّاس، فسألوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللّه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠][1].

وفي الآية دلالة على أن المقصد الأسمى من هذه الآية هو رعاية شأن اليتيم، والحرص على جلب المنافع له، فمن فعل ذلك فقد تخلق بأخلاق الصالحين والأنبياء ، وأهم موضوع في رعاية اليتيم مخالطته، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ لأن الناس خافوا من التعامل مع اليتامى خوف أكل أموالهم أو ظلمهم، فأخبرهم أن الإصلاح لشأنهم هو الحل، وذلك بكفالتهم ورعاية مصالحهم رعاية شاملة، بدءًا من الإصلاح الإنساني بمراعاة مشاعر اليتيم وإكرامه كإنسان له كيان محترم، ناهيك عن مراعاته كطفل فقد حنان الأبوة أو الأمومة.

ثم الإصلاح الاجتماعي في إيجاد مأوى ومسكن له ، فنحميه من التشرد والنوم في

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٣٤٩.

الطرقات، وكذلك الإصلاح المالي في كل جوانبه، فلا نأكل ماله ظلمًا، ومن فعل ذلك فسوف يعاقبه الله بالنار تأكل بطنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

بل إن القرآن أوصانا بعدم الاقتراب من ماله إلا في مجالات تنميته وزيادته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

لما نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، أشفق المسلمون من خلطة اليتامى فعزلوا لهم بيتًا، وعزلوا طعامهم وخدمهم وثيابهم، فشق ذلك عليهم جميعًا، فسألوا عن ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ الآية[2].

إن السؤال عن اليتامى فيه إضمار ، لأنه تعالى لم يبين في أي حكم[3] لكنه يحتوي على ما يعمل الناس في أموال اليتامى، من المخالطة وأنواع المصالح[4].

وإضماره -واللّه أعلم- أن يقال: يسألونك عن مخالطة اليتامى، يبين ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أن السؤال

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٢٠.

(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٧.

كان عن المخالطة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: هو يعلم حين تخلط مالك بماله فهل نيتك إصلاح مالك أم ماله، ويعلم من يريد أن ينمي مال اليتيم ويربيه أم يفسده.

وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر، نجد أن الخضر عليه السلام يبذل قصارى جهده لبناء جدار في قرية رفضت ضيافته، ونحن نعلم كم في ذلك من مشقة وعنت، لكنه يبين مقصده من أفعاله تلك بأنه فعل ما فعل من أجل يتيمين، ومراعاة لمصالحهما. يقول الله تعالى عنه: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف:٨٢].

٤ . السؤال عن الخمر والميسر.

قال تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة:٢١٩].

يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار، فقل لهما إنّ في تعاطيهما ضررًا عظيمًا وإثمًا كبيرًا، ومنافع مادية ضئيلة، لأنّ ضياع العقل وذهاب المال، وتعريض البدن للمرض في الخمر وما يسببه القمار من خراب البيوت، ودمار الأسر، وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين لا يساوي ما فيهما من نفع قليل تافه[2].

ولهذا من حِكَم تسمية الخمر بهذا الاسم : أنها تستر العقل وتخامره وتخالطه وتغطيه[3].

والسؤال فيه إضمار لأنه تعالى لم يبين أي حكم، فكأنه قال: يسألونك عن شرب الخمر والعمل بالقمار، فقال: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾، وهذا دل على أن السؤال كان عن شرب الخمر والعمل بالميسر[4].

فإذا تعارضت المصلحة والمفسدة روعي أكبرهما، فعطلت المفسدة الكبرى، ولو بإهمال مصلحة لا توازي تلك المفسدة[5].

وفي الآية تأكيد على أن الخمر والميسر إثم، لقوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

وقد حرم الله الإثم، أي: الذنب الذي يؤثم صاحبه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ

(١) المصدر السابق ٢/ ١٢٠.

(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الرحيلي، ٢/ ٧٨٩.

(٣) مناظرة بين الإسلام والنصرانية، مجموعة من العلماء، ص٤٢٥.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ١٢٠.

(٥) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، عبد العزيز آل معمر، ٢/ ٦٨٦.

﴿رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وعلى كل فإنه قد يكون في الشيء المحرم فيه منفعة، ولكن ليس كل ما فيه منفعة يجوز استعماله، وقد قال الله عز وجل في الخمر والميسر: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩] فأخبر أن فيهما منافع، ولكن الضر أكبر ، وهكذا المحرمات، قد ينتفع الزاني بالزنا وهو محرم، فليس كل شيء فيه نفع يجوز فعله، بل يجب على الإنسان أن يتبع شرع الله، في الإباحة والحرمة، والغالب أن ما نهى الله عز وجل عنه ونهى عنه رسوله أن نفعه مستغرق في مضراته، وضره أعظم وأشد وأكثر. ولهذا فإن القاعدة الأصولية تقول: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ ولذلك حرم الله تعالى الخمر مع أن فيه منافع، لكن المفسدة فيه كانت أعظم من المصلحة، ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

فمفاسد الخمر: من زوال العقل وانتشار الفساد والصد عن سبيل الله وعن الصلاة، أكبر من جلب المصلحة الكامنة في الربح الزهيد المترتب على بيع الخمر ونحوه، فيقدم درء المفاسد على المصالح.

٥. السؤال عن المحيض.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

كانت العرب في الجاهلية إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها في بيت ولم يجالسوها على فراش كفعل المجوس واليهود ، فسأل أبو الدحداح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: «يا رسول الله، كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾»[1].

وفي الآية دلالة على أن المراد بالاعتزال عن الحيض جماعهنّ، وذلك أن المجوس واليهود كانوا يجتنبون الحيّض في كل شيء، وكان النصارى يجامعوهن ولا يبالون بالحيض، فأنزل الله تعالى بالاقتصاد بين هذين الأمرين، وخير الأمور أوسطها[2].

لكن مسألة استخدام الحائض ومباشرة بدنها إذا كانت مؤتزرة وبالاستمتاع بها فوق الإزار، فهذا مما أباحه الشرع. وقد دل الأمر باعتزال النساء في المحيض على أن السؤال عن المحيض إنما كان عن الاعتزال، وإن لم

(١) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ١٥٦.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ١٥٨.

يكن في السؤال بيان المراد[1].

ومن الأحكام الخاصة بالرجال في هذه المسألة أنه كره العلماء الصلاة في ثياب النساء، مخافة أن يكون أصابها شيء من دم الحيض[2].

٦. السؤال عن الحلال والحرام.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة:٤].

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك، يا محمد ، أصحابك: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل؟ فقل لهم: أحل لكم منها الطيبات، وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح وأحل لكم أيضًا مع ذلك، صيد ما علّمتم من الجوارح، وهن الكواسب من سباع البهائم[3].

وفي الآية دلالة على أن السؤال الحاصل يتضمن معنى القول، ماذا أحل لنا؟ وكان التفاتًا من الحاضر إلى الغائب للتنبيه ولتوجيه الذهن[4].

والخطاب للنّبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به العرب، وكانت العرب تستقذر أشياء كثيرة فلا تأكلها، وتستطيب أشياء تأكلها فأحلّ اللّه عز وجل لهم ما استطابوه، ممّا لم ينزل بتحريمه تلاوةٌ مثل: لحوم الأنعام وألبانها، ومثل: الدّوابّ الّتي كانوا يأكلونها من الضّباب واليرابيع والأرانب والظباء وغيرها[5].

كما دل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: على أن سؤالهم كان عن الطيبات، ومما يصطاد من الجوارح[6].

فالطيبات هي الحلال وكل شيءٍ لم يأت تحريمه في القرآن العظيم ولا في سنة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما سمي الحلال طيبًا، وإن لم يكن مستلذًا تشبيهًا بما يستلذ[7].

وقال الراغب الأصفهاني: «هو الحلال الذي لا يعقب إثما»[8].

ولا ضرر منه بالبدن والعقل. لكن المسألة الخطيرة هي أنه لا يجوز لنا أن نحكم بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم نبنى على ذلك التحريم والتحليل، فإننا لا نعرف مثلما يعرف خالقنا عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لنا، حتى لا نقع في دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة،

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٣٧٤.
(٢) غريب الحديث، الهروي، ١/ ٣١١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٥٤٣.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ٢٠٣٦.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ٣٠.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٥٦.
(٧) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ١٤.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني، ٤/ ٢٧٠.

كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم والخمور[١].

ورد في سبب نزولها أن زيد بن الخيل الطّائي، وعدي بن حاتم الطّائي سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا: إنّا نصطاد بالكلاب، فماذا يحل منه وما يحرم؟ فنزلت الآية[٢].

قال ابن تيمية: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] جاء بعدها، قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

فأخبر أنّه أحلّها ذلك اليوم، وسورة المائدة مدنيّةٌ بالإجماع، وسورة الأنعام مكّيّةٌ بالإجماع، فعلم أنّ تحليل الطّيّبات كان بالمدينة لا بمكّة[٣].

يقول رشيد رضا مؤكدًا هذه القاعدة الأصولية: «إنه من المعلوم أنّ الله سخّر هذه الأرض وما فيها للنّاس ينتفعون بها، وإنّما المحظور عليهم هو ما يضرّهم ، ولكنّ النّاس لا يقفون عند حدود الفطرة، بل دأبهم الجناية على فطرتهم، ومن ذلك أنّ العرب استباحت أكل الميتة والدّم المسفوح من الخبائث الضّارّة، وحرّمت على أنفسها بعض الطّيّبات كالبحيرة والسّائبة وغير ذلك، ولأجل هذا كانت الحاجة قاضيةً ببيان ما يحلّه الله وما حرّمه ممّا أحلّوه، وذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾»[٤].

إن صيغة المضارع المستعملة هنا للدلالة على تجدد السؤال، أي تكرره أو توقع تكرره ، وعليه فوجه فصل جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أنها استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣].

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣] ، أو هي استئناف ابتدائي: للانتقال من بيان المحرمات إلى بيان الحلال بالذات، وإن كان السؤال لم يقع، وإنما قصد به توقع السؤال، كأنه قيل: إن سألوك عن كذا فجوابه كذا لتوقع السؤال[٥].

يقول أبو حيان الأندلسي: «والظّاهر أنّ المعنى: ماذا أحلّ لهم من المطاعم، لأنّه لمّا ذكر ما حرّم من الميتة وما عطف عليه من الخبائث، سألوا عمّا يحلّ لهم؟ ولمّا كان يسألونك الفاعل فيه ضميرٌ غائبٌ قال لهم بضمير الغائب»[٦].

وقوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ﴾؟ استفهام معلّق للسؤال، وإن لم يكن السؤال من أفعال القلوب إلاّ أنّه كان سبب العلم، والعلم يعلق، فكذلك سببه[٧].

(١) تفسير الشعراوي، ٥/ ٢٩٣٢.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ١٢.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ١/ ١٦٢.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ١٤٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٣٦.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ١٧٨.
(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٧/ ٢٠٣.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

قال الماتريدي: «اختلف في هذه الآية: هذا المسألة من المسائل التي وقعت ثم أجاب الله عنها، وكان الجواب ملتصقًا بالسؤال، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤].

والله لم يتكلم بهذا الجواب في القرآن قبل أن يسألوا، بل بعد أن سألوا»[1].

وأما القول في قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: كأنهم سألوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم عما يحل من الجوارح؛ فذكر ذلك لهم، مع ما ذكر في بعض القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب، فأتاه أناس، فقالوا: ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية[2].

قال الشّافعي رحمه الله: «أصل التحريم، نص كتاب، أو سنّة، أو جملة كتاب، أو سنّة، أو إجماع. قال اللّه عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] الآية. وإنّما تكون الطّيّبات والخبائث عند الآكلين كانوا لها، وهم العرب الّذين سألوا عن هذا، ونزلت فيهم الأحكام، وكانوا يكرهون من خبيث المآكل ما لا يكرهها غيرهم»[3].

وقال ابن كثير: «إنّ آية التّحريم، أعني قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣] إلى آخرها، محكمةٌ لم يدخلها نسخٌ ولا تخصيصٌ، وكذا ينبغي أن تكون آية التّحليل محكمةٌ، أعني قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] فينبغي ألّا يكون بينهما تعارضٌ أصلًا وتكون السّنّة جاءت لبيان ذلك»[4].

٧. السؤال عن القتال في الشهر الحرام.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧].

يسألونك يا محمد أصحابك عن قتال في الشهر الحرام وهو رجب[5]. فقل يا محمد إن القتال فيه واستحلال الدم وسفكه فيه عظيم عند الله[6].

(١) شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين، ص٤١٨.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٥٧.
(٣) الأم، الشافعي، ٢/ ٢٧١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩٩.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٠.

لكن الصد عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم عنه إذ أنتم أهله وولاته، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم[1].

وفي الآية دلالة على أن ظاهرها يحرم القتال في أشهر الحج، لكن فيه دليل على حل القتال بقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧].

والفتنة الشرك، أي : إن الشرك فيه أكبر وأعظم من القتل[2].

أنّ رجلًا من بني تميم أرسله رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في سريّة، فلقي ابن الحضرميّ يحمل خمرًا من الطّائف إلى مكّة فرماه بسهم فقتله، وذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة وأوّل يوم من رجبٍ، وكان بين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبين قريشٍ عهدٌ، فقالت قريشٌ: أفي الشّهر الحرام قتلتم ولنا عهدٌ؟ فأنزل اللّه عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧] إلى قوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢١٧] يقول: كلّ هذا أكبر من قتل ابن الحضرميّ، ثمّ قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ [البقرة:٢١٧]. يعني: الكفر باللّه، وعبادة الأوثان أكبر من هذا كلّه[3].

(١) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٥.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٦٥.

(٣) تفسير مجاهد، ص٢٣١.

فهذه القضية أظهرت قضيتين:

الأولى: القتال في الأشهر الحرم وحرمة القتال فيه.

والقضية الثانية: متعلقة في الكفر بالله عز وجل والصد عن سبيله وإيذاء العباد والبلاد لدرجة الفتنة عن الدين وإخراج الناس من أوطانهم وديارهم.

فهذا السؤال أجاب عن هذه المعادلة بشكل جريء وبين أن الصد عن سبيل الله وفتنة الناس عن دينها أعظم حرمة من التستر وراء حرمة القتال في الأشهر الحرم. إنها واقعية الإسلام العظمى التي لا تخدم المثاليات الميتة، بل هي الحلول المناسبة لكل حالة ولكل موقف ولكل ظرف، فلكل حادثة سياقها الذي خرجت منه ولا يجوز الحكم عليها بحكم التاريخ.

٨. السؤال عن تقسيم الغنائم.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال:١].

السؤال عن الغنائم يحتمل وجهين:

الأول: يحتمل أنهم سألوا عن حلها وحرمتها؛ لأنها كانت لا تحل في الابتداء.

والثاني: يحتمل السؤال عن قسمتها، وهو ما روي في بعض القصة أن الناس كانوا يوم بدر ثلاثة أثلاث: ثلث في نحر العدو،

وثلث خلفهم ردءًا لهم، وثلث مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يحرسونه، فلما فتح اللّه عليهم اختلفوا في الغنائم، فقال الأوائل: نحن أحق بالغنائم، نحن ولينا القتال، وقال من كان ردءًا لهم: لستم بأولى بها منا، وكنا لكم ردءًا، وقال حرس رسول اللّه: لستم بأحق بها منا، كنا نحن حرسًا لرسول اللّه فتنازعوا فيها إلى رسول اللّه، فنزل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١](١).

وفي الآية دلالة على أن سؤالهم يتضمن العطاء، فكأنهم يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: أعطنا، لكن الله جعل الخمس مخصوصًا لأهله صلى الله عليه وسلم، وذلك على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال:٤١] ، فقد بين أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قسم هذا الخمس على خمسة أنصباء، خمسٍ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخمس ليتامى المسلمين لا ليتامى آل النبي صلى الله عليه وسلم ، وخمس في المساكين - مساكين المسلمين لا مساكين النبي صلى الله عليه وسلم وخمس لابن السبيل.

قال الشّافعي رحمه الله: « قال محمد بن إسحاق: سئل عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، انتزعه اللّه منا حين اختلفنا، وساءت أخلاقنا، فجعله اللّه عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم يجعله حيث شاء»(٢). أي: كانت غنائم معركة بدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء، بعد أن سلمها المسلمون وردها صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على فقرائهم.

هذه الحادثة حصلت للصحابة بعد معركة بدر الكبرى، والتي كانت بلا شك مفصلًا عظيمًا في تاريخ هذه الأمة بل كانت أعظم معركة في تاريخ الإسلام، ولهذا سميت بيوم الفرقان، الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنتجت أعظم رجال بعد الأنبياء، وساهمت في تحرير الإنسانية من عبادة العباد إلى عبادة الله عز وجل ، وهذا السؤال القرآني في بداية سورة الأنفال جاء ليبين لنا الحالة البشرية بكل رغباتها وشهواتها الفطرية التي لا تغيب عن الصحابة رغم معاشرتهم الطويلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اختلفوا على سيف ورمح ودرع ؛ ولهذا جاء العتاب من رب الأرباب وأسند الأمر إلى الله ورسوله.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١/ ٣١٨.

(٢) الأم، الشافعي، ٧/ ٣٥٣.

السؤال عن الجانب الإخباري

يتناول هذا المبحث ثلاث قضايا إخبارية تاريخية لكنها في غاية الأهمية:

القضية الأولى السؤال عن أصحاب الكهف وبيان سر هروبهم من بلدتهم التي كانوا يسكنون فيها إلى كهف مظلم، تاركين المال والجاه والغنى والسلطان والطعام والشراب والنوم الهنيء إلى حيث لا مال ولا جاه ولا طعام بل ظلام ونوم على التراب.

أما السؤال الثاني فكان عن قضية إخبارية عن ملك عادل متواضع، يجوب الأرض شرقًا وغربًا، لا هم له سوى مساعدة الناس وإنقاذهم من الجهل والعدوان والظلم.

أما السؤال الثالث، فكان عن قصة نبي ورسول من أولي العزم، ظن في وهلة أنه أعلم الأرض، فأخبره الله تعالى أن هناك من هو أعلم منه، فأظهر حرصه العظيم على اتباع ذلك العالم الذي آتاه الله عز وجل من لدنه علمًا، رغم بعد المسافة بينهما.

والمدقق يجد أن المقصد من هذه الأسئلة أن تكون دليلًا قويًا على صدق نبوة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

والمطالب المتعلقة بهذا المبحث:

١ . السؤال عن أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ ﴾ [الكهف: ٩-١٤].

ثم قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ ﴾ [الكهف:١٩].

ذكر محمّد بن إسحاق سبب نزول هذه القصّة مشروحًا ، فقال كان النّضر بن الحارث من شياطين قريشٍ وكان يؤذي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث رستم وإسفنديار، وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسًا ذكر فيه اللّه وحدّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النّضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا واللّه يا معشر قريشٍ أحسن

حديثًا منه، فهلمّوا فأنا أحدّثكم بأحسن من حديثه، ثمّ يحدّثهم عن ملوك فارس، ثمّ إنّ قريشًا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيطٍ إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمّدٍ وصفته وأخبروهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتّى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمّدٍ ، فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاثٍ: عن فتيةٍ ذهبوا في الدّهر الأوّل ما كان من أمرهم فإنّ حديثهم عجبٌ، وعن رجلٍ طوّافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الرّوح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبيٌّ وإلّا فهو متقوّلٌ، فلمّا قدم النّضر وصاحبه مكّة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمّدٍ، وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (أخبركم بما سألتم عنه غدًا) ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلةً حتّى أرجف أهل مكّة به، وقالوا: وعدنا محمّدٌ غدًا واليوم خمس عشرة ليلةً فشقّ عليه ذلك، ثمّ جاءه جبريل من عند اللّه بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة اللّه إيّاه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرّجل الطّوّاف»[(١)].

يقول فخر الدين الرازي: «اعلم أنّ القوم تعجّبوا من قصّة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرّسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنّهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبنّ ذلك فإنّ آياتنا كلّها عجبٌ، فإنّ من كان قادرًا على تخليق السموات والأرض ثمّ يزيّنها ثمّ يجعلها بعد ذلك صعيدًا جرزًا خاليةً عن الكلّ كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفةٍ مدّة ثلاثمائة سنةٍ وأكثر في النّوم، هذا هو الوجه في تقرير النّظم، واللّه أعلم»[(٢)].

وقد اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف، فقال بعضهم: أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملك عابد وثن، دعاهم إلى عبادة الأصنام، فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستخفوا منه في الكهف[(٣)].

والفتية: جمع فتى، والفتى: بمعنى الكامل من الرجال[(٤)]. قال سهل: إنما سماهم فتية لأنهم آمنوا به بلا واسطة، وقاموا إليه بإسقاط العلائق عن أنفسهم[(٥)].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٧٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٠٥.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٦٦.
(٥) تفسير التستري، ١/ ٩٧.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف:١٩] بعثهم الله عز وجل من رقدتهم ونومهم الذي يشبه الموت؛ وحفظ أجسادهم وأشعارهم وأبشارهم وثيابهم، حيث لم يفقدوا رغم طول الزمان جزءاً من أحوالهم وهيئاتهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين[1]، فحفظهم من البلى على طول الزمان[2]، لما علم ما يكون منهم، وهو التساؤل[3].

ويسأل بعضهم بعضًا عن مقدار نومهم، واللام في: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ لام العاقبة، كاللام في: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]؛ لأنهم لم يبعثوا لمجرد السؤال[4]، لكنهم سألوا ليعرفوا عظيم قدرة الله فيزدادوا يقينًا في إيمانهم ؛ إذ لبثوا مدة عظيمة من الزمان وهيئهم وثيابهم لم يتغيرا[5]. فالمقصود من التساؤل إظهار القدرة الإلهية على الإنامة والبعث جميعًا[6].

والتساؤل الذي حصل مداره أن واحدًا منهم قال: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩] فأجابه واحد منهم على سؤاله قائلًا: لبثنا يومًا؛ لأنه أطول مدة النوم المعهود، فلما رأى الشمس لم تغرب قال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم أنيموا أول النهار ونبهوا آخره[7]. فكأنه حصل بينهم تنازع واختلاف في حقيقة مدة اللبث في الكهف.

وهذه الحالة مشابهة لقصة العزير، حين قال الله تعالى عنه: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

٢ . السؤال عن ذي القرنين.

قال الله عز وجل في كتابه العزيز يصف ذي القرنين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٣-٨٥].

وفي الآية دلالة على أن القرآن العظيم لم يؤرخ لهذا الزعيم التقي الراشد، ولم يقم له تمثالًا، إنما ركز على الأوصاف التي تعني الحق وتعني الخلق. فيكفي أن نعلم أنه إنسان مكّنه الله في الأرض ، يعني: أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة، وأعطاه من كلّ مقوّمات القوة: أعطاه المال والعلم والجيوش، فلم يكتف بذلك كله، بل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٤٥ .
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٥٩ .
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧/ ١٥١ .
(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٥٩.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٦/ ٤٣٤٦.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٩١.
(٧) النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٢٩٣.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٥].

يعني: أخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى الخير. من جهة أخرى فإن القرآن وهو يحدثنا عن شخصيات الأبطال في قصص؛ لم يهتم بمسألة تأريخ عريق لهذه الشخصيات، ولم يعطها أي نوع من الخصوصية ؛ بل أرادها أن تكون شخصيات عامة لتكون مثلًا يحتذى، ويتم بها الاعتبار، وتحدث الأثر المراد من القصة ، ولو تم تشخيصهم وتعيينهم لقال الناس: إنها حادثة خاصة بهؤلاء، أو أنهم نماذج لا تتكرر؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأسوة تسير في الزمان كله.

إن التمكين لذي القرنين كان بمنحه الأسباب التالية:

١. **التمكين بالعلم والتدبير وحسن التصرف**: أعطاه من العلوم ما يجعله قادرًا على استقراء سنن الأمم صعودًا وهبوطًا ، وزوده الله بعلم منازل الأرض وعرفه ألسنة الأقوام، فكان لا يغزو قومًا إلا خاطبهم بلسانهم ، ويقول خير يوسف: «أي جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار»[(١)].

٢. **التمكين بكثرة الأعوان والجنود وأسباب القوة**: إن التمكين بكثرة الجنود أسهم في إلقاء الرعب في نفوس الأعداء، الأمر الذي سهل لذي القرنين فتح المشرق والمغرب حتى خضعت له الملوك والشعوب ، وكانت العلاقة الطيبة بينه وبين الرعية أثر بالغ في تنفيذ المشاريع التي خطط لها من فتح البلاد وإقامة السدود وضرب الأعداء ،كما أن الله أكرم ذي القرنين حيث «مكن له في سياسة النفوس أفرادًا وجماعاتٍ تهذيبًا وتربية وانتظامًا»[(٢)].

٣. **التمكين في أسباب العمران والحضارة**: مكن الله لذي القرنين من خلال ما زوده به من قوة وعلم في بناء الحضارات، «فخطط للمدن وشق القنوات وبنى السدود ونمى الزراعة»[(٣)].

٣. السؤال عن موسى وصاحبه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

(١) ذو القرنين، القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص٣٠٤.

(٣) المصدر السابق.

﴿نَسِيَتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٠ - ٦٥].

من الواضح أن موسى عليه السلام استخدم السؤال ليعرف مكان الخضر عليه السلام ويتعلم منه، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فمرّ بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ فقال أبي: نعم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه يقول: (بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدًا أعلم منك؟ فقال موسى: لا فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى عبدنا خضر. فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه... الحديث)[1].

كما استخدم عليه السلام السؤال في اتباعه الخضر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

قال القرطبي في تفسير الآية: «هذا سؤال الملاطف المستنزل المبالغ في حسن الأدب، والمعنى هل يتفق لك ويخف عليك»[2].

وقد استخدم نبي الله موسى عليه السلام السؤال هنا لتحقيق أغراض ،منها: الاتباع، والتعلم الراشد.

إن طلب الخضر من نبي الله موسى عليه السلام أن لا يسأله عن شيء حتى يبينه له، يدل على أن السؤال من الوسائل المهمة لمعرفة أسباب القيام ببعض الأمور التي لا يرى لها حكمًا ظاهرة، فيجلي أسرارها وخفاياها.

كان السؤال وسيلة موسى عليه السلام الوحيدة التي استخدمها للتعبير عن إنكاره لما يجرى أمام عينيه، لأنه في تصوره تعدٍّ وظلم في الظاهر، ولهذا كثرت أسئلته الإنكارية التي أوردها القرآن كما جاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

فموسى عليه السلام بشخصيته التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، رقم ٧٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ١٧.

لا تتحمل القهر لم يصبر ، على تصرفات الخضر، أكثر من الأسئلة بطريقة منكرة، وهذا يدل على فاعلية السؤال وقوة تأثيره في القصة، إذ أثمر معرفةً وفهمًا وتفسيرًا لأمور كانت أسبابها غامضة وغير معروفة وغير ظاهرة للعيان.

وفعل موسى عليه السلام يدل على الآتي: على أنه لا ينبغي لأحد ترك طلب العلم والازدياد منه والرحلة فيه وإن كان قد بلغ فيه مبلغه ، ويدل على وجوب التواضع لمن هو أعلم منه[1] .

وفي الآيات دلالات على أن الاشتغال بالنوافل وترك التعلم، يورث الجهل ، وهذا يتنافى مع مقصد الشريعة التي تأمر أصحابها بزيادة العلم، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجعل من دعائه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وقال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

وقال تعالى حاثا الأمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢].

ومن دلالات الآيات أن موسى عليه السلام لما اجتمع بصاحبه، تواضع له كما يتواضع التلاميذ لأساتذتهم، واتبعه في صورة مستفيد منه، وهذا مما يدلّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، لكن الله عز وجل قد خصّ صاحب موسى عليه السلام من العلوم اللدنيّة والأسرار النبويّة بما لم يطلع الله عليه نبيه موسى الكليم عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦] دلالة على أن موسى عليه السلام أفضل من صاحبه، وأن الخضر لن يفضل موسى أبدًا، ومع ذلك لما آتاه الله شيئًا من العلم سأله سؤال المتأدب المتلطف معه.

وقد وجه القرآن الكريم المتعلمين إلى الحرص على السؤال والتعلم حتى لو كان من يتعلم منه أقل فضلًا ممن يتعلم، فنبي الله موسى عليه السلام كان حريصًا على التعلم من الخضر مع كونه أفضل منه.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

قال الرازي: «إن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه، ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له»[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذه تدل على أن

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٦/ ٤٤٢٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ١٣٥.

موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب عندما أراد أن يتعلم من الخضر، حيث جعل نفسه تابعًا ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف:٦٦].

وثانيها :أنه استأذن في هذه التبعية، هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك ، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع»[١].

وأن الأمور لا تجري أو تقاس على حسب الظاهر منها، بل ربما يكون الأمر على خلاف الأمر الظاهر ، فلا نستعجل بالأحكام على الخلق ، وأن على المسلم أن يعتقد دائمًا أن هناك من هو أعلم منه، وهذا نتعلمه من موقف موسى عليه السلام حين سئل عن هذا الموضوع، فأجاب: ليس على الأرض من هو أعلم مني - ولم يستثن - ولم يقل: إن شاء الله ، فأوحى الله إليه أنه يوجد من هو أعلم منك في الأرض في مجمع البحرين.

ولقد دلت هذه القصة على مشروعية الصحبة في طلب العلم، وهذا ما فعله موسى عليه السلام حين خرج ومعه فتاه.

إن القرآن الكريم لم يخبرنا عن اسم صاحب موسى عليه السلام، لتبقى سلسلة المفاجآت المتوالية هي المسيطرة على هذا الجو الغامض الذي أحاط بسيدنا موسى عليه السلام، قال سيد قطب: «إنما يراد به أن يمثل الحكمة الكونية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة»[٢].

(١) المصدر السابق ٢١/ ١٣٧.

(٢) التصور الفني في القرآن، سيد قطب، ص١٨٤.

السؤال عن المخلوقات الكونية

في هذا المبحث سوف ينحصر الحديث عن سؤالين في القرآن الكريم، وهما سؤال عن الأهلة وسؤال عن الجبال، والمدقق يجد أنهما مخلوقات كونية لها تأثير بالغ في حياة الناس، وخصوصًا الهلال الذي عبر عنه بالجمع رغم أنه واحد، وذلك لعظم فوائده ، وملخص الأمر يدور على أن المرء لا بد أن يسأل عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه. وهذا المبحث له مطلبان:

١ . السؤال عن الأهلة.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

روي عن معاذ بن جبلٍ، وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثمّ يزيد؛ حتّى يمتلىء ويستوي، ويستدير، ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدأ، لا يكون على حالةٍ واحدةٍ؛ كالشّمس، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[1].

ثم معنى السؤال عن الأهلة : هو أنهم لما رأوا الشمس تطلع دائمًا على حالة واحدة، ورأوا القمر مختلف الأحوال فحملهم ذلك على السؤال عن حال القمر، فأخبر عز وجل أنه جعل الهلال معرفًا للخلق الأوقات ومعرفة وقت الحج ، وعدة النساء وتعرف الشهور، ورمضان ونعرف شهر الحج، وآجال العقود في البيع والإيجار، وسداد الديون وأوقات الزرع، إلخ، لأنه لو جعل معرفة ذلك بالأيام لاشتد حساب ذلك عليهم، ولتعذر معرفة السنين والأوقات بالأيام ، فجعل عز وجل بلطفه وبرحمته، الأهلة ليعرفوا بذلك الآجال، ويعرفوا وقت الزكاة؛ طلبًا للتخفيف والتيسير عليهم[2]. وقيل: إنهم لمّا سألوا عن شيء قليل الجدوى أجيبوا بما فيه فائدةٌ، وعدل عن سؤالهم إذ لا فائدة فيه[3].

وفي الآية دلالة على أن المرء لا بد أن يسأل عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه. فالجواب عن الأهلة بهذا الشكل أفاد بأن السؤال عن سر الاختلاف، ليس فيه منفعة شرعية، وإنما ينبغي الاهتمام بما فيه منفعة دينية[4]. وشاهده في السنة قوله صلى الله عليه وسلم: (من حسن إسلام المرء تركه

(١) انظر: أسباب النّزول، الواحدي، رقم ١٠٩، الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٩٠.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٦٠.
(٣) غرائب التفسير، الكرماني ١/ ٢٠٢.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٢٣٩.

ما لا يعنيه»[1]. كما أفادتنا الآية الشهور القمرية لها فوائد عظيمة، إذ بها تعرف كثير من العبادات، وما سمّي الهلال هلالًا إلا لأنه حين يرى يهل الناس بذكر الله[2]، وقيل: هو من البيان، أي: لظهوره وقت رؤيته بعد خفائه، ولذلك يقال: تهلّل وجهه: ظهر فيه بشرٌ وسرورٌ[3]. فالهلال ليلتان من أول الشهر أو ثلاث، وما بينهما «قمرٌ»[4]. ويقال له: «بدرٌ» من ١٢ إلى ١٤ [5]، ولقد جمع الهلال، رغم إفراده؛ اعتبارًا باختلاف أزمانه ، وعلى اعتبار أنه هلالًا في شهر غير كونه هلالًا في آخر[6]. إن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل، عليها السلام ، فأما عند اليهود والنصارى، فليس الأمر كذلك، فالسنة عندهم شمسية.

ويؤيد هذا تجريد الجواب من كلمة قل التي ذكرت في مواقع السؤال من القرآن نحو: مع ما في هذا النظم العجيب من زيادة إخراج الكلام في صورة الحكم الكلي ؛ إذ جاء بحكم عام في سياق الشرط فقال: ﴿سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ ولو قيل: وليدعوني فأستجيب لهم لكان حكمًا جزئيًّا خاصًّا بهم، فقد ظهر وجه اتصال الآية بالآيات قبلها ومناسبتها لهن وارتباطها بهن من غير أن يكون هنالك اعتراض جملة»[7].

٢. السؤال عن الجبال.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال مقاتل: «نزلت في رجال من ثقيف[8] أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا محمد: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فنزلت هذه الآية»[9]. وزاد ابن عاشور فقال: «وثقيف أهل جبالٍ لأنّ موطنهم الطّائف وفيه جبل كرى، وسواءً كان سؤالهم استهزاءً أم استرشادًا، فقد أنبأهم اللّه بمصير الجبال إبطالًا لشبهتهم وتعليمًا للمؤمنين»[10].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ٢/ ١٣١٥.رقم ٣٩٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢٧، رقم ٥٩١١.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٨٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٣/ ٣٣٢.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١١٢.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٣/ ٣٣٢.
(٦) المصدر السابق.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ١٧٦.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤١.
(٩) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٧٦.
(١٠) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٦/ ٣٠٧.

مقاصد السؤال وآدابه

أولًا: مقاصد السؤال:

يمكن تحديد مقاصد السؤال من خلال النقاط التالية:

١ . التعنت.

وهو طلب العنت وهو المشقّة[١].

وقال ابن منظور: « أصل التعنت التشديد»[٢]، وإدخال المشقة والأذى على الغير[٣]. ومنه سؤال اليهود النبي الكريم عن الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥].

حيث كانوا يقصدون من مسائلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم المزلة والإنقاص. ولذلك يقال لكل من يتعنت في السؤال فإنه يطلب مزلته[٤]، وإيذاء المسؤول وإدخال المشقة عليه، ووضح كذلك من سؤال بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان:٢١].

فقد سألوه سؤال تعنت، لا سؤال مسترشد ، والأمثلة على التعنت كثيرة، ومنها ما فعلته قريش عندما طلبت من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات

(١) انظر: طلبة الطلبة، النسفي، ص٢٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٦١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٠٢.
(٤) شمس العلوم، الحميري، ٧/ ٤٨٠٠.

وآيات اقترحوها، ولو تدبرت قريش كلام الله لوجدوا في القرآن المسطور وفي الكون المنظور أضعافًا مضاعفة من هاته الآيات التي طلبوها.

قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٢ . الاحتجاج.

وهو الاستقامة في النّظر سواء كان من جهة ما يطلب معرفته أو من جهة غيره[٥].

وغالبًا يصدر عن المشركين، على خصمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجّة. ومثاله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

والحجة من الاحتجاج، قال اللّه تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة:١٥٠].

وفي الآية: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص:٢٣]. أي: غلبني في الاحتجاج[٦].

(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٠.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٧٨.

ومن أضداده الاعتلال، وهو الاحتجاج بما ليس حجة[1]، وفي حديث الدّجّال: (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه)[2]، أي: مغالبه بإظهار الحجّة عليه[3].

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩].

قال ابن عطية: « سؤال موجه للرسل والهدف منه: « لتقوم الحجة على الأمم ويبتدأ حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور»[4].

يقول الماتريدي: « إنه سبحانه « يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى قومهم، ويسأل قومهم عن إجابتهم لهم؛ ليقطع احتجاجهم، وإن لم يكن لهم الحجاج»[5].

٣. الاستهزاء.

يقول الله تعالى مخبرًا عن استهزاء وسخرية كفار قريش من المؤمنين: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

وكسؤال المنافقين تهكمًا وتكبرًا وتبخترًا، ومثاله ما رواه البخاري عن أبي موسى، قال: (سئل النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها، فلمّا أكثر عليه غضب، ثمّ قال للنّاس: (سلوني عمّا شئتم) قال رجلٌ: من أبي؟ قال: (أبوك حذافة) فقام آخر فقال: من أبي يا رسول اللّه؟ فقال: (أبوك سالمٌ مولى شيبة) فلمّا رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول اللّه، إنّا نتوب إلى اللّه عزّ وجلّ)[6].

وتعليق الاستهزاء بالله عز وجل مجازٌ جلّ ربّنا عن الاستهزاء ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥] أي: يجازيهم على استهزائهم..

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

أورد الطبري بسنده عن قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها! فأطلع الله نبيه

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم٢٩٣٧.
(٣) تاج العروس، الزبيدي، ٥/ ٤٦٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٥٦.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٦٤٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، رقم٩٢.

صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: عليّ بهؤلاء النفر! فدعاهم فقال : (قلتم كذا وكذا) ! فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب![1].

٤ . الاسترشاد.

أصله أن يسأل الرجل من يرشده، وهذا مقصد المؤمن من أسئلته، فمقصده من سؤاله الاسترشاد، ومعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى، وأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم في المسائل ليعمل بها ، ومثّلوا لسؤال الاسترشاد الذي من هذا القبيل بسؤال الملائكة إذ قالوا لربّهم كما جاء في سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة:٣٠].

وقد يطرح المتكلم سؤالًا استفهاميًا ظاهره يشعر بالاستشكال أو الاعتراض، وغرضه الاسترشاد، ويمكن أن نعتبر من الأمثلة على هذا أسئلة موسى للخضر في اعتراضاته على تصرّفاته، كما أبان الله لنا في سورة الكهف، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ٧١﴾ [الكهف:٧١].

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤.

٥ . التقرير.

وهو تحصيل ما لم يصرح به القول[2]، يراد منه أن يكون المسؤول متيقظًا لما يراد به من الاطلاع عليه، كما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه:١٧][3]. ومنه الطلب من القوم الإقرار بالشيء.

قال الماتريدي: «وهو كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

هذا السؤال تقريري لا غير؛ لأنه كان يعلم أنه لم يقل لهم ذلك، لكنه سألهم تقريرًا؛ ليقروا بذلك؛ لئلا يقولوا: هو قال لهم ذلك»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ٤٩﴾ [الزخرف:٤٩] أسلوب إنشائي في صورة نداء غرضه التقرير. وكقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

٦ . الامتحان.

وهو من المحن[5]، وهو الاختبار.

قال تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

وذلك حتى تظهر حال المسؤول على

(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ص٦٤.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٢٤٨.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٣٦٠.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٢٤٨.

حقيقتها فيعترف بقصوره عن الإحاطة بالأشياء، كفعل الملائكة عند قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[البقرة:٣١].

بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢][1].

٧. التعجب والبراءة.

وهو استعظام شيء زائد على غيره لمزيّة فيه[2]، وذلك حين يكون السؤال بريئًا غير موجه بهدف أو مقصد، وليس المقصود منه الإساءة والشتم والإغاضة، بل المقصود الإيضاح حول موضوع معين تعجب منه. ومن التعجيب قوله جلّ ثناؤه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

وكذلك يمكن تمثيله بسؤال زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام حين وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧].

فعندها قال زكريا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧].

ومثله كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ [يس:٧٧].

(١) شمس العلوم، الحميري، ٩/ ٦٢٣٨.
(٢) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، محمد علي السراج، ص١١٨.

يقول الواحدي: «ألا يرى أنه مخلوق من نطفة، ثم هو يخاصم! وهذا تعجيب من جهله، وإنكار عليه خصومته، أي: كيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع خصومته»[3].

ومعنى الكلام: التعجّب من جهل هذا المعاند الألد المكابر المخاصم في إنكاره البعث ، فالكلام يفهم حالة من التّعجيب الشديد من تطوّر الإنسان من أمهن حالةٍ إلى أبدع حالةٍ ، وهي حالة الخصومة والإبانة النّاشئتين عن التّفكير والتّعقّل، والدّلالة على كفرانه النّعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه[4].

ثانيًا: آداب السؤال:

هناك عدد لا بأس من الآداب تتعلق بالسائل تجاه المسؤول، نختار منها الآتي:

١. مراعاة المناسبة وعدم إيذاء العلماء بمضايقتهم في أوقاتهم وحسن اختيار مكانه.

فاختيار الوقت ومكانه الذي يتفرغ فيه المسؤول أمر في غاية الأدب، فلا تشغل المفتي وهو مشغول أو نائم ، فيتصل به تلفونيًا قبل الفجر أو بعده ، فهذا لم ترع المناسبة والأعراف ، لهذا أدبنا الله عز وجل أن نستأذن قبل أن نلج الأماكن الخاصة بالآخرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(٣) الوسيط، الواحدي، ٣/ ٥٢٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٠٣.

﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور:٥٨].

٢. أن يكون السؤال استفهاميًا وليس إنكاريًّا أو تعجيزيًّا.

ولهذا كانت أسئلة الصحابة للنبي الكريم ضمن الأسئلة الاستفهامية وليس التعجيزية، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

٣. معرفة مقام من تسأل، فإن غاب عن السائل مقام المسؤول ربما قل أدبه، وكان سؤاله تعجيزيًّا.

ولو كانت يهود أو قريش تعرف مقام ربها ومقام نبيها ما سألت رسول الله إنزال كتاب من السماء، ولهذا جاء الخطاب القرآني مستهجناً هذه الطريقة في السؤال، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣].

٤. الاختصار في السؤال.

وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة:١٢].

وقت النبي الكريم ليس كوقت واحد من المسلمين، فإن كثرت المناجاة وكثرت المسائل زاد التكليف وعظمت المشقة، ولهذا كان لا بد من منهج يحدد التعامل مع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في عرض المسائل، قال فخر الدين الرازي، «قال ابن عبّاس: إنّ المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتّى شقّوا عليه، وأراد اللّه أن يخفّف عن نبيّه، فلمّا نزلت هذه الآية شحّ كثيرٌ من النّاس فكفّوا عن المسألة»[(١)].

٥. جمال العبارة والأسلوب اللطيف.

لا بد للسائل أن تكون عبارته جميلة ومحتشمة مليئة بالتلطف والأدب، وتراعي نفسية المسؤول، وفيها هيبة للعالم الذي يسأل، وخالية من العبارات السوقية ، بل ينادي المفتي بم يليق به من مقام، وقد كان موسى عليه السلام في غاية التلطف عند سؤال الخضر في اتباعه والتعلم منه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٩٥.

٦. الوضوح وتجنب الغموض والإبهام في السؤال.

ففي أحيان كثيرة، يكون السؤال غامضًا غير واضح في طرحه، مبهم في إلقائه مما يؤدي إلى إحراج المسؤول. لأنه قد يجيب عن شيء غير ما قصده السائل، فعندها يقول: سألت العالم الفلاني فأجابني عن مسألتي بالطريقة التالية، لكن قصد المسؤول كان غير قصد السائل فيكون التباسًا للجميع ، وهذا مأخوذ من سؤال يهود النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

فالروح كما نعلم موجود خفي، والسؤال عنه بهذا الشكل أمر غير لائق ؛ لأنه غامض بل في غاية الإبهام، ولذلك كان القصد منه تعجيزي بحت.

٧. أن لا يضرب أقوال أهل الذكر من العلماء بعضها ببعض.

فهو يسمع من واحد، فيجيبه، فلا يقتنع ثم يسأل عالمًا آخر، فيجيبه ربما بجواب آخر مخالف تماماً للأول، فعندها يقول إن فلانا أعلم من فلان، وينسى أن المسألة فيها نظر وخلاف، وأن الصحابة الثقات العدول اختلفوا مع بعضهم البعض ، ويمكن أخذ هذا الأدب من قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة:١٠٨]

٨. أن يكون الهدف من السؤال الاسترشاد وفهم الحكم الشرعي المتعلق بموضوع السؤال.

وهذا مستنبط من سؤال الصحابة رضي الله عنهم نبيهم الكريم عن الخمر والميسر، وغيرها من الأسئلة ذوات الأحكام المفيدة ، والتي لها تعلق في حياتهم؛ كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

٩. أن تكون نية السائل خالصة لوجه الله الكريم، يطلب فيه زيادة في التعبد واستزادة في العلم.

وذلك من باب قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

فلا بد أن يكون السؤال عبادة لله عز وجل وليس امتحانًا أو اختبارًا أو إيقاعًا في ورطة أو تشهيرًا...إلخ.

١٠. أن يمتلك السائل صبرًا جميلًا وحسن استماع للمسؤول العالم، وخصوصًا إذا أجابه المفتي بعكس ما كان يتوقع، فعليه أن يصبر بل يدعو للمفتي بكل خير ويشكره.

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾[الكهف:٧٠] أي: « لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف:٧٠] أي: حتى أبتدأ ببيانه، وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة، وهذا من أدب المتعلم مع العالم»[1].

١١. أن يتورع السائل عن الأسئلة التي لا يحتاجها، والتي لا تنفعه بشيء من أمر دينه ودنياه.

ويركز على الأسئلة الخاصة به ، والتي تزيد من إيمانه وعمله وتحسن من سلوكه ومعاملاته وإنتاجه، وليعلم أن حسن السؤال نصف العلم. وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١].

وهذه الآية أصل في النهي عن كل سؤال فيه تعنت وتكلف ما يعني، قال الصابوني: «أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها ، إن ظهرت لكم ساءتكم»[2].

ففي الآية نهي وتحذير من الله عز وجل للمؤمنين عن أشياء لا يطيقونها أو أن يسألوا عن أشياء قد نهوا عنها أو لا يعلمونها كسؤال النصارى عيسى أن ينزل ربنا عليهم مائدة من السماء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (**ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك أهل الكتاب قبلكم أو من كان قبلكم بكثرة اختلافهم على أنبيائهم، وكثرة سؤالهم**)[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

وقد أورد صاحب الزوائد بابًا أسماه: باب سبب النهي عن كثرة السؤال: عن سعدٍ قال: كان النّاس يتساءلون عن الشّيء من أمر النّبيّ صلى الله عليه وسلم يسألون رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو حلالٌ، فلا يزالون يسألون فيه حتّى يحرم عليهم[4].

وعن الزّهريّ قال أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقّاصٍ عن أبيه: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلّم قال: (**إنّ أعظم النّاس في المسلمين جرمًا من سأل عن مسألةٍ لم تحرّم فحرّم على المسلمين من أجل مسألته**)[5].

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الاستغاثة، الدعاء، الشك، العلم

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٣٥.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٣٤٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧.
(٤) أخرجه البزّار في مسنده، ٤/ ٦٢، رقم ١٢٢٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٨.





عناصر الموضوع

المجلد السابع عشر

مفهوم السجود

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ج د) على تطامن وذل. يقال سجد، إذا تطامن. وكل ما ذل فقد سجد[(١)].

ومنه سُجودُ الصلاة، وهو وضع الجَبْهة على الأَرْضِ ، والاسْمُ السِجْدَةُ بالكسر[(٢)].

وفلان ساجد المنخر: ذليلٌ خاضعٌ ، والساجدة: مؤنث ساجد ، والسّجّاد: كثير السجود.

والسّجّادة: الطنفسة، والبساط الصغير الذي يصلى عليه، وأثر السجود في الجبهة ، والمسجدة: السجادة[(٣)].

والمسجد: «بيت الصلاة، وأيضًا موضع السجود من بدن الإنسان، والجمع: مساجد»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «السُّجُودُ أصله: التّطامن والتّذلّل، وجعل ذلك عبارة عن التّذلّل لله وعبادته، وهو عامّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان:

سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحقّ الثواب ، نحو قوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢]، أي: تذللوا له.

وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥]»[(٥)].

«ومنه سجود الصلاة: وهو وضع الجبهة على الأرض، ولا خضوع أعظم منه»[(٦)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٣٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٨٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٠٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٦٦، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤١٦.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ص ٢٢٠.
(٥) المفردات ص ٣٩٦.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٤٢.



السجود في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سجد) في القرآن الكريم (٩٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر:٣٠]
الفعل المضارع	١٥	﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران:١١٣]
فعل الأمر	١٢	﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ٦٢﴾ [النجم:٦٢]
المصدر	٤	﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]
اسم فاعل	٤	﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف:١٢٠]
اسم مكان	٢٨	﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٢٩] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨]

وجاء السجود في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: السجود الشرعي، وهو وضع الجبهة على الأرض: ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥].

الثاني: الركوع الشرعي: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] أي: ادخلوه ركعًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبد الله جلغوم، مركز تفسير ص٦٠٧-٦٠٨.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحّده وأطاعه، وانقاد وخضع وذلّ له، والتزم شرائع دينه، وأدّى فرائضه[1].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصّت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[2].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التّذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التّذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[3].

الصلة بين العبادة والسجود:

العبادة أعم من السجود، فالسجود نوع من أنواع العبادات التي شرعها الله تعالى.

٢ الركوع:

الركوع لغة:

يأتي بمعنى الخضوع والافتقار والانحناء[4].

الركوع اصطلاحًا:

هو الانحناء لذي قدر ومكانة في نفس فاعله؛ تعظيمًا وإجلالًا؛ للدلالة على الخضوع والاستسلام والطاعة تعبدًا.

الصلة بين الركوع والسجود:

إن كلًا من الركوع والسجود يدل على الانحناء[5]، غير أن السجود يكون بانحناءٍ أشد، ويجوز أن يفعل خارج الصلاة تعبدًا لله، وقد ورد ذكره في القرآن من فعل الكفار لآلهتهم،

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٣٤.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٣٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٧٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦.



ولم يرد ذكر الركوع بذلك فيه، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

وقد ورد ذكر جواز السجود لغير الله في القرآن على سبيل التقدير والاحترام، ولم يرد ذكر الركوع بذلك فيه، يقول تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٣ الخشوع:

الخشوع لغة:

خشع في اللغة: خضع وذل وخاف، والخشوع: الخضوع والسكون والتذلل والخوف.

الخشوع اصطلاحًا:

إقبال المرء بقلبه على الله في دعائه وصلاته؛ خوفًا وانقيادًا، مع خضوع الجوارح والأعضاء(١).

الصلة بين الخشوع والسجود:

السجود عمل يقوم به المرء ظاهرًا على هيئة مخصوصة، بانحناء القامة والأعضاء ووضع الجبهة والأنف على الأرض، بينما الخشوع يكون محله القلب، ويظهر أثره بهيئة مغايرة على أعضاء الإنسان بسكونها، وعلى الصوت فيخفت، وعلى البصر فيخضع.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨، التعريفات، الجرجاني ص ٩٨.

سجود ما في السموات والأرض لله

وردت (ما) و (من) في أربع آيات من آيات السجود لتخص جميع مخلوقات الله عزّ جلّ في السموات والأرض طوعًا أوكرهًا، وهي: الآية/ ١٥ في سورة الرعد، والآيتان/ ٤٨ و٤٩ في سورة النحل، والآية/ ١٨ في سورة الحج، ولبيان تفسير كلٍ منهما، والفروق بينهما إذا وجدت، نسير بيانها كالآتي:

أولًا: تفسير مجيء (ما): وقد وردت في (آيتين) بموضعين اثنين متتابعين في سورة النحل:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨].

يعني: «يخبر الله عن عظمته وجلاله وكبريائه بأن كل ما له ظلٌ يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، بكرة وعشيًا فإنه ساجد بظله لله تعالى ، و﴿سُجَّدًا﴾ حال من الظلال، أي: كل شيءٍ له ظله»[١].

وقال مجاهد رحمه الله: «إذا زالت الشمس سجد كل شيءٍ لله عزّ وجلّ. وقال: سجود كل شيءٍ فيؤه».

وقال أبو غالب الشيباني: «أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم».

وقوله: «﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، أفرد الله ﴿الْيَمِينِ﴾ للجنس، وجمع في ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾؛ لأن لفظ اليمين واحدٌ لكن معناه معنى الجمع، أي: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معناه في الشمائل بالجمع»[٢].

والمعنى: «أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئةٌ عن أيمانها وشمائلها عن جانبي كل واحد وشقّيه، منقادة غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، وهذا استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء».

وفي قوله: «﴿دَاخِرُونَ﴾، جمع بالواو هنا؛ لأن المصدر الدّخور، من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب»[٣].

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسيرها: «فوالله يخضع ويخشع ويستسلم لأمره ما في السموات والأرض من دابة تدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة، والذين لا يؤمنون بالآخرة تتفيأ ظلالهم عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم صاغرون.

(١) الكشاف، الزمخشري ص٥٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ص٥٧٤.

وقال بعض نحاة البصرة: اجتزيء بذكر الواحد من الدّواب عن ذكر الجميع، بتقدير: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، كما يقال: ما أتاني من رجلٍ. بمعنى: ما أتاني من الرجال.

وقال بعض نحويي الكوفة: إنما قيل: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ لأن (ما) وإن كانت قد تكون على مذهب «الذي» - فإنها غير مؤقتة، فإذا أبهمت غير مؤقتة أشبهت الجزاء، والجزاء يدخل «من» فيما جاء من اسم بعده من النكرة، فيقال: من ضربه من رجل فاضربوه. ولا تسقط «من» من هذا الموضع، كراهية أن تكون حالًا لـــ: (من) و (ما) فجعلوه بـــ: «من» ليدلّ على أنه تفسير لـــ: (ما) و(من)؛ لأنهما غير مؤقتتين، فكان دخول «من» فيما بعدهما تفسيرًا لمعناها، وكان دخول «من» أدلّ على ما لم يؤقّت من (من) و (ما)، فلذلك لم تلقيا»[1].

وذكر الإمام الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآية «عدة أقوال:

- يجوز أن يكون بيانًا لما في السموات وما في الأرض جميعًا، على أن في السموات خلقًا لله يدبون فيها كما يدبّ الأناسيّ في الأرض.
- ويجوز أن يكون بيانًا لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الخلق الذي يقال له الروح.
- ويجوز أن يكون بيانًا لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات الملائكة، وكرر سبحانه وتعالى ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصًا من بين الساجدين؛ لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم.
- ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهنّ، وبقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم»[2].

ثانيًا: تفسير مجيء (من): وقد وردت في (آيتين) بموضعين اثنين:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد:١٥].

والمعنى: «أن جميع المخلوقات مما احتوت عليه السموات والأرض كلها خاضعة لربها تسجد له، حتى ظلال هذه المخلوقات تسجد أول النهار وآخره، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]»[3].

«ومن هنا تقع على الملائكة عمومًا وسجودهم طوعًا بلا خلاف، أما أهل الأرض فالمؤمنون منهم داخلون في

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري ١٤/ ٥٧٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩١و٤٩٢، وانظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.

سجودهم طوعًا، أما سجود الكفرة فهو الكره، وذلك على نحوين من هذا المعنى.

فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعهودة؛ فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام فيسجد كرهًا، وإما نفاقًا، وإما أن الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صح إيمانه بعد.

وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل فيدخل الكفار أجمعون في (من)؛ لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر من أن تحصى بحسب رزاياه واعتباراته.

وقال النحاس والزجاج رحمهما الله: «إن الكره يكون في عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم»[(١)].

ويقول الفيروز آبادي رحمه الله: «السجود ضربان:

١- سجود اختيار (طاعة): وليس ذلك إلا للإنسان[(٢)]، قال تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢].

٢- سجود تسخير (اضطرار): وهو للإنسان والحيوان والنباتات ولكل مخلوق، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

«يذكر الله سبحانه وتعالى: بأن جميع المخلوقات في السماء -من الملائكة-، والأرض -من جنٍّ وإنس وغيرهم-، والشمس والقمر- في السماء-، والجبال والشجر والدّواب في الأرض، وسجود ذلك ظلاله، وكثير من الناس - من يهود ونصارى ومجوس ومشركين-، وهؤلاء يسجد ظلهم أيضًا.

فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، دلّ على أنه الربّ المعبود، من عدل عنه إلى سواه فقد ضلّ وخسر. وهذا مذهب حسن موافق لمذهب أهل السنة.

وروي عن أبي العالية الرياحي رحمه الله قوله: «ما في السماء نجمٌ، ولا شمسٌ، ولا قمرٌ، إلا يقع ساجدًا لله حين يغيب، ثم لا

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩١.

(٢) حصر الإمام الفيروزآبادي سجود الاختيار على: أنه خاص بالإنسان فيه قصور عن المكلفين من المخلوقات، وقد وضّحها وعمّمها الشيخ السعدي بقوله: «وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات».
انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٢.

(٣) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٨٨.

ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وقد أدخلت المخلوقات غير العاقلة من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب تشبيهًا لأفعال المكلفين بالسجود والانقياد والطاعة لله تعالى.

وقال مجاهد رحمه الله في قول الله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، « إن هؤلاء رغم استحقاقهم للعذاب بكفرهم فإن ظلهم يسجد لله الخالق سبحانه»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: «إنما ذكر الله سبحانه ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾، على التنصيص؛ لأنها عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة، وأنها خلق فاعلٍ عظيم؛ لذلك قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]»[2].

ثانيًا: الاتفاق والاختلاف بين ورود (من) و(ما) في سياق الآيات:

تأتي كلٌّ من: (من) و(ما) للاستفهام، أو الشرط، أواسم الموصول المشترك، أو غير ذلك مما يفهم من سياق الكلام العربي.

وفي هذه الآيات الأربع التي وردت فيها «من» و«ما»؛ فهي من أسماء الموصول المشتركة، يظهر معناهما جليًا إذا كان في الجملة صلة الموصول.

وقد تتنوع دلالات اسم الموصول حسب السياق والسباق الوارد في الآية، ومنها: تعظيم الموصوف به بما يدل على أمرٍ عظيم ؛ إذ فيها تعظيم للخالق بالخضوع والسجود له من جميع مخلوقاته، المنتشرة في كل ملكه السماوي والأرضي، وهذا تعظيم لله وعبادة وخضوع للمولى سبحانه تعالى.

والأصل في المعنى اللغوي بين (من) و(ما):أن (من) يؤتى بها في جملة الصلة للدلالة على العاقل، أما (ما) فيؤتى بها للدلالة على غير العاقل، وقد تغلّب إحداهما على الأخرى لوجود قرينة، أو تحلّ إحداهما محل الأخرى بوجود إشارة واضحة[3].

وبإمعان النظر في آيات السجود الأربعة التي وردت فيها (من) و(ما) نجد ما يلي:

أولًا: أنه لا فرق بين مجيء (من) و(ما)، إذ كلٌّ منهما تأخذ نفس المعنى.

يفهم هذا من كلام الإمام ابن كثير رحمه الله إذ يقول: « بعد أن فسّر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]-، «هذه كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦. وانظر: بصائر ذوي التمييز ٣/ ١٨٩.

(٣) انظر البلاغة العربية، عبد الرحمن حبنكه ١/ ٤٢٨، البلاغة العربية، فضل عباس ص٣٠٧.

﴿لِلَّهِ﴾[النحل: ٤٨] أي: (من) الواردة في سورة الرعد مثل (ما) الواردة في سورة النحل»[1].

ويقول الإمام ابن عطية رحمه الله: في تفسير الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل: ٤٩].

«وقعت (ما) في هذه الآية لما يعقل، ثم نقل كلام الزّجّاج ، فظاهر كلامه أنها حلّت محلها في المعنى»[2].

وبهذا المعنى أوّل ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص: ٢٤].

فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: «قليل من يتقي، و (ما) على هذا القول بمعنى (من)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] بمعنى: من خلق الذكر والأنثى»[3].

ثانيًا: تغليب الكلام للعاقل على غير العاقل؛ لأن السجود مما يختص به العقلاء.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] ، وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾[النحل: ٤٩].

«فنزّل هنا مخلوقات السموات والأرض منزلة من يعقل إذا أسند السجود إليهم وهو من فعل العقلاء»[4].

كما نجد ذلك واضحًا في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

«وقد أدخلت المخلوقات غير العاقلة من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب تشبيهًا لأفعال المكلفين بالسجود والانقياد والطاعة لله تعالى»[5].

ويورد الإمام الزمخشري في تفسير الآية/ ٤٩ من سورة النحل تساؤلًا ويجيب عنه بقوله: «فإن قلت: فهلا جيء بمن تغليبًا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولًا للعقلاء خاصةً، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة للعموم»[6].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٠٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٨١.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٥.
(٦) الكشاف، الزمخشري ص٥٧٤.

الثناء على الساجدين لله

لقد أثنى الله عزّ وجلّ على عباده الطائعين الساجدين له في مواضع من كتابه.

ونرى في هذا الثناء منه سبحانه تشجيعًا وحثًّا على الاقتداء بهم، واغتنام هذه الأزمنة ليلحق المرء مع ركب الساجدين.

وإذا استعرضنا آيات السجود نجد أن هذا الثناء اتصل بأزمنة محددة، نبينها في النقاط الآتية:

أولًا: الثناء على الساجدين لله في الليل:

وقد وردت في أربع آيات هي:

قال تعالى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

ففي شرح هذه الآية يرجح الإمام الطبري رحمه الله قول من قال: «عني بذلك تلاوة القرآن في صلاة العشاء؛ لأنها صلاة لا يصليها أحدٌ من أهل الكتاب، وفيها مدحُ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب...»(١).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤].

أي: «الذين يبيتون لربهم يصلون له، ويراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام، وقالوا: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا»(٢).

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله: «ناقلًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا»(٣).

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[الزمر:٩].

فمعناها: «أمّن هو يقنت آناء الليل ساجدًا طورًا، وقائمًا طورًا، ونصبت: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ على الحال من قانت»(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦].

يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم قائلًا: «ومن الليل فاسجد له في صلاتك، وسبحه أكثر الليل. وقد كان هذا أول شيءٍ فرضه الله؛ أي: الصلاة والتسبيح، ثم نسخ فرض قيام الليل وأصبح نافلة»(٥).

ثانيًا: الثناء على الساجدين لله عند تلاوة القرآن:

وقد وردت في ثلاث آيات هي:

قال تعالى: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

يعني: «أن أهل العلم – من مؤمني أهل

---

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٩٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٤٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٦.

(٥) المصدر السابق ٢٣/ ٥٧٣.

الكتابين- إذا يتلى عليهم هذا القرآن؛ يخرون لأذقانهم سجدًا بالأرض تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله»[1].

وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

يعني: «إذا تتلى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين أدلة ذكره، وحججه التي أنزلها الله عليهم في كتبهم، خرّوا سجدًا وهم باكون.

وفي إضافة الآيات إلى اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على أن من آياته رحمته بعباده، وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

أي: «ما يصدّق بحججنا وآيات كتابنا إلا القوم الذين إذا ذكروا بها ووعظوا ﴿خَرُّوا﴾ لله ﴿سُجَّدًا﴾ لوجوههم؛ تذللًا له، واستكانة لعظمته، وإقرارًا له بالعبودية»[3].

ثالثًا: الثناء على الساجدين لله عند الاستغفار من الذنب:

وقد وردت في آية واحدة هي:

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

يعني: «علم داوود عليه الصلاة والسلام أن الله ابتلاه ليختبره، فسأل ربه المغفرة، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ وخرّ ساجدًا لله، ﴿وَأَنَابَ﴾ وتاب من خطيئته، فغفر له ذنبه»[4].

رابعًا: الثناء على الساجدين لله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم:

وردت في آية واحدة هي:

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

أخبر الله سبحانه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم «ركعًا أحيانًا لله، سجدًا له أحيانًا، وهذا دليلٌ على كثرة صلاتهم، ومداومتهم عليها؛ والتي من أجلّ أركانها الركوع والسجود»[5].

(١) المصدر السابق ١٥/ ١٢٠.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ٥٦٦.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٦٠٧.
(٤) المصدر السابق ٢٠/ ٦٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٩٣.

بشارة الله للمؤمنين الساجدين

لقد ذكر الله جلّ وعلا عباده المؤمنين بأنهم ساجدون له طواعيةً وعبادةً، طمعًا في المغفرة، وزيادةً في الإحسان، غير مستكبرين عن عبادة ربهم في الليل والنهار، مسبحين له في كل وقت، يخرون سجدًا باكين متذللين عند تلاوة آيات القرآن الكريم، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وسنرى هذه الصفات للساجدين واضحة جليّة في الموضعين التاليين:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[التوبة: ١١٢].

لقد عدّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية صفات للمؤمنين، فكانت صفة السجود السادسة من بين هذه الصفات التسع الآتية:

١. التائبون من الذنوب، الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات، طمعًا في المغفرة.

٢. العابدون لله تعالى، المتصفون بالعبودية لله، القائمون بفعل الواجبات والمستحبات في كل وقت.

٣. الحامدون لربهم في السراء والضراء، الشاكرون لله على نعمه الكثيرة، والمثنون عليها دومًا.

٤. السائحون، في عبادة الله، من صيام، وطلب علمٍ، وجهادٍ، وحجٍ وعمرةٍ، وصلة أرحامٍ، ونحوها.

٥. الراكعون في صلاتهم له عزّ وجلّ، المكثرون منها.

٦. الساجدون في الصلاة لله تذللًا وقربةً.

٧. الآمرون بالمعروف، أي: الأمر بكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال الواجبة والمستحبة.

٨. الناهون عن المنكر، أي: النهي عن كل ما نهى الله ورسوله عنه، من الأقوال والأفعال السيئة.

٩. الحافظون لشرع الله في جميع أقوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة؛ إخلاصًا لله، وخوفًا من عذابه.

فمن اتصف بهذه الصفات فهو مؤمن ببشارة الله له، وقد جمعت هذه الصفات كل وجوه العبادة والخير والسعادة في الدارين.

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: «لم يذكر الله ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن. أما مقدارها وصفتها؛ فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم (قوةً، وضعفًا)، وعملًا

بمقتضاه»[١].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ و ١١٤].

فقد وصف الله الساجدين في هاتين الآيتين بست صفاتٍ هي:

١. الإيمان بالله واليوم الآخر: وهذا وإن تأخر حتى صدر الآية الثانية، لكنه الأصل في قبول العمل، فإن الحساب يكون يوم القيامة على أساس الاعتقاد.

٢. يتلون القرآن الكريم في صلواتهم: وبالأخص في صلاة العشاء ؛ التي انفردت بها أمة الإسلام عن غيرها من الأمم.

٣. ساجدون لله: يؤدون صلاتهم، وهم ساجدون لله فيها تقربًا وطاعةً.

٤. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر: يقولون ويفعلون كل ما يحبه الله ورسوله، ويتركون كل ما يبغضه الله ورسوله.

٥. يسارعون في الخيرات: حتى لا يصرفهم صارفٌ عن فعلها، وهذا كناية عن مبادرتهم في فعل الخير، ومسابقتهم في الخيرات.

٦. وصفهم الله بأنهم من الصالحين: وهذه تشمل الصفات الستة مما يتحلى بها المتقون الصالحون، المستحقون لهذا الوصف من رب العزة والجلال[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.



أصناف الساجدين وطبيعة سجودهم

تحدث القرآن الكريم عن أصناف من الساجدين.

نتحدث عنهم في النقاط الآتية:

أولًا: الساجدون لله تعالى وحده:

١ . المخلوقات الساجدة لله تعالى طواعية وعبادة.

أولًا: سجود المؤمنين:

قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قصد بهذه الآية: «جماعة القوم الراكعين والساجدين في البيت الحرام لله تعالى»[١].

«وقدّم الطواف في الآية لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأنه من شرط المسجد مطلقًا، ثم الصلاة؛ لأن القيام والركوع والسجود هيئة المصلي، مع أنها الأفضل لهذا المعنى»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

«قرن الله الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في أغلب الأحوال»[٣].

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وقد وردت عدة أقوال في المراد بالسجود هنا:

«تلاوة القرآن في صلاة العشاء ؛ لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب، فوصف الله جلّ ثناؤه أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله، وهذا الذي رجحه الإمام الطبري رحمه الله.

ونقل عن الفراء رحمه الله: أن معنى السجود في هذه الآية، اسم للصلاة لا للسجود؛ لأن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع، فكأن معنى الكلام كان عنده: يتلون آيات الله آناء الليل وهم يصلون.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم - يقصد: بإقامة صلاة العشاء-.

وقد ردّ على الفرّاء بأن المعنى ليس ما ذهب إليه؛ وإنما معنى الكلام: «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدون فيها، فالسجود هنا هو السجود المعروف بالصلاة»[٤].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١-٣٢٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٩٨.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «هي الصلاة بين المغرب والعشاء»[(١)].

وقال الشيخ ابن السعدي رحمه الله: «هذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاواتهم لكتاب الله ، وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له سبحانه وتعالى»[(٢)].

ولعل هذا الرأي الأخير أشمل وأقرب إلى ظاهر نص الآية التي تفيد العموم لكل صلاة تكون في الليل، من الصلاة النافلة (بين العشائين)، أو صلاة الفرض (العشاء)، أو قيام الليل (التهجد).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ﴾[النساء: ١٠٢].

هذا يكون في تعليم صلاة الخوف أثناء الجهاد في سبيل الله تعالى، «والضمير في: ﴿سَجَدُوا﴾ يعود للطائفة المصلية، والمعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأولى فلينصرفوا»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة:١١٢].

«أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود»[(٤)].

وقال ابن عطية رحمه الله: «هم المصلون الصلوات الخمس، ويدخل في وصف ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ الذي يكثر من النوافل أيضًا»[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[الفرقان:٦٤].

يقول تعالى ذكره بأن من صفات المؤمنين أنهم: «يبيتون لربهم يصلون لله، يراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام»[(٦)].

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم، متذللين له ، والبيتوته هي: خلاف الظلول، بأن يدركك الليل نمت أو لم تنم. وقالوا: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا»[(٧)].

وقال ابن عباس: «من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا»[(٨)].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾[الزمر: ٩].

يعني: «أن المؤمن مطيع لله، يقنت آناء

---

(١) تفسير سفيان الثوري ص٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٣.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤١٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٦.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٤٩.

الليل ساجدًا طورًا، وقائمًا طورًا، خوفًا من عذاب اليوم الآخر»[1].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح:٢٩].

يعني: أن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، تراهم ركعًا وسجدًا لله في صلاتهم[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة:١٥].

أي: «أن المؤمنين بآيات الله تعالى إذا وعظوا بها لا يستكبرون عن السجود والتسبيح لله، ويخرون ساجدين له ، غير مستنكفين عن التذلل لربهم»[3].

ثانيًا: سجود سحرة فرعون:

قال الله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٢٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وألقي السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة الله في معجزته لموسى عليه الصلاة والسلام، ساقطين على وجوههم، سجدًا لربهم قائلين: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١].

أي: صدقنا بما جاءنا به، ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر السماء وليس بسحرٍ، فخروا سجدًا لله، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢][4].

وزاد صاحب الكشاف قائلًا: «وخروا سجدًا كأنما ألقاهم ملقٍ لشدة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا ما رأوا فكأنهم ألقوا.

وعن قتادة رحمه الله: «كان السحرة أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخره شهداء بررة»[5].

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وفي هذا الكلام متروك قد استغني بدلالة ما ذكر عليه، وهو: فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا، فألقي السحرة سجدًا، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠].

وذكر أن موسى لما ألقى ما في يده تحوّل ثعبانًا، فالتهم كل ما كانت السحرة ألقته من الحبال والعصي، ثم جاء إليها فقبض عليها، فإذا هي عصا، فخرّ السحرة سجدًا»[6].

وقال سبحانه: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٤٦].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٣٢١-٣٢٦.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٦٠٧.
(٤) المصدر السابق ١٠/ ٣٦١.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١١٣.

«فألقى موسى عصاه حين ألقت السحرة حبالهم وعصيهم، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة، وتبين للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حقٌّ لا سحرٌ.

وعن عكرمة رحمه الله تعالى، أن الفرق بين الإلقاءين هو لما خروا سجدًا، أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة»[١].

ثالثًا: سجود الملائكة:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف:٢٠٦].

وتعتبر هذه الآية أول سجدة تلاوة في القرآن الكريم بالإجماع[٢].

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، أي: «لا تستكثر أيها المستمع المنصت للقرآن عن عبادة ربك، واذكره إذا قريء القرآن تضرعًا وخفية ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع والتخشّع له سبحانه وتعالى.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، يعني: يعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾، ولله يصلون، وهو سجودهم ، فصلوا أنتم أيضًا- أيها المؤمنون- له وعظموه بالعبادة كما يفعله من عنده من الملائكة. وهذا تعريض بمن سواهم من المكلفين»[٣].

وقال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص:٧٣].

لما خلق الله عزّ وجلّ أبو البشر آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه من روحه، امتثلت الملائكة كلهم أمر الله بالسجود له، منفذين لأمر الله تعالى، إلا إبليس لم يسجد تكبرًا وحسدًا، وأكّد الله سجود الملائكة لآدم عليه الصلاة والسلام بمؤكّدين اثنين (كلهم، أجمعون)؛ لقطع أي احتمال أو شك[٤].

رابعًا: سجود المخلوقات عامة:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الرعد:١٥].

ومعنى ذلك: فإن امتنع هؤلاء -المشركون- من إفراد الطاعة وإخلاص العبادة لله، فلله يسجد من في السموات من الملائكة الكرام طوعًا بلا خوفٍ، ومن في الأرض من المؤمنين به طوعًا، أما المنافقون فيسجدون كرهًا.

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: كان

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٦١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٨٢-٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٤٨. وعلى هذا التفسير تندرج كل آيات سجود الملائكة الواردة في سورة الأعراف: ٢٠٦، والرعد:٣٠، والإسراء:٦١، والكهف:٥٠ وغيرها.

الربيع بن خثيم (أبو يزيد الثوري الكوفي) رحمه الله، إذا تلا هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الرعد:١٥].

قال: بلى يا رباه، أو طوعًا ربنا، بلى طوعًا[1].

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى، قال: «يسجد من في السموات طوعًا، ومن في الأرض طوعًا وكرهًا»[2].

وقال عزّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[النحل:٤٨].

يقول الإمام الطبري نقلًا عن ابن جريج رحمهما الله، في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، قال: « فإذا فاءت الظلال - ظلال كل شيء- بالغدو سجدت لله، وإذا فاءت بالعشي سجدت لله.

وقال الضحاك رحمه الله: تسجد الظلال لله غدوة إلى أن يفيء الظل، ثم تسجد لله تعالى إلى الليل...

وقال آخرون: بل الذي وصف الله بالسجود في هذه الآية ظلال الأشياء، فإنما يسجد ظلالها دون التي لها الظلال.

ورجح الإمام الطبري رحمه الله قول من قال: «إن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها ميلانها ودورانها من جانب إلى جانب، ومن ناحية إلى ناحية، كما قال به ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال في اللغة: سجدت النخلة، إذا مالت. وسجد البعير، وأسجد، إذا ميّل للركوب»[3].

وزاد ابن كثير رحمه الله: «أنزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم»[4].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل:٤٩].

معنى الآية: «ولله يخضع ويخشع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابة تدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة، والذين لا يؤمنون بالآخرة، قلوبهم منكرة، وهم لا يستكبرون، وظلالهم تتفيأ عن اليمين والشمائل سجدًا لله، وهم داخرون.

وكان بعض نحويي البصرة يقول: اجتزئ بذكر الواحد من الدواب عن ذكر الجميع، وعليه فإن معنى الكلام: ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من الدواب والملائكة، كما يقال: ما أتاني من رجلٍ، بمعنى: ما أتاني من رجالٍ»[5].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩١.
(٢) تفسير الحسن البصري ٢/ ٧١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٤٠-٢٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨١.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٥.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج:١٨].

يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ألم تر يا محمد بقلبك وعقلك، فتعلم أن الله يسجد له ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة، ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق، من الجنّ والإنس وغيرهما، ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ في السماء، ﴿وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ في الأرض، وسجود ذلك ظلاله حين تطلع الشمس، وحين تزول، إذا تحول ظلّ كل شيءٍ فهو سجوده، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويسجد كثير من بني آدم، وهم: المؤمنون بالله، يسجدون لله سجود طاعة وعبادة، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: وكثيرٌ أبى السجود فلم يوفقه الله للإيمان؛ فاستحق العذاب بذلك.

وعن أبي العالية الرياحي رحمه الله، قال: «ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وقيل سجودها: بمعنى الطاعة، فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله، يسبح له»[١].

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦].

أي: «ما قام على ساقٍ -كالشجر ونحوه- وما لم يقم على ساقٍ -مما ينبت من الأرض- يسجدان، وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له، وأنهما لا يمتنعان تشبيهًا بالساجدين المكلفين في انقياده، وقيل سجودهما: سجود ظلهما»[٢].

وقال مجاهد رحمه الله: «النجم هو الكوكب، وسجوده طلوعه»[٣].

خامسًا: سجود الأنبياء:

قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم:٥٨].

أخبر الله في هذه الآية: «إذا تليت على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم آيات الله خروا لله سجدًا، استكانة له، وتذللًا وخشوعًا لأمره وانقيادًا له، وهم باكون»[٤].

«و﴿سُجَّدًا﴾: جمع ساجد، وتعرب حالًا. ﴿وَبُكِيًّا﴾: جمع باكٍ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا»[٥].

«وأجمع العلماء على شرعية السجود هنا اقتداءً بالأنبياء، واتباعًا لمنوالهم»[٦].

و قال تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

---

(١) المصدر السابق ١٦/ ٤٨٧.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ ١٧٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٦٦.
(٥) مختصر تفسير البغوي ٢/ ٥٦٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٦.

[الشعراء:٢١٩].

يعني: «أن الله يرى تقلبك في صلاتك حين تقوم، ثمّ حين تركع، وحين تسجد، وقال آخرون: يرى تصرفك في أحوالك، كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خرّ داوود ساجدًا؛ شكرًا لله تعالى، وقال في سجدة (ص): ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها»[(٢)].

سادسًا: سجود أهل الكتاب:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: «لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم - بأداء صلاة العشاء - أي: يصلونها ولا يصليها من سواهم من أهل الكتاب»[(٣)].

وقال سفيان الثوري: «المقصود هنا الصلاة بين المغرب والعشاء»[(٤)].

ويفسر الشيخ ابن السعدي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، بأن هذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب الله وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له»[(٥)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: «قل يا محمد لهؤلاء القائلين لك: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠]. آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله، ولا ترككم الإيمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين، إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون- تعظيمًا له، وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله- لأذقانهم سجدًا بالأرض»[(٦)].

وقد اختلف أهل التفسير في معنى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يخرون للوجوه سجدًا»[(٧)].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «عني بذلك اللحى»[(٨)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٩٨.
(٤) تفسير سفيان الثوري ص٧٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٠.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.
(٨) تفسير الحسن البصري، ٢/ ١٠٧.

وهذا هو الذي رجحه الإمام الطبري رحمه الله؛ لأن الذقن في كلام العرب هو مجمع اللحيين، وهذا هو الأشبه بظاهر التنزيل، أي: خروا للأذقان سجدًا عند سماعهم القرآن يتلى عليهم، تنزيهًا لربنا وتبرئةً له مما يضيف إليه المشركون به»[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

أي: «يخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يتلى عليهم القرآن؛ لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر ﴿خُشُوعًا﴾، يعني: خضوعًا لأمر الله وطاعته، واستكانة له.

ويقول الإمام الطبري رحمه الله في موضع آخر نقلًا عن ابن زيد: بأن هذه الآية جواب وتفسير للآية التي في سورة مريم قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]»[2].

وقال الزمخشري رحمه الله: «خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين»[3].

واستخلص البغوي من هذه الآية: «أن البكاء مستحب عند قراءة القرآن»[4].

٢. المخلوقات التي أمرت بالسجود لله وحده.

أولًا: أمر الله لبني إسرائيل بالسجود له:

قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١].

هذه الآيات الثلاث: أمر الله بني إسرائيل بأن يدخلوا الباب في بيت المقدس سجدًا شاكرين ومتواضعين لله، فلم يسجدوا، ودخلوا على أدبارهم على غير الجهة التي أمروا أن يدخلوا بها[5].

وقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

«أمر الله مريم ابنة عمران عليها السلام بأن تصلي له، وعبّر عن ذلك بذكر القنوت والسجود، فهما من هيئات الصلاة وأركانها، ثم أمرها بأن تكون مع جماعة المصلين لله تعالى، ففعلت ما أمرت به»[6].

ثانيًا: أمر الله لعبدة الكواكب بالسجود له.

وقال تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ص ٦١١.
(٤) مختصر تفسير البغوي ١/ ٥٢٨.

(٥) انظر جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٢-٧١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٦) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٠٠.

﴿خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، أي: «لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يسجد بآخر الآيتين من (حم السجدة)، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يسجد بالأولى منهما»[١].

وإنما قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، بصيغة التأنيث؛ لأنه أجراها على طريق جمع التكسير، ولم يجرها على التغليب للمذكر على المؤنث[٢].

ثالثًا: أمر الله لرسوله بالسجود له:

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[الحجر:٩٨].

يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم: «بأن يفزع إليه فيما يصيبه من أمر يكرهه ، يسبح الله ويكثر من السجود له سبحانه، فيكفيه ما أهمه»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان:٢٦].

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم: «ومن الليل فاسجد له وسبحه أكثر الليل، وقد كان هذا أول شيء فرضه الله، ثم جعل سبحانه قيام الليل نافلةً، ومن تفيد هنا التبعيض»[٤].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

«لا تطع - يا محمد صلى الله عليه وسلم- أبا جهل في ترك الصلاة والسجود لربك عند الكعبة المشرفة، بل ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، اسجد لربك وتقرّب إليه بالطاعة، ولن يقدر أبو جهل على إيذائك، والله مانعه من ذلك»[٥].

وقد أمر الله هنا نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَاسْجُدْ﴾ ولم يقل: (وصلّ)؛ لأن السجود من أهم أركان الصلاة، ويكون العبد فيه أقرب إلى ربه، كما ورد في الحديث: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[٦].

رابعًا: أمر الله لعامة خلقه بالسجود له:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان:٦٠].

«الخطاب لكل مشرك بأن يجعلوا سجودهم خالصًا لله عزّ وجلّ، والذي من أسمائه وصفاته الحسنى ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾، فأنكروا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٦.
(٢) مختصر تفسير البغوي ٢/ ٨٣٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥٤.
(٤) المصدر السابق ٢٣/ ٥٧٣.
(٥) المصدر السابق ٢٤/ ٥٤٠.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٢١٥.

ذلك الاسم أن يكون لله تعالى!»[1].

وقال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٦٢].

أي: «أيها الناس اسجدوا الله في صلاتكم دون سواه من الآلهة والأنداد، وأخلصوا له العبادة والسجود»[2].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «الأمر بالسجود لله خصوصًا، ليدل ذلك على فضله، وأنه سرّ العبادة ولبّها، فإن لبّها الخشوع لله، والخضوع له. والسجود: أعظم حالة يخضع بها العبد بقلبه وبدنه، جاعلًا أشرف أعضائه على الأرض»[3].

٢ . المخلوقات التي أمرت بالسجود من الله لغيره.

وقد وقع ذلك مع صنف واحد:

ولا نجد ذلك إلا في قصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام، إذ أمر الله ملائكته بالسجود له، سجود تحية وتكريم لهذا المخلوق الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه علومًا تفوق بها على الملائكة، وقد ذكر ذلك في تسعة مواضع، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف:٥٠].

ثانيًا: الساجدون لغير الله تعالى:

ورد ذكر الساجدين لغير الله تعالى في ثلاثة مواضع، اثنان جائزان، والثالث شرك، وهي على النحو الآتي:

١ . سجود إخوة يوسف وأبويه له.

قال يوسف عليه السلام: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

رؤيا الأنبياء وحيٌ من الله تعالى، ورؤيا المؤمن صادقة بعد ختم الرسل، وانقطاع الوحي، والرؤيا هنا رمزية، حيث رمز بالشمس والقمر لأبويه، وبالكواكب الأحد عشر لإخوته، وقد عبّر الله عن الكواكب والشمس والقمر بجمع المذكر السالم؛ لأن السجود من أفعال العقلاء.

«وكان السجود في عصرهم جاريًا مجري التحية والتكرمة، كالقيام والمصافحة، وتقبيل اليد ونحو ذلك، مما جرت عليه عادة الناس لمن اشتهر بالتعظيم والتوقير.

وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير للجباه، لأن سجودهم يأباه يوسف عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٨٢.
(٢) المصدر السابق ٢٢/ ١٠٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٣.

الصلاة والسلام.

وقيل: خروا لأجل يوسف شكرًا لله على ما اجتباه به، واتمام نعمته عليه بالعلم والحكمة والتمكين في الأرض»[1].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[يوسف:١٠٠].

قال قتادة رحمه الله تعالى: «خرّ يعقوب عليه الصلاة والسلام وزوجه وولده ليوسف عليه الصلاة والسلام سجود تحية كانت معروفة في زمنهم، يحيي بعضهم بعضًا بها، احترامًا وتوقيرًا.

ولكن الله أبدل هذه الأمة الإسلامية بتحية أهل الجنة «السلام» كرامة من الله تبارك وتعالى، عجّلها لهم في الدنيا نعمة منه وفضلًا»[2].

٢. سجود الملائكة لآدم عليه الصلاة والسلام.

وقد ذكر أنها بأمر الله تعالى، على سبيل التحية والتكريم، وهي امتثالٌ لأمر الله جلّ جلاله، فسجدوا طاعة لله وتنفيذًا لأمره.

٣. سجود عبدة الكواكب لها.

وهو سجود شركي محرم.

قال هدهد سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[النمل:٢٤].

يقول الهدهد مخبرًا سليمان عليه الصلاة والسلام: «وجدت هذه المرأة ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس؛ فيعبدونها من دون الله، بتزيين الشيطان لهم عبادة الشمس وسجودهم لها»[3].

ونقل ابن عطية قول زيد وابن إسحاق رحمهم الله: بأن قول الله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل:٢٥-٢٦].

هو من كلام الهدهد موضحًا وحاثًّا لهم بالسجود لله الخالق لكل شيء، ورب العرش العظيم.

ويحتمل أن يكون هذا من كلام سليمان عليه الصلاة والسلام لما أخبره الهدهد عن القوم[4].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧].

«يخاطب الله سبحانه الناس ناهيًا لهم عن عبادة الكواكب عمومًا، وعن الشمس والقمر خصوصًا، فهما يجريان في الفلك بمنافعكم؛ بإجراء الله إياها لكم، طائعين له في جريهما ومسيرهما...، فالله هو خالق

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٠-١٣.
(٢) المصدر السابق ١٣/ ٣٥٤-٣٥٦.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ٥٣١-٥٣٤.

الليل والنهار والشمس والقمر، وهذه من مخلوقات الله تعالى، بينما الخالق هو الأحق بالعبادة ، وكانت الصابئة تزعم أنهم يقصدون بسجودهم للكواكب - ومنها الشمس والقمر- أنهم يسجدون لله؛ فنهوا عن هذه الواسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصًا؛ إن كانوا إياه يعبدون»[1].

ثمرات السجود

السجود لله عز وجل من أعظم العبادات وأجلها، وله ثمرات جليلة، منها:

أولًا: إظهار العبودية لله وطاعته:

يقرر الله عزّ وجلّ أن كل المخلوقات طائعة خاضعة له، ساجدة لخالقها طوعًا أو كرهًا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل:٤٩].

حتى ظلال المخلوقات تسجد لله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[الرعد: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[النحل: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[الحج: ١٨].

وإذا أمعنا النظر في نتائج وثمرات السجود، نجد أن إظهار العبودية لله وطاعته تأتي في مقدمتها، ونرى ذلك جليًّا في ختم الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران: ١١٣] عبودية وطاعة لله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٦.

[الأعراف: ٢٠٦] عابدين وطائعين له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [الإسراء: ٦١] طاعة وامتثالًا لأمر الله لهم بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

وقوله: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] أي: يخرون سجدًا باكين طائعين عابدين لله عزّ وجلّ.

وقوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] عابدين طائعين لما رأوا المعجزة التي أعطيت لموسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] يقومون الليل عبادة وطاعة لله.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥] لا يستكبرون عن السجود طاعة له سبحانه.

وقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. ترى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، راكعين ساجدين طاعة لله تعالى، لذا أمر الله عباده المؤمنين وغيرهم بالطاعة والسجود له، فقال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٦٢].

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] لمعرفة داوود عليه الصلاة والسلام، أن السجود قربة لله استغفر ربه من ذنبه، ثم سجد له عبودية وطاعة وطمعًا بالمغفرة، فاستجاب الله له وغفر له ذنبه.

وقد اعتبر سبحانه أن بيات المؤمنين لربهم سجدًا وقيامًا جعلتهم يدخلون تحت وصف عباد الرحمن، فأضافهم لنفسه، تشريفًا لهم وتكريمًا.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٤].

بما سبق يتبين أن السجود هو خضوع لله، وطاعة له، وعبودية وتذللٌ للخالق جلّ وعلا.

ثانيًا: نيل رضوان الله وثنائه عليهم ومغفرته لهم:

من ثمرات السجود لله تعالى: أن العبد يكسب عدة أمور أوجزها بالآتي:

١. المغفرة من الذنوب والزيادة في الإحسان.

كما قال تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

فجعل سبحانه وتعالى المغفرة وزيادة الإحسان إليهم جزاءً ونتيجةً لطاعتهم لله بدخول بيت المقدس سجدًا، ونرى ذلك

أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥].

فكان نتيجة استغفار داوود عليه الصلاة والسلام من الذنب، وسجوده لله، -كما ورد في الآية ٢٤ التي قبل هذه الآية- أن غفر له ذنبه، ورفعه منزلة عالية، وقربه منه، وجعل رجوعه عن الذنب حسنًا، فضلًا منه وكرمًا.

البشارة بفضل الله ورضوانه: كما جاء في ختم هذه الآية: ﴿التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وبشارة الله تكون برضاه عنهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والبشارة في الجنة، لمن اتصفوا بهذه الصفات، ونجد ذلك الفضل والرضوان مطلبًا رئيسًا من مطالب الرّكّع السجود من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لدخول الجنة، كما في هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩].

٢. الوصف بأنهم من الصالحين.

وقد جاء هذا الوصف لهم في هاتين الآيتين: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

٣. المسارعة بالسجود عند تلاوة القرآن عليهم.

وهذا ورد في قول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

أي: يسارعون إلى السجود لله عند تلاوة آياته.

٤. نيل الفلاح في الدارين.

وهذا ما وعد الله عباده الساجدين العابدين له.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ووعد الله نافذٌ لا محالة؛ بأنهم سيكونون يوم القيامة من المفلحين، الفائزين بجنات النعيم.

ثالثًا: ظهور السيما على وجوه الساجدين:

لقد وردت لفظة: (السيما) بأنها علامة ظاهرة على وجوه أمة خاتم الأنبياء والمرسلين؛ تمييزًا لهم عن بقية الأمم.

تعريف(السيما): هي بياضٌ ونورٌ ظاهر في جبهة السّجّاد يوم القيامة، وسمتٌ حسنٌ وصلاحٌ وخشوعٌ وتواضعٌ تظهر على

وجوههم في الدنيا، من أثر سجودهم لله.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾

[الفتح: ٢٩].

«المراد بها: السمة التي تحدث في جبهة السّجّاد من كثرة السجود، أي: من التأثير الذي يؤثّره السجود - في وجوههم-»[١].

و قد لخص ابن كثير رحمه الله تعالى أقوال أهل العلم في تفسير لفظة: (السيما) نذكرها كما يلي:

«قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: السمت الحسن.

وقال مجاهد، وسفيان الثوري، وغير واحد رحمهم الله: هي الخشوع والتواضع.

وقال السدي رحمه الله: الصلاة تحسن وجوههم. وبهذا أخذ الشيخ ابن السعدي رحمه الله، وبرّر أخذه بهذا التفسير: بأنه لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم.

وعن الحسن البصري رحمه الله: السيما مواضع السجود من وجوههم يكون أشد وجوههم بياضًا يوم القيامة. وقال بعض السلف رحمهم الله: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقال بعضهم: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس»[٢].

وزاد الطبري رحمه الله معاني أخرى ، ومنها : قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: بأنها الصفرة ؛ التي تظهر من سهر الليل. ولكنه- الطبري- رجح القول: بأنها ظهور آثار الإسلام عليهم في الدنيا، وبياض الوجوه من أثر السجود - في الآخرة-»[٣].

رابعًا: استحقاق جنات الخلد والنعيم:

ومن آخر ثمرات السجود لله تعالى، الفوز بالنعيم الدائم في جنات الخلد يوم القيامة، كما أرى في المقابل الجزاء والعقاب لمن رفض السجود لله عزّ وجلّ.

١. المغفرة والأجر العظيم للساجدين.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

[الفتح: ٢٩].

فالأجر العظيم المذكور هو: مكافأة الله لهم بالنعيم الدائم في جنة الخلد.

٢. الفوز بالجنة دار الخلود.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾

(١) الكشاف، الزمخشري ص١٠٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١-٣٢٦.

[الزمر:٩].

ورجاء رحمة الله، هي: طلب الجنة التي فيها النعيم الدائم، والله لا يرد رجاء عبده المؤمن.

وفي قصة سجود السحرة وإيمانهم برسالة موسى عليه الصلاة والسلام، قام فرعون بتهديدهم بالتنكيل والعذاب، فلم يأبهوا لذلك طمعًا بما عند الله من النعيم المقيم، فكان جزاء الله لهم: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه:٧٦].

وفي سورة مريم رتّب الله سبحانه وتعالى الجزاء لمن خروا سجدًا وبكيًّا، ولكل من تاب وآمن وعمل صالحًا فلهم: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١].

جزاء من رفض السجود لله

وقد جاء هذا في صنفين اثنين:

الأول: إبليس؛ لرفضه أمر الله بالسجود لآدم: فكان جزاءه في أمرين اثنين:

١. دمغه بالكفر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

وقول الله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص:٧٤].

٢. اللعن والطرد من رحمة الله.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص:٧٧].

الثاني: الكافرون الرافضون السجود لله.

فجازاهم الله بعدة أمور، هي:

١. قلوبهم قاسية.

فهم لا يتعظون بما يتلى عليهم من القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:٢١].

٢. الذلة والصغار يوم القيامة.

لأنهم دعوا للسجود لله، وهم في صحة وعافية طيلة حياتهم، فأبوا ذلك.

قال الله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

٣. فضحهم يوم القيامة أمام الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

وذلك بتيبس فقرات ظهورهم فلا يقدرون على السجود.

موضوعات ذات صلة:

آدم، الركوع، الصلاة، العبادة، الوجه





عناصر الموضوع

المجلد السابع عشر

مفهوم السحاب

أولًا: المعنى اللغوي:

«السين والحاء والباء أصل صحيح يدل على جر شيء مبسوط ومده، تقول: سحبت ذيلي بالأرض سحبًا، وسمي السحاب سحابًا؛ تشبيهًا له بذلك، كأنه ينسحب في الهواء انسحابًا»[1].

والسحاب: جمع سحابة، والسحابة: الغيم، سميت بذلك؛ لانسحابها في جو السماء، أو لجرها الماء، أو لانجرارها في ممرّه، أو لجرّ الرياح لها؛ لأن السّحب الجرّ[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، وقد عرفه المناوي بأنه: «المتراكم من جهة العلو من جوهر بين الماء والهواء»[3].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٥٠٩.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٦، مختار الصحاح، الرازي ص١٦٥، المصباح المنير، الفيومي ص١٦٢.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٩١.



السحاب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سحب) في القرآن الكريم (١١) مرة، يخصّ موضوع البحث منها (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٩	﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤]

وجاء السّحاب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الذي هو الغيم المعروف[٢].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ١٢﴾ [الرعد: ١٢] أي: الغيم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٥٩٣.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٩٥-١٩٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغمام:

الغمام لغةً:

جمع غمامة، وهي السحابة، وقد أغمت السماء أي تغيّمت[١].

الغمام اصطلاحًا:

«هو أقوى من السحاب ظلمة، فإنه أول ما ينشأ هو النشر، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام»[٢].

الصلة بين الغمام والسحاب:

الغمام في الاصطلاح خاص بما فيه ظلمة أكثر من السحاب.

٢ المزن:

المزن لغةً:

جمع مزنة وهي السحابة البيضاء[٣].

المزن اصطلاحًا:

السحاب المضيء شديد البياض[٤].

الصلة بين المزن والسحاب:

المزن ما كان أبيض من السحاب فإنه يكون مضيئًا.

٣ العارض:

العارض لغةً:

السحابة التي ترى ناحية السماء[٥].

العارض اصطلاحًا:

الذي يكون محمولًا على السحاب خارجًا عنه[٦].

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٣٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٤٤.
(٢) الكليات، الكفوي ص٦٧١.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٠٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣١٨.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٠٤.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٢٩٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٧٨.
(٦) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٤٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٣.

الصلة بين العارض والسحاب:

العارض خاص بما يعرض من السحاب دون غيره.

٤ الغيوم:

الغيوم لغةً:

السحاب، وأغيم القوم أصابهم غيمٌ، وغيّم الليل جاء كالغيم[(١)].

الغيوم اصطلاحًا:

شيء يكسو السحاب سوادًا ساعة نزول المطر.

الصلة بين الغيوم والسحاب:

السحاب أعمّ وأشمل من الغيوم؛ إذ الغيوم تختص بالسحابة السوداء ساعة نزول الغيث.

٥ المعصرات:

المعصرات لغةً:

«السّحاب فيها المطر، وقيل: السّحائب تعتصر بالمطر»[(٢)].

المعصرات اصطلاحًا:

كل سحاب ملئت بالماء الذي يعتصر فيصبح مطرًا.

الصلة بين المعصرات والسحاب:

المعصرات أخص من السحاب؛ فهي كل سحابة تمتلئ ماءً يعتصر.

٦ المطر:

المطر لغةً:

«الماء المنسكب من السحاب، والمطر: ماء السحاب»[(٣)].

المطر اصطلاحًا:

كل ماء ينزل من السحاب، بقدر الله تعالى، سواء أكان للرحمة أو العذاب.

الصلة بين المطر والسحاب:

المطر هو الماء المنسكب من السحاب، ومن ثم فهو أثر من آثار السحاب في ظواهرها الجوية المصاحبة لها.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٤٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٧٧.
(٣) المصدر السابق ٥/ ١٧٨.

السحاب من دلائل القدرة الإلهية

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن السحاب، يظهر له جليًّا عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته؛ فقد بيّنت تلك الآيات القرآنية عناوين عظيمة لقدرة الله تعالى، ومنها:

١. بيان القدرة على إحياء الخلق بعد مماتهم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[فاطر:٩].

حيث إن هذه الآية تبين أنّ الله تعالى قدّر إرسال الرياح، فترفع السحاب وتهيّجه للحياة، ومن ثم الغيث؛ فيساق بأمر الله تعالى إلى بلدٍ مجدب الأهل، محل الأرض، داثر لا نبت فيه ولا زرع، فبعد ذلك أخصب الله تعالى بغيث ذلك السحاب الأرض التي سيق الغيث إليها بعد ما كانت جدباء، ونبت فيها الزرع بعد المحل، وتأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية الكريمة؛ لتبين أنه كما أحيا الله تعالى الأرض الجدباء بعد مماتها فهو قادرٌ عل أن ينشر الموتى بعد فنائهم في قبورهم؛ فيحييهم من بعد ممات[1]، فما أعظم قدرة الله تعالى!!! وما أحكم آياته!!!.

٢. بيان رحمة الله تعالى بخلقه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[النور:٤٣].

فالله تعالى برحمته وتفضّله على خلقه يسوق السحاب، ثم يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعةً واحدة، ثم يجعل بعض السحاب فوق بعض، فيرى ذلك المخلوق المطر شديده وهيّنه يخرج من خلاله، وينزّل الله تعالى من السماء من الجبال التي في السماء المخلوقة من البرد؛ فيصيب الله تعالى بعدله من يشاء فيضرّه في زرعه وثمره، ويصرفه عمّن يشاء من عباده برحمته وفضله؛ حيث إن هذا السحاب يكاد ضوء برقه يذهب بالأبصار فيعميها[2].

وفي هذه الآية الكريمة تتجلى رحمة الله تعالى مع قدرته؛ فإن من كمال الرحمة أن يصاب المخلوق بها مع علمه بأن الله تعالى قادرٌ على عقابه وحسابه.

٣. القدرة على بسط السحاب كيف يشاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٢، تفسير السمرقندي ٣/ ١٠١.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠١.

[الرعد:١٢].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الله تعالى يري الناس جميعًا ذلك البرق الذي هو عبارةٌ عن مخاريق بأيدي الملائكة من نارٍ يسوقون بها السحاب إلى حيث يشاء الله تعالى؛ فالبرق له دلالتان: الأولى أنه نذير خوف من صاعقةٍ أو مطرٍ في غير موعده النفعي أو غير ذلك من أنواع الخوف، والأخرى أنه بشير طمعٍ في نفع المطر، ثم ينشئ الله تعالى السحاب الثقال من حمل المياه[1]، ومما لا شكّ فيه أن ذلك آية دالة على القدرة الإلهية.

٤ . مراحل تكوين السحاب.

حيث يكون السحاب عبارة عن قزع، قطعة هنا وقطعة هناك، فيأتي هواء خفيف فيدفع هذه السحب شيئًا فشيئًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُزۡجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ [النور:٤٣].

ويتكون السحاب الركامي حين تجتمع سحابتان، أو تنمو سحابة سريعة، عندها يتكون تيار هوائي تلقائي في داخلها، وهذا التيار الهوائي الذي بداخلها يصعد إلى أعلى، وحين يصعد إلى أعلى يعمل مثل الشفاطة التي تشفط الهواء من الجنب، وتقوم بسحب السحب بالشفط، بعدما تكونت على هذا النحو وأصبح لها قوة سحب وجذب للسحب المجاورة وهذا هو التأليف، فإذا تباعدت السحب الأخرى يتوقف الشفط، ويحدث شيء قوي جدًّا، وهو نموٌّ رأسيٌّ إلى أعلى، وبهذا النمو الرأسي إلى أعلى يركم السحاب بعضه فوق بعض، فيصير ركامًا ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾، وتعلو السحابة فوق، وتعلو بعضها فوق بعض، فترى المطر عندها يتوقف الركم ويضعف، فإذا ضعف فإن المطر ينزل على ذلك الأثر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٨٣.

أوصاف السحاب في القرآن

ورد السحاب في الاستعمال القرآني بأوصاف عديدة ظاهرة، ومنها:

١ . التسخير.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

حيث إن الآية السابقة دعت إلى توحيد الله تعالى في ألوهيته، وبيّنت صفتين من صفات المولى الكريم جل جلاله، وهما الرحمن الرحيم، وبذلك يتضح أن المقام هو الحديث عن أمورٍ غيبية في التوحيد المطلق لله تعالى، ولما كان هذا المقام لا يصح إلا بتمام العلم وكمال القدرة نصب الأدلة على ذلك في هذه الآية[١].

حيث إن هذه الآية الكريمة تحثّ على التفكّر فيما خلق الله تعالى بدءًا من خلق السماوات والأرض وعظيم ما فيهما من شواهد دالة على قدرته تعالى، ومرورًا باختلاف الليل والنهار وما ينتج عن ذلك من ظواهر كونية عظيمة، وكذلك السفينة المدوّرة التي تمخر في عباب البحر بما تقدّمه من منافع للناس من ركوبة أو صيد أو غير ذلك، وما أنزل الله تعالى من السماء من غيث يحيي الأرض وينبت الزرع، ويبث فيها من كل دابّة، وتصريف الله تعالى الرياح، ومما يستحق التعقّل والاعتبار هو ذلك السحاب المسخّر المذلّل المقهور على فعل ما يريده الله تعالى، ومن المعلوم أن صفة التسخير المصاحبة للسحاب أبلغ من أية صفة في مقام التدبّر بآيات الله تعالى الكونية؛ لأن التسخير يعني حمل تلك السحاب على القيام بوظائفها عمومًا دون إرادةٍ منها[٢].

ومما يدلل على تسخير السحاب صلاة الاستسقاء التي شرعت في طلب المطر عند القحط أو عند الجفاف، وما يتبعه من هلاك الحياة، واستجابة الله الفورية، وإنزال المطر، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الغيم والريح، عرف ذلك في وجهه، فأقبل وأدبر، فإذا أمطر سري عنه، وذهب عنه ذلك، وكان يخشى أن يكون فيه العذاب[٣].

ويلاحظ في هذه الآية أن الله تعالى قد بيّن أن السحاب المسخّر هو ما وقع بين السماء والأرض، ويترتب على ذلك حقائق، أهمها:

- السحاب عمومًا موصوف بأنه مسخر مقهور على فعل ما يريده الله تعالى، فالتسخير صفة ذاتية لا تنفكّ عن أي نوع من أنواع السحاب، وقد ورد أن

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٢٨٧.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٩.

(٣) انظر: السحاب في القرآن، حسني حمدان الدسوقي حمامة، موقع الألوكة الثقافية.

الله تعالى يسخّر ماءً بعينه في سحابةٍ بعينها لأمر يريده جل جلاله [1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتًا في سحابةٍ: اسق حديقة فلانٍ، فتنحّى ذلك السّحاب، فأفرغ ماءه في حرّةٍ، فإذا شرجةٌ من تلك الشّراج قد استوعبت ذلك الماء كلّه، فتتبّع الماء، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلانٌ - للاسم الّذي سمع في السّحابة - فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إنّي سمعت صوتًا في السّحاب الّذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلانٍ، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذ قلت هذا، فإنّي أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأردّ فيها ثلثه)[2]، وهذا الحديث دالٌّ على أن هذا السحاب مسخّرٌ بمشيئة الله تعالى وإرادته.

- السماء في عمومها هي كل ما علا على سفل الأرض، وتشمل بذلك السحاب وغيرها؛ لكن المقام في هذه الآية هو أن السماء ما كان أعلى من السحاب من جهة، وأن السحاب موكّلٌ بوظائف مقدّرة من الله تعالى؛ فهي بذلك مسخّرة على فعلها، ومن ذلك: الغيث وإنزال العقاب وغير ذلك.

٢. الثقل.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢].

فعندما خوّف الله تعالى عباده بإنزال ما لا مردّ له من العذاب أتبع هذه الآية وما بعدها، وهي تشتمل على أمور ثلاثة، وهي:

- أنها تدل على قدرة الله تعالى وحكمته.
- وأنها تشبه النّعم والإحسان من بعض وجوه.
- وأنها تشبه العذاب والقهر من بعض وجوه.

وعلى هذا فإن الله تعالى بيّن أن من دلائل قدرته جل جلاله وحكمته رؤية البرق خوفًا من العذاب وطمعًا في الرحمة؛ فحدوث البرق دليلٌ عجيبٌ على قدرة اللّه تعالى، وبيانه: أنّ السّحاب لا شكّ أنّه جسمٌ مركب في أجزاءٍ رطبةٍ مائيّةٍ، ومن أجزاءٍ هوائيّةٍ وناريّةٍ، ولا شكّ أنّ الغالب عليه الأجزاء المائيّة والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار يابسٌ، وظهور الضّدّ من الضّدّ التّامّ على خلاف العقل؛ فلا بدّ من صانعٍ مختارٍ يظهر

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٤/ ٢٢٨٨، رقم ٢٩٨٤.

الضّدّ من الضّدّ[1].

وإن ظهور النار الضعيفة بلونها في ظل أجزاء السحاب الثقال من كثرة ما تحمل من ماء خالص لهو دليلٌ عملي على قدرة الله تعالى وحكمته، وأنه يخوّف عباده بالعذاب، ويجعلهم يطمعون في رحمته[2].

وإنشاء السحاب إبداؤه[3]، وفي ذلك ظهور عظمة قدرة الرب سبحانه وتعالى بجعل السحاب مثقلة بالمياه في جو السماء، ثم سوقها وإزجاؤها حيث يشاء رحمة منه بعباده.

٣. التراكم.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[الطور:٤٤].

والمركوم هو: المجتمع الكثيف، فالله يزجي السحاب، فيسوقه، ثم يجمعه، ثم يجعله مجتمعًا كثيفًا[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾[النور:٤٣].

ففي جعل الله تعالى السماء ركامًا دليلٌ عظيمٌ على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن العلماء لم يعرفوا بأن عملية الركم الناتجة عن عملية الرفع عقبها نزول المطر مباشرة إلا عن طريق الدراسة باستخدام الأجهزة العلمية المتطورة التي لم تكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فانظر كيف قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: ينزل المطر بعد الركم مباشرة كما كشف العلم الحديث، فسبحان الله العظيم[5].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٢٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٢١.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٣٥، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٨٢١، التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ٣٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨٨.
(٥) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن، جامعة المدينة العالمية ص٣١٤.

السحاب والرياح

وردت كلمة الرياح في القرآن الكريم عشر مرات، وفي كل مواضع ورودها كانت مرتبطةً بالسحاب سواء من خلال بيان لفظتها، أو من خلال إظهار آثارها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

١. ارتباط السحاب بتصريف الرياح.

وردت كلمة السحاب مرتبطة بتصريف الرياح في آيتين، إحداهما مكية، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

والأخرى مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والتصريف: هو صرف الشيء من وجه إلى وجه آخر[١]، قال الطبري رحمه الله تعالى: «وتصريف الله إياها أن يرسلها مرة لواقح، ومرة يجعلها عقيمًا، ويبعثها عذابًا تدمر كل شيء بأمر ربها»[٢]، وقال أيضًا: «وفي تصريفه الرياح لكم شمالًا مرة، وجنوبًا أخرى، وصبًّا أحيانًا، وزبورًا أخرى لمنافعكم، وقد قيل: عنى بتصريفها بالرحمة مرة، وبالعذاب أخرى»[٣].

قال أبو الحسن الحرالي: «لما ذكر تعالى الأعلى والأسفل، ومطلع الليل والنهار من الجانبين وإنزال الماء إهواءً ذكر ما يملأ ما بين ذلك من الريح والسحاب الذي هو ما بين حركة هوائية إلى استنارة مائية، إلى ما يلزم ذلك من بوادي نيرانه، من نحو صواعقه وجملة أحداثه، فكان في هذا الخطاب اكتفاءً بأصول من مبادئ الاعتبار، فذكر السماء والأرض والآفاق وما بينهما من الرياح والسحب والماء المنزل الذي جملته قوام الخلق في عاجل دنياهم؛ ليجعل ذلك آية على علو أمر من ورائه، ويكون كل وجه منه آية على أمر من أمر الله فيكون آيات»[٤].

ويلاحظ أن الآيتين المكية والمدنية قد جاءت فاصلتهما بقوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وهذا يعني ضرورة إعمال العقل في التفكر والتأمل في آيات الله تعالى الكونية الدالة على عظيم قدرته جل جلاله، وهذا يشمل العهدين:

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٣٨٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٧٥.

(٣) المصدر السابق ٢١/ ٧٤.

(٤) تراث الحرالي ١/ ٣٠٣.

المكي والمدني، إلا أن الآية المدنية ذكرت السحاب باعتباره مذلّلًا من الله تعالى لهذه الوظيفة، أما الآية المكية فقد ذكرت السماء التي هي أعم من السحاب؛ لأن المقام في مكة هو توجيههم للتوحيد والتخلص من الشرك، وليس إظهار دقائق الأمور، وهذه العبرة ينبغي أن يتعلمها الدعاة في مخاطبة الناس؛ فالأصل هو إيصال الناس إلى الهدف الأسمى ، وهو: إخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وبذلك لا يشتغلوا بتفاصيل الدعوة إلا بعد تغلغل الأصول في قلوب المدعوّين إلى الله تعالى.

ويلاحظ أيضًا أن تصريف الرياح من وجهة إلى أخرى للسحاب المكلف بإنزال الماء عذابًا أو رحمة؛ للدلالة على قدرة الله تعالى في إمهال الناس دون الغفلة عنهم، أو عن عقابهم جزاء أفعالهم.

٢. إرسال الرياح للسحاب بشرى ورحمة من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٥٧].

وإرسال الرياح هنا، أي: بسطها بين يدي المطر، وهذا لأجل الرحمة بالعباد والبشرى لهم بالغيث الذي يحيي الأرض التي لا نبات فيها من بعد ممات[1]، ومثل معنى هذه الآية ورد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[الفرقان:٤٨].

قال السدي في تفسيرها: «إن الله عز وجل يرسل الرّياح ، فتأتي بالسّحاب من بين الخافقين طرفا السّماء والأرض ، حيث يلتقيان فيخرجه من ثمّ، ثمّ ينشره فيبسطه في السّماء كيف يشاء ، ثمّ يفتح أبواب السّماء ليسيل الماء على السّحاب ، ثمّ تمطر السّحاب بعد ذلك»[2].

ومن مظاهر رحمة الله تعالى وبشراه لخلقه أن الرياح لواقح للنباتات، فإذا نزل الغيث وانسكب الماء عليه بالسقاية كانت الرحمة بالعباد بإخراج ما لذّ وطاب ونفع من الثمرات، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[الحجر:٢٢].

وقد اختلف المفسرون في لواقح الرياح، والذي يظهر من كلام ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، أن الله تعالى يبعث الرياح؛ «لتلقح السّحاب ، فتحمل الماء وتمجّه في السّحاب، ثمّ إنّه يعصر السّحاب ويدرّه كما تدرّ اللّقحة ، فهذا هو تفسير إلقاحها

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ١٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٤.

للسّحاب»[1]، والرياح إذا ذكرت في القرآن الكريم في اليابسة تكون رحمة، وإذا ذكرت في البحر فهي للعذاب، وإذا ذكرت الريح في البحر تكون رحمة، وإذا ذكرت في اليابسة تكون للعذاب.

٣. تفريق الرياح للسحاب المحمل بالماء؛ لبيان العظة المستفادة.

ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

حيث مثّل القرآن الكريم هذه الحياة الدنيا بالماء الذي أنزله الله تعالى من السماء فاختلط نبات الأرض بهذا الماء حتى استوى وأينعت ثماره، فإذا به يصبح متكسرًا متفتتًا تفرّقه الرياح وتطيّره، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لبيان أن الله تعالى مقتدر على كل شيء[2]، والسحاب منه الموجب والسالب، وعندما يزجي بين السحاب يحدث تجاذب بين نوعيه فيحدث تفريغ هوائي ينتج عنه البرق والرعد (الصوت) ، وفي ذلك دلالة على الوحي والنبوة.

وما أجمل ما نقله القرطبي رحمه الله عن قول لبعض الحكماء في بيان الحكمة من تمثيل الدنيا بالماء، وذلك أنهم قالوا: «إنما شبه تعالى الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقي على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل ، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعًا منبتًا، وإذا جاوز المقدار كان ضارًّا مهلكًا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر»[3].

٤. إرسال الرياح مع البشرى للخلق؛ لأجل دعوتهم إلى التوحيد الخالص لله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٦٣].

فالله تعالى هو الهادي للعباد في ظلمات البر والبحر عند سفرهم وترحالهم، وهو الذي يرسل الرياح في مقدمة الغيث؛ ليبشر الناس بالرحمات المترتبة على ذلك الغيث الذي حمله السحاب[4]، ثم تأتي الفاصلة القرآنية، وذلك بصيغة الاستفهام التعجبية

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٢.
(٢) مفاتيح الغيب الرازي ١٩/ ١٣٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١١.

الإنكارية لأفعالهم؛ إذ كيف يعبدون إلهًا غير الله تعالى، أو يتوجهون إلى مخلوق مهما علت مرتبته ومناقبه، فالله تعالى وتنزّه عن كل صفات النقص التي تنسب إليه ظلمًا وبهتانًا من أولئك الذين تغمرهم نعم الله تعالى.

السحاب والماء

إن الآيات القرآنية التي أوردت السحاب قد بيّنت في أكثر من موضع أنّ منه ما هو مثقلٌ بما يحمله من ماء تصرفه الرياح حيث يشاء الله تعالى؛ لمنافع عديدة، منها:

١. إخراج النبات والحبوب الزراعية، وإزهار الجنات والحدائق الملتفّة بالأغصان والزروع، وسقاية الخلق جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢﴾ [الحجر: ٢١-٢٢].

حيث إنه لما بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنه أنبت في الأرض من كل شيءٍ موزون، وجعل فيها معايش أتبعه بذكر السبب، وهو أن كلّ المخلوقات عند الله تعالى خزائنهم ومتطلباتهم؛ لكن لا ينزل إلا بقدرٍ معلوم؛ فالماء مثلًا يرسل بتقدير الله تعالى وعلمه بعد تلقيح النبات؛ فقد يأتي مباشرةً على كل النباتات، وقد يصرف إلى نباتات دون الأخرى، وقد ينزل على البحر معظم كميته؛ فالقدر عند الله تعالى معلوم، إلا أن تقسيمه هو شأن الذات الإلهية[١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٣٣.

وقد وضّحت آيات سورة النبأ سبب إنزال الماء الثجّاج، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[النبأ: ١٤-١٦].

حيث وردت هذه الآيات في سياق الحديث الرباني عن بعض نعمه، ومنها: إنزال الماء السيّال المجتمع المنصبّ الكبير من السحاب التي تعصر بذلك الماء، وهذا لأجل إخراج الحبوب الكثيرة للناس، والنبات للدواب من العشب والكلأ، وأيضًايخرج بسبب إنزال الماء بعد تقدير الله تعالى الجنات والحدائق الملتف بعضها في بعض[1].

ومن المعلوم أن الماء حينما ينزل فإن الخلق جميعًا يشربونه؛ كسبب رئيس للحياة.

٢. التطهير وإذهاب النجس بأنواعه.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال: ١١].

حيث إن هذه الآية تبين بعضًا من مظاهر امتنان الله تعالى على عباده المؤمنين مع رسول الخلق وحبيب الحق أنه أراهم آيات البشرى بالانتصار والتأييد قبل غزوة بدر الكبرى، ومن هذه البشريات: أنه أنزل عليهم ماءً مباركًا؛ ليطهرهم من الحدثين الأكبر والأصغر، ويذهب عنهم نجاسات الشيطان القلبية وما يترتب عليها، وليزيل رعب القلوب؛ حتى تثبت أقدامهم في المعركة الفاصلة بين الحق والباطل[2].

٣. إقامة الحجة على الناس؛ حتى يوحدوا الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[الواقعة: ٦٨-٧٠].

حيث وردت هذه الآيات في سياق مخاطبة الله تعالى للضالين المكذبين؛ فبعد أن عرضت تلك الآيات كثيرًا من الحجج الدالة على وحدانية الله تعالى، تستأنف هذه الآيات ذكر حججٍ أخرى، ومنها الماء الصالح للشرب الذي يراه الناس جميعًا، فهل أنزل هؤلاء المكذبون الضالون ذلك الماء من السحاب إلى قرار الأرض؟ أم إن الله تعالى هو الذي أنزله بتقديره وعلمه؟!

ثم إنّ الله تعالى قادرٌ - إن شاء- أن يجعل الماء مرًّا مالحًا لا يستطيع أن يتجرّعه أحدٌ، أو أن ينتفع به في الزروع والكروم، وتأتي الفاصلة القرآنية في الآية السبعين بأسلوب التحريض لغرض الشكر لله تعالى على إنعامه على الخلق من نعمٍ موجبةٍ لذلك

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٣٧.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٣٢.

الثناء[1].

٤ . بيان حال الكافرين وضياعهم.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٢٨٦.

السحاب بين الرحمة والعذاب

إن الله تعالى قد جعل من آياته الكونية عظيم امتنان على عباده؛ إذ لو شاء لجعل من كل رحمة عذابًا، أو من كل عذاب رحمة؛ فكلّ ما خلق الله تعالى هو مسيّر لأمره وتقديره وعلمه.

وإن هذا المبحث يركز على إحصاء آيات السحاب التي تأتي للرحمة، وآيات السحاب التي تأتي للعذاب، ومن ثم التعرف على عظيم حب الله تعالى لخلقه، والله الموفق والمستعان.

أولًا: سحاب الرحمة:

إن آيات السحاب هي في معظمها تدل على الرحمة الكبيرة من الله تعالى، وتدعو بأسلوب التفضل النعم كلّ الناس أن يشكروا ربهم جل جلاله، ويمكن تلخيص دلالات الرحمة في السحاب في القرآن الكريم من خلال ما يأتي:

١ . إرسال الرياح؛ للقح السحاب، وإحلال الخير.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨].

فقوله (الرياح) قد قرأها ابن كثير وحمزة

والكسائي على الإفراد، وقرأها الباقون على الجمع، وقد اشتهر عند المفسرين أن الرياح إذا كانت جمعًا فهي رحمة، وإذا كانت مفردة فهي عذاب[1].

وبعد المتابعة لوحظ أن كلامهم ينسحب على السياق القرآني في قراءات معينة، وليس كل القراءات المتواترة؛ فمثلًا: هذه الآية قرئت جمعًا وقرئت مفردةً، والسياق في ظاهره يعني الرحمة والفرح والاستبشار؛ فبتحريك الريح أو الرياح -على اختلاف القراءات- للسحاب وبسطه في السماء، ثم جعله في طبقات فوق بعضها البعض ينزل المطر المحمّل بالاستبشار والبهجة والسرور.

والسنة النبوية ملئت بالأحاديث التي تدلُّ على أن الريح منها ما هو رحمة ومنها ما يكون عذابًا، إلا أنه إذا أطلقت كلمة الرياح فإنها لا تعني إلا الرحمة، ومنها حديث أبي هريرة، حيث قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(الريح من روح الله قال سلمة: « فروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب؛ فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»**[2].

وأما الحديث المشهور **(اللهم اجعلها رياحًا لا ريحًا)، فهو حديث ضعيف جدًّا موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما**[3].

٢. من الرياح ما يكون مبشّرًا باقتراب نزول الغيث من السحاب.

وما يترتب عليه من: إحياء الأرض وإنبات الزرع بعد أن كانت الأرض كلها ميتة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾[الأعراف:٥٧].

وقد قرأ عاصم بالباء الموحّدة وضمها وإسكان الشين (بشرًا)؛ فيكون إرسال الرياح مبشّرًا بنزول المطر بعد بسط السحاب المحمّل بالماء في السماء، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين (نشرًا)؛ فيكون إرسال الرياح من نشر السحاب في السماء؛ تهيئةً لنزول المطر ، فهي بشارةٌ كبيرة لكل الخلق، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها (نشرًا)؛ فيكون إرسال الرياح التي تهبّ من كل جهة؛ لجمع السحاب الممطرة، وقرأ الباقون بالنون وضمها وضم الشين (نشرًا)؛ فيكون

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ٦٩، رقم ٧٦٣١، وأبو داود في سننه، كتاب، باب ما يقول إذا هاجت الريح، ٤/ ٣٢٦، رقم ٥٠٩٧.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، / ٦٦٦، رقم ٣٥٦٤.

(٣) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني ٩/ ٢٢٨، رقم ٤٢١٧.

إرسال الرياح تهيئة لنزول المطر تمامًا كلغة (نشرًا) السابق ذكرها[1].

٣. إذاقة الرحمة للبشر جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[الروم:٤٦].

حيث تبين هذه الآية أن من رحمة الله تعالى في إرسال الرياح للسحاب وتسييرها بأن السبب إذاقة الخلق «بها الغيث والخصب، أو نعمته من المياه العذبة، والأشجار الرطبة، وصحة الأبدان، وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله»[2]، حيث كانت الرحمة الناتجة عن إرسال الرياح مبشرات عبارة عن ثوب يكسي أبدان أهل القرية فيشعر جميعهم بطعم هذه الرحمة الناتجة عن الغيث المنبت للزرع والمحي للأرض.

ثانيًا: سحاب العذاب:

سبقت الإشارة إلى أن آيات السحاب معظمها للرحمة؛ لكن منها ما يتوعّد الله تعالى بها خلقه من المشركين، ويمكن تلخيص دلالات الرحمة في السحاب في القرآن الكريم من خلال ما يأتي:

١. تهديد للذين يأمنون عقاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧].

فهل أمنتم من في السماء عذابه وعقابه وهو الله تعالى، أن يرسل عليكم سحابًا محمّلة بالحجارة؛ لتنالوا العقاب، فستعلمون حينها كيف نذير الله تعالى بالعقاب والوعيد[3].

٢. إنزال بعض المؤشرات المنذرة بالعقاب من السماء.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[الطور:٤٤].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الكفار بلغ من فرط عنادهم وشدة كفرهم أنهم طلبوا كسفًا من السماء؛ ليتبين لهم صدق دعوى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزل الكسف، وهو قطعة من السماء منذرة بالعذاب، فلما رأوا تلك الكسف استمروا في كذبهم، وقالوا هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض[4].

٣. إصابة السحاب لأجل العذاب والعقاب.

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٦٩، ٢٧٠، المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران ص٢٠٩، معاني القراءات، الأزهري ١/ ٤٠٩، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٥٧.

(٢) فتح البيان، القنوجي ١٠/ ٢٦٠.

(٣) انظر: فتح البيان القنوجي ١٤/ ٢٤١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٠٣.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣].

فإن هذه الآية تبين أن الله تعالى ينزل من السماء من خلال السحاب بردًا ومطرًا وصقيعًا، وقد يكون هذا رحمةً وهو الغالب، وقد يكون نقمةً؛ لأجل العذاب والانتقام، كما يحدث بين الفترة والأخرى في بعض بلاد العالم، فإن من يصاب بهذا من الناس فهو بتقدير الله تعالى، ومن يصرف عنه فهو برحمته وعلمه وقدرته؛ فإن من السحاب ما يحمل نارًا حارقة يرى في البرق شدة لمعانها وكذلك الصواعق، وغيرها[(١)].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٣/ ٢٩٢.

السحاب في المثل القرآني

ضرب الله تعالى مثلًا لظلمة قلب الكافر، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

فقد شبّهت الآية الكريمة الظلمات الكثيفة على قلب الكافر بظلمات في بحرٍ لجّيٍّ، أي: عميق كثير الماء، ولجة البحر: معظمه، يغشاه أي: يعلوه موج من فوق، موج، أي: متراكم من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، وذلك أن البحر اللجي يكون قعره مظلماً جدًّا بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كانت فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة غايتها[(٢)].

وقد صور القرآن الكريم في هذا المثل ظلمات قلب الكافر، وهي معنوية في صورة حسية، هي: ظلمات الموج المتراكم، ومن فوق السحاب؛ وذلك لتوضيح المعنى وتقريبه إلى الأذهان، والله أعلم.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٨، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥١٢٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١١١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨٥.

لمسات إعجازية في السحاب

إن الوجه المعجز الوحيد في القرآن الكريم هو الوجه البياني المتضمن للفظ والمعنى والنظم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:٤٣].

وعند تأمل هذه الآية نجد أنها أشارت إلى بعض الجوانب العلمية التي اكتشفت في العصر الحديث، ومنها[(١)]:

١. وصف الله تعالى السحاب بأنه يزجي، وهذا يعني أن الرياح تسوقه برفق إلى حيث قدّر الله تعالى في نزول المطر، وقد اكتشف العلماء أن السحاب الركامي تسوقه الرياح قطعًا من السحب الصغيرة إلى مناطق التجمّع، فتزداد كمية بخار الماء، وخاصةً أول التجمّع.

٢. يؤلّف بين السحاب بعد الإزجاء، وهذا يعني الجمع بين قطعه المتفرقة مع التنظيم والترتيب، ثم تتآلف السحب المتعددة؛ لتكون سحابًا واحدًا، ومن المؤكّد علميًّا أن هذه العملية تستغرق وقتًا طويلًا؛ ولذا جاء السياق القرآني (ثمّ) الذي يفيد التراخي[(٢)].

٣. جعل السحاب ركامًا بعد التأليف، وهذا يعني أن السحاب بعد أن أصبح قطعةً مترابطة واحدةً، تجتمع بعضها فوق بعض، وإن العلماء قالوا: إن عامل ركم السحاب الذي يكون بالنمو الرأسي لنفس السحابة، هو العامل الرئيسي في هذه المرحلة، وإن الانتقال إليه من المرحلة السابقة يحتاج كذلك إلى زمن ، لذلك كان استعمال حرف العطف الدال على الترتيب مع التراخي في الزمن. وهو حرف العطف (ثم).

٤. وصف الآية نزول المطر من فتوق السحاب ومخارجه، وهذا هو ما قرّره علماء الأرصاد.

٥. وصف قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[النور:٤٣]. ومعنى هذه الآية هو ما فهمه المختصون بأنه لا بد أن يكون السحاب في شكل جبلي يسمح بتكوين الثلج في المناطق العليا منه، ويسمح بتكوين الماء الشديد

---

(١) انظر: أنواع السحب رؤية قرآنية، عادل الصعدي، موقع جامعة الإيمان اليمنية الالكتروني.

(٢) انظر: إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر، من بحوث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مجموعة من الباحثين.

البرودة الذي سيتحول إلى مزرعة للبرد عندما يشاء الله في المنطقة الوسطى من السحابة، وإن البرد يتكون عندما تمكث نواة ثلجية لفترة زمنية كافية وتحتوي على ماء شديد البرودة (ماء درجة حرارته تحت الصفر حتى درجة -٤٠م).

٦. قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، يبين الله تعالى أن للبرد برقًا شديد اللمعان، فالضمير في برقه يرجع إلى أقرب مذكور وهو البرد، وسنا البرق: شدة بريقه وضوئه، ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: خطفه إياها من شدة الإضاءة، فنسب البرق إلى البرد في كتاب الله تعالى، والبرد يقوم بتوزيع الشحنات الكهربائية في جسم السحابة أثناء صعوده وهبوطه ، ثم يقوم بالتوصيل بين الشحنات الكهربائية المختلفة فيحدث تفريغًا هائلًا.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الرياح، السماء، الماء





عناصر الموضوع

مفهوم السحر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «السّين والحاء والرّاء أصولٌ ثلاثةٌ متباينةٌ: أحدها عضوٌ من الأعضاء، والآخر خدعٌ وشبهه، والثّالث وقتٌ من الأوقات»[1].

والسحر: «الأخذة التي تأخذ العين حتى تظن أن الأمر كما ترى وليس الأصل على ما ترى»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعاريف السحر لدى العلماء، بسبب كثرة أنواعه المختلفة، قال الشافعي: «والسحر اسم جامع لمعان مختلفة»[3]، فكل عالم يعرف نوعاً من أنواع السحر دون غيره، فمنهم من يعرف سحر التخييل فقط، ومنهم من يعرف سحر التفريق فقط، وهكذا.

وقال الطبري: «معنى السحر: تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته»[4].

وعرفه البيضاوي بأنه: «ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس»[5].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٣٨.
(٢) انظر: تهذيب اللغة ٤/ ١٦٩، مختار الصحاح، الرازي ص١٤٣..
(٣) الأم، الشافعي ١/ ٢٩٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٤٦.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٩٧.

السحر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (س ح ر) في القرآن الكريم (٦٣) مرة، وما يخص موضوع (السحر) (٦٠) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[الأعراف:١١٦]
الفعل المضارع	٢	﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:١٣٢]
مصدر سماعي	٢٨	﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾[يونس:٨١]
اسم الفاعل	٢٢	﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾[ص:٤]
اسم المفعول	٦	﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء:٤٧]
صيغة المبالغة	١	﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾[الشعراء:٣٧]

وجاء السحر في القرآن على أربعة أوجه[2]:

الأول: السحر المعروف الذي يأخذ بالعين والقلب، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة:١٠٢].

الثاني: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:١١٦] يعني: بكذب.

الثالث: الجنون، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء:٤٧] يعني: مجنونًا.

الرابع: الصرف، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾[المؤمنون:٨٩] يعني: تصرفون عن الحق.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٦-٣٤٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٧٠-٢٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخداع:

الخداع لغة:

هو إظهار خلاف ما يخفيه الشخص[١].

الخداع اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال ابن القيم: «والمخادعة: هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع»[٢].

الصلة بين الخداع والسحر:

يتفق الخداع مع السحر في قضية إخفاء الحقيقة وإظهار خلافها، لكنه يختلف مع السحر من حيث الحكم والوسيلة، فحكم السحر كفر عند جمهور أهل العلم، بينما حكم الخداع يختلف باختلاف أهدافه، فقد يكون حراماً وقد يكون حلالاً.

٢ الكهانة:

الكهانة لغة:

كهن له كمنع ونصر وكرم كهانة بالفتح، وتكهن تكهنًا: قضى له بالغيب؛ والكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار. والعرب تسمي كل من يتعاطى علمًا دقيقًا كاهنًا، ومنهم من كان يسمي المنجم، والطبيب، كاهنًا[٣].

الكهانة اصطلاحًا:

ادعاء علم الغيب[٤].

وقال ابن تيمية: الإخبار ببعض الغائبات عن الجن[٥].

الصلة بين الكهانة والسحر:

من خلال ما سبق يتبين لنا أن هناك فرقاً بين السحر وبين الكهانة من حيث التعريف، ومن حيث الوسيلة، فالكاهن من يدعي علم الغيب متوسلاً بالجن أو ببعض ما يزعم أنها

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم ١/ ١٣٢.
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ٣٤٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٦٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٥٨٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ٨١.
(٥) النبوات ص١٣.

استدلالات تعينه على معرفة علم الغيب، بينما الساحر يعتمد اعتماداً كليًا على الجن والشياطين فيما يدعيه من علم الغيب[١].

ومن حيث الحكم نجد بأن السحر والكهانة كلٌ منهما محرم شرعًا، وما جاء من أدلة في تحريم السحر، تصلح أيضًافي باب حكم الكهانة.

٣ العرافة:

العراف لغة:

قال الجوهري: «والعراف الكاهن والطبيب»[٢].

العراف اصطلاحًا:

قال الخطابي: «هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها»[٣].

وقيل عنه أيضًا: أنه من يدعي علم الغيب، وربما شمل الكاهن والمنجم والرمال[٤].

الصلة بين العرافة والسحر:

بينهما تقارب ظاهر بيّنٌ، فالعرافة من حيث ارتباطها بالجن لا تختلف عن السحر، فكلٌ من العرّاف والساحر لا يستغنيان عن الجن والشياطين في أعمالهما الكفرية.

ومن حيث الحكم فالعرافة محرمة كما السحر، وعقوبة العراف القتل مثل الساحر[٥].

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ٨٢.
(٢) الصحاح ٤/ ١٤٠٢.
(٣) معالم السنن ٤/ ٢٢٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣.
(٥) انظر: الفروع، ابن مفلح ٦/ ١٦٨.

حقيقة السحر

السحر كلمة تكررت في كل العصور، واستخدمتها كل الأمم، بطرق ووسائل مختلفة، ونسجوا لها القصص والخيالات، ووقف الجميع أمام مسألة السحر، فمن منبهر مصدق معظّم، ومن جاحد مكذب، ومن مصدق لحقيقة السحر، مع اعتقاده بتوقف أثره على مشيئة الله.

وفي هذا المبحث سأناقش مسألة حقيقة السحر، وهل له حقيقة؟ أم أن المسالة لا تعدو أن تكون ضرباً من التمويه والتخييل ليس إلا؟

قال أبو حيان: «واختلف في حقيقة السحر على أقوال:

الأول: أنه قلب الأعيان واختراعها وتغيير صور الناس مما يشبه المعجزات والكرامات، كالطيران وقطع المسافات في ليلة.

الثاني: أنه خدع ومخاريق وتمويهات وشعوذة لا حقيقة لها...

الثالث: أنه أمر يأخذ بالعين على جهة الحيلة...

الرابع: أنه نوع من خدمة الجن، وهم الذين استخرجوه من جنس لطيف أجسامهم وهيئاتها، فلطف ودق وخفي.

الخامس: أنه مركب من أجسام تجمع وتحرق، وتتخذ منها أرمدة ومداد، ويتلى عليها أسماء وعزائم، ثم تستعمل فيما يحتاج إليها من السحر.

السادس: أن أصله طلسمات[1]...، تبنى على تأثير خصائص الكواكب...

قال بعض معاصرينا: هذه الأقوال كلها التي قالوها في حقيقة السحر أنواع من أنواع السحر، وقد ضم إليها أنواع أخر»[2].

الخلاف في هذا المسألة بين جمهور العلماء من جهة، وبين المعتزلة وبعض أهل السنة من جهة أخرى.

فبينما يذهب جماهير العلماء إلى القول بأن للسحر حقيقة، مستدلين بما يلي:

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦].

---

(١) المراد بالطلسم في باب السحر: «خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي».
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٦٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ١/ ٥٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق:٤].

فقد ذكر الله تعالى في الآية الأولى نتيجة هذا السحر وهو التفريق بين الزوجين، ولو لم يكن للسحر حقيقة لما أثر على العلاقة التي تكون بين الزوجين، وهي من أعظم العلاقات.

والآية الثانية بينت أن للسحر حقيقة وأثراً، إلا أن هذا الأثر متوقف على المشيئة، فلو لم يكن ثم حقيقة وأثر لما كان لذكر المشيئة هنا أي فائدة.

وفي الآية الثالثة يخبر تعالى أنهم أتوا بسحر ، وفي هذا دليل على أن للسحر حقيقة.

وفي الآية الأخيرة يأمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من شر السحر، ولو لم يكن للسحر حقيقة ولا أثر لما أمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من شره.

يذهب المعتزلة إلى القول بأن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو من قبيل الخداع والشعوذة والتمويه.

واستدلوا بما يلي:

قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦].

وقالوا بأن القضية كانت مجرد تخييل فقط ولا حقيقة لها في الواقع، بدليل قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦].

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

وقالوا مادام أنه نفى عنه الفلاح، فهذا يعني أنه ليس على حق، أو لا حقيقة لما معه من السحر.

لكن يقال لهم نفي الفلاح لا يدل على نفي الحقيقة، فنفي الفلاح إنما هو عقوبة وجزاء على هذا الفعل الشنيع.

وقالوا: لو سلمنا بحقيقة السحر لحدث التباس بينه وبين معجزات الأنبياء، فعاد ذلك على المعجزات بالإبطال.

وهذا غير صحيح ؛ فإن هناك فرقًا كبيرًا بين معجزات الأنبياء وبين سحر الساحرين.

معجزات الأنبياء سببها النبوة ، وأما ما يجري على يد السحرة فسببه الجن والشياطين الذين يستعين بهم الساحر.

كذلك معجزات الأنبياء غير معارضة، ولا يقدر أحد على المجيء بمثلها، بينما سحر السحرة غير سالم من المعارضة.

كذلك معجزات الأنبياء هي تأييد من الله تعالى لهم لهداية البشر، أما السحر فهو إضلال للبشر، وإبعاد لهم عن الله تعالى.

والذي يظهر في هذه المسألة : أن السحر له حقيقة وتأثير، لكن ذلك التأثير متوقف على قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

[البقرة:١٠٢].

لكن لا يعني هذا أنه لا يوجد من أنواع السحر ما هو تخييل وخفة يد وما شابه ذلك.

قال ابن حجر: «وقال القرطبي السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته وأكثرها تخييلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:١١٦].

مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصياً، ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرًا في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم»[(١)].

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢٢٣.

تأثير السحر

السحر وتأثيره على الأعيان، وحقيقة ذلك التأثير، ونطاق ذلك التأثير، من المسائل التي تثار في باب الحديث عن السحر.

فهل للسحر تأثير؟

وما حدود ذلك التأثير؟

وهل تأثيره مستقل بذاته أم مرتبط بالمشيئة؟

في هذا المبحث سأجيب على كل تلك التساؤلات.

أما هل للسحر تأثير؟

فنجد الجواب عنه فيما يلي:

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالآية الكريمة تذكر لنا أثراً من آثار هذا السحر، وهو أنه يؤثر في صرف القلوب المتحابة عن بعضها البعض، فبعد الحب بغض، وبعد القرب والتآلف بعد وتنافر، بل قد يصل الحال بالزوجين إلى الطلاق[(٢)].

ويكون ذلك التأثير من خلال «ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك، أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة»[(٣)].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٤٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٤.

وذكر في الآية التفريق بين الزوجين، ليدلل على أنه ما دام السحر أثر على الزوجين «مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ؛ لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]»[١]، فمن باب أولى أن يؤثر على غيرهما.

قال الشوكاني رحمه الله: «في إسناد التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب والبغض، والجمع والفرقة، والقرب والبعد.

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة؛ لأن الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر، وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره.

وقالت طائفة أخرى: إن ذلك خرج مخرج الأغلب، وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه ، وقيل: ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

والحق أنه لا تنافي بين قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢] وبين قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن أذن الله بتأثيره فيه.

وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة»[٢].

وقال القرطبي رحمه الله أيضًا مبيناً أن للسحر تأثيرًا في القلوب وتفريقًا بين المتحابين: «ولا ينكر أن السحر له تأثير في القلوب، بالحب والبغض، وبإلقاء الشرور حتى يفرق الساحر بين المرء وزوجه، ويحول بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام، وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة»[٣].

واستدل ابن قيم الجوزية بقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④﴾ [الفلق:٤] على إثبات تأثير السحر[٤].

إذن فمسألة تأثير السحر مفروغ منها، وأنها ثابتة وأمر مجمع عليه، وإنما حدث خلاف في حدود ذلك التأثير، وقد بين الشوكاني والقرطبي فيما سبق هذه المسألة بما لا يحتاج إلى مزيد تفصيل.

أيضًا فإننا نجد فيما سبق من كلام الشوكاني رحمه الله إجابة لبقية التساؤلات وهي:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٥٥.

(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٦٣٤.

حدود تأثير السحر، وعلاقته بالمشيئة:

فتأثير السحر عام لا يختص بالزوجين فقط، كما أن هذا التأثير خاضع لمشيئة الله تعالى، وليس مستقلاً بذاته، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

ومما يدل أيضًا على تأثير السحر قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه:٦٦-٦٨].

فيذكر الله تعالى هنا أن السحر أثر في العيون، بل وصل الأمر إلى أن خاف موسى عليه السلام، على خلاف في السبب الذي خاف من أجله موسى، أهو خوف طبيعي على نفسه، أم خاف أن يلتبس الأمر على القوم فينصرفوا عن اتباعه[1].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨٣.

وصف الحق بالسحر

الحق في كل العصور يتعرض لحملات تشويه من قبل أهل الباطل، ومن خلال مطالعتنا لكتاب الله تعالى نجد بأن الكفار قد ألصقوا بالحق كل نقيصة وعيب.

وليتضح هذا الأمر، سأتناول هذه القضية من خلال النقاط الآتية:

أولًا: وصف الكتب المنزلة بالسّحر:

وكما وصف المشركون رسلهم بالسحرة، كذلك فقد وصفوا ما أنزل عليهم من الكتب بالسحر، والغاية هنا هي الغاية هناك، وهي التنفير عن الوحي والرسل، والصد عن سبيل الله، والكذب على الجماهير التي تبحث عن الحق وتطلبه.

وسأذكر هنا نماذج دالة على وصف الكفار للكتب المنزلة بالسحر، فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام:٧].

فيخبر الله تعالى أن الكفار الذين كتب الله عليهم الشقاء في الدنيا، والعذاب والنكال في الآخرة، مهما بذل معهم الرسول من الوسائل والحجج، فسيقابلونها بالتكذيب وينسبونها إلى السحر[2]، ولذلك ذكر الله تعالى أن المشركين لو عاينوا تنزيل

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٨٩.

الكتاب ولمسوه بأيديهم؛ ليتحققوا من أنه ليس بسحر يخدع العيون[1]، لما قابلوا ذلك إلا بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧].

والله يخبر عنهم هنا أنهم سيقولون ذلك جازمين به غير شاكين فيه، فمن يهدي من أضل الله؟!

قال الشوكاني رحمه الله عند تفسير الآية السابقة: «في هذه الجملة بيان شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتابًا مكتوبًا في قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة فلمسوه بأيديهم، حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس، لقال الذين كفروا منهم: إن هذا إلا سحر مبين، ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا»[2].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧].

يذكر تعالى أن أهل الكفر حينما يسمعون آيات الله تخبرهم بأنهم مبعوثون بعد الموت، فإنهم يسارعون إلى اتهام هذا الوحي المنزل بأنه من قبيل السحر، وليس أي سحر، بل سحر بيّن غاية البيان وواضح غاية الوضوح.

قال الطبري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧]: «أي: ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول، إلا سحر لسامعه، مبين لسامعه عن حقيقته أنه سحر»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣﴾ [سبأ:٤٣].

وما زال أهل الشرك والتنديد يتخبطون في غيهم وضلالهم، فمرة يتهمون المرسل ومرة يتهمون الرسول، ومرة يتهمون الوحي، وفي هذه الآية الكريمة يتهمون الرسول بأنه صاد عن دين الآباء والأجداد، ثم نراهم مرة أخرى يتهمون الوحي المنزل بأنه إفك افتراه الرسول، وفي آخر المطاف، حينما رأوا بأن الحق يظهر والناس يدخلون في دين الله أفواجاً، نجدهم يتهمون الوحي بأنه سحر واضح بيّن، وربما اقتسموا هذه التهم فيما بينهم، فمنهم من يقول إفك ومنهم من يقول سحر، وهكذا[4].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٨٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١١٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٥١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣١٠.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٠﴾ [الزخرف:٣٠].

حينما أتى الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، لم يكن أمام المشركين والمكذبين إلا طريقان اثنان لا ثالث لهما:

- إما أن يسلموا ويذعنوا للحق.
- وإما أن يكفروا ويجحدوا الحق -مع علمهم أنه حق واضح بين لا مرية فيه-.

لكن هذا الأخير سيوقعهم في حرج، وهو أنهم أمام حق واضح غاية الوضوح، فلا بد من تهمة يلصقونها بالوحي -الحق الذي جاءهم- حتى يبرروا كفرهم وعنادهم، فلم يجدوا أمامهم سوى اتهام الوحي بأنه من قبيل السحر.

قال الطبري رحمه الله: «ولما جاء هؤلاء المشركين القرآن من عند الله، ورسول من الله أرسله إليهم بالدعاء إليه ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ يقول: هذا الذي جاءنا به هذا الرسول سحر يسحرنا به، ليس بوحي من الله ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ يقول: قالوا: وإنا به جاحدون، ننكر أن يكون هذا من الله»[(١)].

فقدحوا -بهذه التهمة الكاذبة- قدحا شنيعا في الوحي الحق؛ حينما جعلوه من قبيل السحر، الذي لا يتعاطاه إلا أخبث الخلق وأرذلهم[(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٥.

وعجيب حال هؤلاء المشركين، نجدهم يتهمون الوحي الذي نزل على الرسول بأنه سحر، ثم نجدهم لا يمانعون أن يتبعوا هذا الوحي نفسه الذي اتهموه بأنه سحر، لكن بشرط أن ينزل على رجل من القريتين عظيم، فيا له من تخبط وتناقض صارخ، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف:٣١].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٧﴾ [الأحقاف:٧].

«يقول تعالى مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: سحر واضح»[(٣)].

فالله تعالى يريد أن يقيم الحجة البالغة على الخلق؛ حتى لا يبقى لمعتذر عذر، لذلك كان الوحي الذي أنزله الله تعالى على رسله في غاية الوضوح والبيان، وكان كله حقًّا لا مرية فيه ولا شك.

لكن من طبع الله على قلوبهم، قابلوا هذا الحق بالصد والاعراض، وألصقوا به التهم الكاذبة؛ ليبرروا كفرهم وعنادهم، فنجدهم هنا يتهمون الوحي المنزل من عند الله بأنه ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعنون: هذا القرآن

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٧٥.

خداع يخدعنا، ويأخذ بقلوب من سمعه -منا-فعل السحر ﴿مُّبِينٌ﴾..: يبين لمن تأمله ممن سمعه أنه سحر»[1].

وما ذلك إلا للتملص والهروب من التصديق والإيمان، ولتنفير الناس من الالتفاف حول الأنبياء والرسل والإيمان بما أوحاه الله إليهم من الكتاب.

وما يفعله المكذبون من وصف الوحي بالسحر المبين هو من «باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبين السحر من المنافاة والمخالفة ما هو أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق -الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك وفاق بضوئه ونوره نور الشمس ، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة- بالباطل الذي هو السحر الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله وهل هذا إلا من البهرجة؟»[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

لما بعث الله تعالى النبي محمدًا[3] صلى الله عليه وسلم، وأيده بالبينات التي من أعظمها الوحي -القرآن- قال أهل الشرك ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فاتهموا الوحي بالسحر البين الذي لا خفاء فيه، وهم حينما اتهموه بذلك يعلمون أنهم كاذبون، لكنه العناد والاستكبار، وإلا فلا تشابه ولا تقارب بين الوحي الذي هو غاية ومنتهى الحق، وبين السحر الذي هو غاية ومنتهى الباطل.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر:٢٤].

ما زالت التهمة للوحي بأنه سحر مستمرة، ولا يزال الكفار يتواصون بها، فبعد أن يبهرهم الحق المبين، ويدحض باطلهم الوحي الكريم، لا يجدون أمامهم سوى اتهام الوحي بأنه سحر، وهذا السحر تعلمه من غيره»[4].

وهذه التهمة لم تأت إلا بعد اجتماعات ومداولات استنفد فيها المشركون كل التهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٩٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٠.

(٣) ومنهم من يقول بأن النبي الذي اتهموا ما جاءهم به من الوحي بالسحر، هو عيسى عليه السلام وليس محمدا صلى الله عليه وسلم، ذكر ذلك الشوكاني ورجحه.
انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٦٣.
وفي كلا الحالين فالمقصود أنهم اتهموا الوحي المنزل والآيات بأنها من قبيل السحر.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٦.

والافتراءات ضد الرسول، وما أتى به من الوحي المبين.

وعجيب حالهم، كيف يصفون ما هو حق مبين، بما هو باطل مبين؟!

إذن فيما تقدم من الآيات بيّنت أن الكفار قد اتهموا الوحي بأنه من قبيل السحر، وكان لهم من وراء هذه التهمة أهداف وغايات من أهمها هدفان اثنان:

الهدف الأول: ليبرروا لأنفسهم الكفر والتكذيب.

الهدف الثاني: لينفروا الناس ويبعدوهم عن اتباع الوحي.

ثانيًا: وصف الرسل بالسّحر:

كثيرًا ما اتهم الكفار الرسل بالسحر، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

قال فرعون عن موسى في موطن من المواطن: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

وهو بهذا الاتهام يريد التنفير من اتباع موسى عليه السلام؛ ولذلك أخبر فرعون قومه بأن هدف موسى هو إخراجهم من أرضهم وديارهم، وبما أن الإخراج من الديار صعب على النفس باعتبار الحب الفطري المغروس في النفوس للوطن والبلاد، فقد استغل فرعون هذا الأمر، وصور لقومه موسى بأنه ساحر، وسحره خطير جداً يصل تأثيره إلى حد الإخراج من الديار، فمن أراد البقاء في دياره ووطنه فيجب عليه أن يقاطع هذا الساحر ويعاديه، وهذه التهمة بالسحر كما ألصقت -زورًا وبهتانًا- بموسى عليه السلام ألصقت أيضًا -زورًا وبهتانًا- بهارون عليه السلام.

قال تعالى حاكياً عن الكفار: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه:٦٣].

وفي موطن آخر نجد أن الطغاة قد أجمعوا على اتهام موسى بأنه ساحر؛ حينما لم يقدروا على مواجهة ما جاء به من الحق والدين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

أي: أنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، وكاذب في دعواه بأنه نبي مرسل إليهم من الله[1].

قال تعالى عن كفار قريش حينما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً ومبشرًا ونذيرًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣١٥.

﴿هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس:٢].

هذه الآية وردت فيها قراءتان: القراءة الأولى : بإثبات الألف، فيكون الموصوف بالسحر هو الرسول، والقراءة الثانية : بحذف الألف فيكون الموصوف بالسحر هو الوحي أو الشرع الذي بعث به الرسول[(١)].

وحجتهم في هذه القراءة «أن السحر يدل على الساحر ، لأن الفعل لا يكون إلا من فاعل ، والساحر قد يوجد ولا يوجد معه السحر»[(٢)].

وفي كلا الأمرين المقصود واحد وهو إثبات تهمة السحر؛ ليتم بعد ذلك التنفير والتشهير، والصد عن سبيل الله تعالى.

المهم أن كفار قريش تعجبوا من هذا الرسول البشري، وظنوا جهلاً أنه لا يمكن أن يكون الرسول إلى البشر إلا ملكاً، ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى ما بعث قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا رجالاً من البشر، هذا التعجب الاستنكاري قادهم إلى اتهام النبي المرسل بأنه ساحر، بل وصفوا سحره بأنه بين واضح، وهذا من جهلهم وسفههم، وإلا فهم يعرفون السحرة ونفثهم وعقدهم وتمتماتهم، وليس هذا مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، بل هذا النبي الكريم قد جاء لمحاربة السحر والسحرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر...)[(٣)]، فكيف يتناقض مع نفسه؟!

فيحارب السحر في الوقت الذي هو فيه يشتغل به، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وهاهم أيضًا مرة أخرى يتهمونه بالسحر في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص:٤].

فاتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر، وما فعلوا ذلك إلا من أجل التنفير عنه، والصد عن اتباع ما جاء به من الحق والدين، وكذلك هي سنة الكافرين مع رسلهم.

بل ما بعث الله تعالى رسولاً إلا واتهمه قومه بالسحر، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

وهم بهذا الاتهام يهدفون إلى هدم الرسالة، والطعن في الرسل لتنفير الناس عنهم؛ لأن كلاً من اتهامهم بالسحر أو

(١) انظر: معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣٤٢.
(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٣٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩ .

الجنون يكفي لتشويههم وتشويه ما جاءوا به من الحق والدين، ونجد تاريخ الكفر ممتدًا إلى عصرنا الحديث، فنرى الحملات الإعلامية المتواصلة ضد أتباع الرسل من العلماء والدعاة، واتهامهم بشتى التهم، بهدف إبعاد الجماهير عنهم، حتى لا تتفطن الأمة لما يراد بها ويخطط لها من قبل الكافرين والمنافقين.

ثالثًا: وصف المعجزات والحجج بالسّحر:

إن موسى عليه السلام كان من أكثر الأنبياء تعرضاً للاتهام بالسحر، وما جاءهم بآية من آيات الله تعالى الدالة على صدق نبوته ورسالته، إلا وسارعوا لاتهامه واتهام ما جاء به بأنه سحر.

ولعل من أسباب ذلك، أن مهنة السحر كانت رائجة في عصرهم.

قال تعالى وهو يذكر بعض الآيات والمعجزات التي أيده الله بها لدعوة قومه إلى الله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل:١٢-١٣].

فكذبوا الرسول، وجحدوا الآيات، وجعلوا ما أقامه الله تعالى دليلاً لهدايتهم، من قبيل السحر والشعوذة، وزعموا أن هذه الآيات سحر بين وواضح لا يخفى على أحد، فاستحقوا بذلك العذاب، وباءوا بالخسران في الدنيا والآخرة.

وكذلك نجد الأمر في القوم الذين بعث الله إليهم عيسى عليه السلام، فقد أمده الله تعالى بمعجزات وآيات كثيرة، لا لشيء إلا لتقام عليهم الحجة، ويتبين لهم طريق الهداية واضحًا جليًّا، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١١٠].

فوصف القوم الكافرون المعجزات والآيات البينات الواضحات بالسحر، كما في قراءة من حذف الألف في قوله: ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، ووصفوا الرسول بالساحر على قراءة من أثبت الألف في قوله: ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وكلها قراءات صحيحة[1].

كذلك فإن أهل الشرك والوثنية قد وصفوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه

(١) انظر: الحجة للقراء السبعة، الفارسي.

وسلم من الآيات والمعجزات بالسحر، رغم يقينهم بأنه ليس بساحر ولا كاهن، ولكنه الحقد والحسد والكبر المغروس في القلوب الضالة.

فنجد كفار قريش في موقف من المواقف يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم معجزة يرونها بأم أعينهم؛ ليستدلوا من خلالها على صدق نبوته ورسالته، وأنه مؤيد من الله تعالى بالمعجزات والبراهين، فطلبوا منه أن يشق لهم القمر في ليلة البدر، وزعموا أنهم سوف يؤمنون ويصدقون بما جاء به.

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم حريص على هداية قومه؛ فقد توجه إلى ربه تعالى طالباً منه أن يؤيده بهذه الآية العظيمة؛ حتى لا تبقى لأحد حجة على الله تعالى، فاستجاب الله تعالى لنبيه، وشق له القمر شقين، لكن شيئاً مما وعده به الكفار لم يحدث، بل قابلوا ذلك بالعناد والاستكبار، وفسروا هذه الآية والمعجزة العظيمة بأنها من قبيل السحر، فكانوا بهذا من المعاندين، وبالعذاب من الموعودين[(١)].

قال تعالى حاكيًا عن نبأ انشقاق القمر:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾

[القمر: ١-٢].

وزعموا أن هذه الآية العظيمة من قبيل السحر الذاهب الذي لا يثبت، أو من قبيل السحر الشديد القوي الدائم الذي أصبح لا يتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم، بخلاف السحرة الذين قد يقدرون على شيء أو شيئين فقط[(٢)].

إذن هؤلاء ثلاثة من الأنبياء والرسل من أولي العزم، أيدهم الله بالآيات والمعجزات، فما كان أمام القوم الكافرين إلا التهرب من اتباع الحق بحجة أنه من قبيل السحر، مع تمييزهم بين ما هو سحر وما ليس بسحر، ولكنه العناد والاستكبار.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٦٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٩٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٩٠.

حكم السحر

السحر قضية من القضايا التي تحدث عنها القرآن كثيرًا، وزاد بيانها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، كما أننا نجد العلماء والفقهاء قد أفردوا لها في كتبهم فصولًا وأبوابًا، وتحدثوا عنها بتفصيلات وتفريعات، وما ذلك إلا دليل واضح على أن هذه المسألة من المسائل الشرعية التي يتعلق بها كثير من الأحكام.

وفي هذا المبحث سأتكلم على كون السحر علمًا، وعلى حكمه من خلال مسألتين:

أولًا: إثبات أن السحر علم من العلوم:

لا ينكر أن السحر علم من العلوم الموجودة قديماً من حيث الأصل، ومع تقدم الزمان حدثت لهذا العلم تطورات من حيث الوسائل فقط، أما من حيث الأصل فهو باق على ما هو عليه، وهذا الثبات في الأصل والتجديد في الوسائل، هو ما جعل هذا العلم يحفظ ويصان من الضياع والاندثار.

وإذا وقفنا مع آية سورة البقرة التي تحدثت عن السحر؛ فإننا سنخرج بيقين بأن السحر علم، وهذه هي المسألة الأولى.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢].

ففي هذا الآية الكريمة عدة مواطن أثبتت أن السحر علم، هذه المواطن هي:

قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢]

قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقال تعالى في موطنين آخرين: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١].

إذن من خلال ما سبق تبين لنا جلياً أن

السحر علم من العلوم، الذي له مصادره ومراجعه ورجالاته.

ثانيًا: بيان حكم هذا النوع من العلوم:

هذه المسالة هي الأهم في هذا المبحث، وهي بيان حكم هذا النوع من العلوم، وفي الآيات السابقة البيان الشافي والكافي لحكم هذا العلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالآية هذه مصرحة بأن السحر كفر.

والمعنى: أي أنك أيها الشخص إذا تعلمت هذا النوع من العلم فسوف يسلب منك دينك الحق وتكون من جملة الكافرين، ومادام أن هذا العلم يتسبب في كفر متعلمه، فما حكم هذا العلم إذن؟

الجواب في غاية الوضوح، إنه علم محرم، بل هو في درجة الكبائر من المحرمات، ولا يتعاطاه من في قلبه ذرة من إيمان.

قال النبي صلى الله عليه وسلم (اجتنبوا السبع الموبقات)[1] وعد منهن السحر.

والله تعالى قد دافع عن نبيه سليمان عليه السلام حينما اتهم بأنه كان ساحراً، وكان يسيّر من تحت يده بالسحر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

فنفى الله عن نبيه السحر؛ لأن السحر كفر ينزه عنه أنبياء الله ورسله.

قال ابن حجر: «وفي إيراد المصنف هذه الآية إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفّر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر»[2].

وقال الثعلبي عند قوله تعالى: «﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:١٠٢] بالسحر فانّ السحر كفر»[3].

والآيات والأحاديث الكثيرة التي تنفر من السحر وتحذر من الذهاب إلى السحرة أو تصديقهم، تعطينا بمجموعها حكم السحر وأنه كفر وشرك بالله العظيم.

فخلاصة هذا المبحث أن السحر علم من العلوم الكفرية التي نهى الله ورسوله عنها نهي تحريم، ورتبوا على ذلك العقاب في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩ .

(٢) فتح الباري ١٠/ ٢٢٥.

(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٢٤٤.

إبطال السحر

بما أنني أثبت فيما سبق بأن للسحر حقيقةً وتأثيرًا، فسأبين في هذا المبحث الطرق والوسائل لإبطال ذلك الأثر، وإزالة ذلك الضرر بإذن الله تعالى، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١ . السحر مهما عظم واشتد بأسه وخطره فهو باطل.

من خلال تتبع الآيات التي تتحدث عن السحر نجد أن الله تعالى يذكر فيها أن السحر باطل، وأن الساحر مهما بلغ من السحر فليس مفلحاً وعمله ليس موفّقاً، كذلك فالسحر من الفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد ولا المفسدين، وما كان كذلك فهو باطل، والسحر أيضًا من أسلحة الطغاة، ومعلوم أن الطغاة وكيدهم إلى تباب وبوار.

ولو تأملنا في هذه النصوص لتبينت لنا هذه الحقيقة جلية واضحة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس:٨١].

فيخبر موسى الطاغية فرعون ومن معه من السحرة بأن سحرهم باطل؛ لأنه من عمل المفسدين الذين لا يحبهم الله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤].

ولا يتم عملهم، ولا يجعل لهم التمكين والغلبة في الأرض على عباده الموحدين، فأذهب الله سحرهم بما أيد به نبيه موسى عليه السلام من الآيات[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس:٧٧].

قال الطبري رحمه الله: «قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يبقون»[2].

وما دام أن الساحر لا ينجح فسحره أيضًا لا ينجح وهو -وإن حدث له تأثير بمشيئة الله- إلى زوال وبطلان، فالفلاح معلق بكل ما يحبه الله ويرضاه، وليس من قبيل ذلك السحر.

وفرعون حينما استخدم الكيد ضد موسى عليه السلام، كان من أعظم الكيد السحر الذي أراد أن يصادم به الحقيقة التي جاء بها موسى عليه السلام، وقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم بأن كيد فرعون في تباب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧].

«قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار»[3]، فكتب الله الخسارة والبطلان على كل الكيد الذي جاء به فرعون وجنده

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٦٢.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ١٥٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٤.

وأعوانه من السحرة.

٢. طرق إبطال السحر كما ورد في القرآن الكريم.

لقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات تبين كيف يبطل السحر، وفيما يلي عرض لبعض تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾ [الشعراء:٤٥]

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله تعالى أن المعجزات والآيات التي أيد بها رسله من أعظم ما يبطل السحر؛ لأن السحر عبارة عن كيد البشر وكذبهم، ممزوجاً بمكر وكيد شياطين الجن، ولا ثبات له أمام آيات الله العظيمة.

وقد يقول قائل: كان ذلك مع معجزات الأنبياء وتحديداً مع موسى، فكيف نبطل السحر الآن؟

والجواب: أننا نبطله بإذن الله تعالى بمعجزة نبينا الخالدة وهي القرآن الكريم، عن طريق ما يعرف في الشرع بالرقية الشرعية، التي ترتكز أساساً على القرآن الكريم، وقد جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك وقال: **(وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم)**[(١)].

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة -التي هي من القرآن وهو معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة- رقية، والرقية نافعة من ذوات السموم ومن المس والسحر والعين.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن سورة البقرة: **(اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة)**. قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[(٢)].

فالقرآن الكريم معجزة باقية، يبطل الله به سحر الساحرين وكيدهم، كما أبطل الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الرقى بفاتحة الكتاب، ٧/ ١٣١، رقم ٥٧٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، ٤/ ١٧٢٧، رقم ٢٢٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، ١/ ٥٥٣، رقم ٨٠٤.

تعالى سحر سحرة فرعون بالعصى معجزة موسى عليه السلام.

ومما يبطل به السحر بإذن الله تعالى: التوكل على الله وعدم الخوف من كيد الساحرين.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٨].

فالخوف باب من أبواب تسلط السحرة على الناس؛ لذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦].

فالسحرة يستعينون بالخوف الذي في نفوس البشر للتأثير والسيطرة عليهم، ولكي نبطل على السحرة سحرهم لا بد أن نكون على ثقة تامة بالله تعالى، متمسكين به وحده، ولا نخاف أحداً سواه، ولا يتأتى لنا الأمان إلا بالتوحيد وصفاء العقيدة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

كذلك مما يبطل به السحر اليقين بأن الله مبطل كيد الساحرين.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس:٨١].

قال موسى ذلك متيقنًا بقدرة ربه تعالى، فاليقين الجازم بقدرة الله تعالى على إبطال السحر، من أعظم ما يبطل به السحر.

ولا شك أن هناك طرقًا لإبطال السحر، والتحصن منه، وردت في السنة وفي آثار السلف منها:

١ . تمر العجوة.

فقد بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا سماه: (باب الدواء بالعجوة للسحر)[(١)].

ثم ساق تحته الحديث التالي: عن عامر بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من تصبح بسبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم، ولا سحر)** وقال غيره: **(سبع تمرات)**[(٢)].

٢ . حل عقد السحر حين العثور عليه.

عن زيد بن أرقم، قال: **(سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً، فأرسل إليه رسول الله عليا رضي الله عنه، فاستخرجها فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال، فما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط)**[(٣)].

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، ٧/ ١٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر، رقم ٥٧٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، رقم ٢٠٤٧، واللفظ لمسلم.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٥/ ١٨٠،

جزاء السحرة

إن الضرر والفساد المترتب على فعل السحر لا يكاد ينكره إلا مكابر، فكم فتك بالمجتمعات، وفكك من أسر، وفرق من شمل بعد الاجتماع، وكم أفسد من عقول، وأمرض من أبدان.

والله تعالى لا يحب الفساد في الأرض، ولا يحب المفسدين، وقد وضع الله أحكامًا صارمة للقضاء على فساد السحرة، نجد تلك الأحكام مبثوثة في القرآن والسنة.

وفي هذا المبحث سأتحدث عن جزاء السحرة كما ورد في القرآن الكريم.

أولًا: جزاء السحرة في الدنيا:

نفى الله عنهم الفلاح، وأثبت لهم اسم الفساد، ووصفهم بالمفترين، وهذا من أقبح الجزاء وأشنعه، وهم مستحقون له جزاء ما تعاطوه من سحر وكفر بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس:٨١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه:٦١].

وفي هذه الآية أيضًا توعدهم الله تعالى بالهلاك والاستئصال في قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي يهلككم أو يستأصلكم[1].

وأخبر الله تعالى أيضًا أنه سيبطل عمل الساحرين، وأنه سيجعلهم ينقلبون بالهزيمة والخسارة.

قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف:١١٨-١١٩].

كما أن جزاء الساحر في الدنيا القتل، وهو مذهب الجمهور[2].

قال ابن قدامة: «وحد الساحر القتل، روي ذلك عن عمر، وعثمان بن عفان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، وهو قول أبي حنيفة ومالك... عن بجالة قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كل ساحر، فقتلنا ثلاث سواحر في يوم، وهذا اشتهر فلم ينكر، فكان إجماعاً، وقتلت حفصة جارية لها سحرتها، وقتل جندب بن كعب ساحراً كان يسحر بين

رقم ٥٠١٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧٦١.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨٠.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص ٣٣٤.

يدي الوليد بن عقبة»[1].

ثانيًا: جزاء الساحر في الآخرة:

أما عقوبة الساحر في الآخرة فهي مترتبة على عقوبته والحكم عليه في الدنيا.

فإن حكمنا عليه في الدنيا بالكفر والردة، فعقوبته يوم القيامة النار خالدًا فيها.

وإن لم نحكم عليه بالكفر والردة، فهو من المتوعدين بالعذاب إن مات ولم يتب -على خلاف في قبول توبته-، لكنه ليس من المخلدين في النار، ولو قتل في الدنيا حداً كان له ذلك كفارة يوم القيامة[2].

بعد هذه المقدمة عن جزاء الساحر والحكم عليه، يحسن بنا أن نتناول هذه القضية بنوع من التفصيل، وذلك من خلال مسألتين:

المسألة الأولى: حكم الساحر.

اختلف الفقهاء في حكم الساحر، هل يكفر بفعله السحر أم لا، على ثلاثة أقوال:

(١) المغني، ابن قدامة ٩/ ٣١،٣٠.
(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٤٩٠.

القول الأول: وهو مذهب الجمهور (أبو حنيفة[3]، ومالك[4]، ورواية عن أحمد، وهو المعتمد عند الحنابلة[5]) أن الساحر كافر يجب قتله، ولا تقبل توبته.

قال ابن تيمية رحمه الله: «أكثر العلماء على أن الساحر كافر، يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر ابن الخطاب، وعثمان ابن عفان، وحفصة بنت عمر، وعبد الله ابن عمر، وجندب ابن عبد الله، وروي ذلك مرفوعا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم»[6].

وقال أيضًا: «وقد يستدل على أن المفسد متى لم ينقطع شره إلا بقتله، فإنه يقتل، بما رواه عرفجة الأشجعي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(من أتاكم وأمركم جمع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه)**[7]»[8].

وقال أبو حنيفة رحمه الله: «الساحر جمع

(٣) انظر: الدر المختار وحاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٠، فتح القدير، ابن الهمام ٦/ ٩٩.
(٤) انظر: التاج والإكليل لمختصر خليل، العبدري ٨/ ٣٧١، بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٤٢.
(٥) انظر: زاد المسير ١/ ٩٦.
(٦) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩/ ٣٨٤.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم ١٨٥٢، ٣/ ١٤٧٩.
(٨) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٣٤٦.

مع كفره السعي في الأرض بالفساد»[1].

وقال ابن قدامة رحمه الله: «قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته. وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر، فإن حنبلًا روى عنه قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرى أن يستتابوا من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع يعني يخلى سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل على أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفره لقتله، وقوله في معنى المرتد، يعني في الاستتابة...وقال: قال علي رضي الله عنه: الساحر كافر، ويحتمل أن المدبرة تابت فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها، ويحتمل أنها سحرتها بمعنى أنها ذهبت إلى ساحر سحر لها»[2].

وقال أبو عبد الله المواق المالكي: «قول مالك وأصحابه أن الساحر كافر بالله تعالى، قال مالك: هو كالزنديق إذا عمل السحر بنفسه قتل، ولم يستتب»[3].

القول الثاني: وهو رواية عن الإمام أحمد[4] وإسحاق ابن راهويه[5]، أن الساحر يجب قتله، ولم يقطعا بكفره.

قال ابن قدامة: «وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر، فإن حنبلاً روى عنه قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرى أن يستتابا من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع يعني يخلى سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل على أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفره لقتله»[6].

وقال الماوردي مبيناً مذهب إسحاق وأحمد: «والثاني وهو مذهب أحمد ابن حبل[7]، وإسحاق ابن راهويه، أن الساحر يجب قتله، ولم يقطعا بكفره»[8].

القول الثالث: مذهب الشافعي، وهو أن ما يفعله الساحر من السحر أنواع، فلا يكفر الساحر ولا يجب به قتله، إلا أن يكون ما يسحر به كفراً، فيصير باعتقاد الكفر كافراً، يجب قتله، بالكفر لا بالسحر[9].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦٢٨.
(٢) المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٩.
(٣) التاج والإكليل لمختصر خليل، العبدري ٨/ ٣٧١.
(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٢.
(٥) انظر: الحاوي الكبير، الماوردي ١٣/ ١٦٥.
(٦) المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٩.
(٧) الصواب أنها رواية عن أحمد.
(٨) الحاوي الكبير ١٣/ ١٦٥.
(٩) انظر: الأم، الشافعي ١/ ٢٩٣.

قال النووي مبيناً مذهب الشافعي: «عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع... وأنه قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر، عزر واستتيب منه، ولا يقتل عندنا، فإن تاب قبلت توبته»[(١)].

أدلة الجمهور القائلين بكفر الساحر:

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢].

ووجه الاستدلال في الآية:

- أنه نفى عن سليمان عليه السلام الكفر الذي سببه تعلم السحر.
- أنه صرح بكفر الشياطين الذين يعلمون الناس السحر.
- ذكر في الآية أن الملكين يحذران طالب السحر من تعلم السحر لأنه كفر، ويكفر متعلمه.
- أن الله تعالى نفى النصيب في الآخرة عن متخذي السحر، ونفي النصيب بالكلية لا يكون إلا للكفار.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩].

وجه الاستدلال من الآية: أن الآية نفت على وجه العموم جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم، ولا ينفى الفلاح العام عن أحد إلا إذا كان كافراً ولا خير فيه[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣]

ووجه الاستدلال من الآية: قول ابن كثير رحمه الله: «وقد استدل بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف»[(٣)].

وحينما ذكر السحر في مقابل الإيمان والتقوى، دل على كفر الساحر، كما قال الجصاص[(٤)].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ١٧٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٩.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٦٥.

أيضًا لا يقال للمؤمن المتقي: لو أنه آمن واتقى، وإنما يقال ذلك لمن كفر بالله، فدل ذلك على أن الساحر قد كفر بالله، كما قال حافظ حكمي[1].

أدلة القول الثاني:

قال عمر ابن الخطاب: «اقتلوا كل ساحر»[2]

وجه الاستدلال: أن عمر أمر بقتل الساحر، ولا يدل القتل على الكفر.

أدلة القول الثالث:

ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها باعت مدبرة لها سحرتها[3].

وجه الاستدلال: أن عائشة رضي الله عنها لم تحكم عليها بالكفر، مع إقرار الجارية بأنها قد سحرتها.

ومن خلال النظر والتأمل في أدلة الأقوال السابقة، فإن أدلة القول الأول قوية وصريحة وواضحة، في تكفير الساحر.

أما أدلة القول الثاني، فلا دلالة فيه على عدم كفر الساحر؛ لأن لفظ: اقتلوا، تفيد أن عقوبة الساحر القتل، ولا تنفي عدم كفره، فكفره ثابت في أدلة أخرى، بينتها في أدلة القول الأول.

وأما دليل القول الثالث، وهو حديث عائشة، فإنه قد خالفها فيه كثير من الصحابة، ويحتمل أن المدبرة قد تابت فسقط عنها حكم القتل والكفر[4].

فأقوى الأقوال في هذه المسالة هو قول الجمهور، وهو القول بكفر الساحر، وذلك لقوة وصراحة ما استدلوا به من أدلة.

وممن رجح هذا القول ابن قدامة[5] وشيخ الاسلام ابن تيمية[6].

المسألة الثانية: عقوبة الساحر.

بعد أن تحدثت عن حكم الساحر، وبينت بأنه كافر، أنتقل هنا إلى الحديث عن عقوبته.

اختلف العلماء في عقوبة الساحر إلى قولين:

القول الأول: وهو ما ذهب إليه أكثر أهل العلم، ولم يعلم عن الصحابة سواه، وهو قول الإمام ابي حنيفة مالك ورواية عن أحمد، وهو المعتمد عند الحنابلة، أنه إذا ثبتت جريمة السحر بحق إنسان بإقرار أو بيّنة، وجب قتله مطلقاً من غير استتابة، إلا أن يأتي تائباً قبل أن يقدر عليه.

نقل ابن قدامة عن جماعة من الصحابة قتل الساحر بدون استتابة[7].

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ حكمي ٢/ ٥٥٤.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٦٥٧، ٢/ ٣٠٢.
(٣) أخرجه الحكام في المستدرك، كتاب الطيب، رقم٧٥١٦.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١٧٥٧.
(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٠.
(٥) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٥.
(٦) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩/ ٣٨٤.
(٧) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٠.

قال ابن عابدين: «قال أبو حنيفة: الساحر إذا أقر بسحره أو ثبت بالبينة يقتل ولا يستتاب منه»[1].

وقال القرطبي: «ذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبتاً، لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سمى السحر كفرا بقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي»[2].

القول الثاني: وهو مذهب الإمام الشافعي، ورواية عن أحمد، أن الساحر إذا عمل بسحره ما يبلغ الكفر وجب قتله كفراً، بعد الاستتابة، أما إذا لم يبلغ الكفر وقتل نفساً، قتل قصاصاً، وما سوى ذلك يعزر.

قال الشافعي في الأم: «والسحر اسم جامع لمعان مختلفة ،فيقال للساحر صف السحر الذي تسحر به ،فإن كان ما يسحر به كلام كفر صريح استتيب منه فإن تاب، وإلا قتل، وأخذ ماله فيئاً، وإن كان ما يسحر به كلاماً لا يكون كفراً وكان غير معروف، ولم يضر به أحداً نهي عنه فإن عاد عزر»[3].

وكذلك قال ابن المنذر كما نقل عنه القرطبي، بأن الساحر إذا ثبت عنه أنه سحر بكلام يكون كفراً فإنه يجب قتله إذا لم يتب، إما إذا لم يبلغ سحره الكفر فلا يقتل[4].

أدلة قول الجمهور:

استدل الجمهور بأدلة من الكتاب والسنة، منها:

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]

وجه الاستدلال: نفي الكفر عن سليمان عليه السلام في معرض اتهامه بالسحر، دليل على أن السحر كفر.

وحينما يحذر الملكان من أراد تعلم السحر، يعللان ذلك بأنه كفر ومن كفر بعد إسلامه فقد ارتد وعقوبة المرتد القتل؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من بدل دينه اقتلوه)[5].

قال عمر ابن الخطاب: «اقتلوا كل ساحر»[6].

«عن يحيى بن أبي كثير، قال: إن غلاماً

(١) الدر المختار وحاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٧.
(٣) الأم، الشافعي ١/ ٢٩٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله، ٤/ ٦١، رقم ٣٠١٧.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٦٥٧، ٢/ ٣٠٢.



لعمر بن عبد العزيز أخذ ساحرة فألقاها في الماء فطفت، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إن الله لم يأمرك أن تلقيها في الماء، فإن اعترفت فاقتلها»[١].

ونقل ابن حزم قتل الساحر عن عمر بن الخطاب، وحفصة، وعبد الله ابن عمر، وعبيد الله ابنه، وعثمان، وقيس بن ربيعة[٢].

قال ابن قدامة بعد أن ذكر من قال من الصحابة بوجوب قتل الساحر: «وهذا اشتهر فلم ينكر، فكان إجماعاً»[٣].

أدلة القول الثاني:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)[٤].

وجه الاستدلال: أن النفس معصومة ما لم ترتكب أحد هذه الثلاثة الأمور.

ما ورد في الصحيحين من أن لبيد ابن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقتله[٥].

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها باعت مدبّرة لها سحرتها[٦].

وجه الاستدلال: «أنه لو وجب قتلها لما حل بيعها قاله ابن المنذر، وغيره»[٧].

تحرير محل النزاع:

اتفق الفقهاء على أن الساحر الذي بلغ بسحره الكفر يقتل مطلقًا، ويقتل أيضًا الساحر الذي لم يبلغ بسحره الكفر، لكن قتل بسحره نفسًا معصومة.

إنما حصل الخلاف في الساحر الذي لم يبلغ بسحره الكفر، ولم يقتل نفساً معصومة، فالجمهور كما تقدم، يقولون بقتله مطلقاً، ولو لم يكفر بسحره ؛ للأدلة الواردة، ولأن السحر الحقيقي لا يتأتى إلا بالتقرب إلى الشياطين، وعبادة الكواكب، ونحو ذلك.

وذلك عين الكفر، لذا كان حكمه القتل مطلقًا.

والشافعي ومن معه قالوا: لا يقتل، وإنما يعزر.

سبب الخلاف:

من خلال ما تقدم يظهر أن سبب الخلاف بين الجمهور وبين الشافعي ومن معه هو:

---

(١) انظر: المحلى بالآثار ١٢/ ٤١١.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) المغني، ابن قدامة ٩/ ٣١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أنّ النّفس بالنّفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر، رقم٥٧٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السحر، رقم ٢١٨٩، عن عائشة رضي الله عنها.
(٦) أخرجه الحكام في المستدرك، كتاب الطيب، رقم٧٥١٦.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١٧٥٧.
(٧) أضواء البيان ٤/ ٥٥.

هل السحر الحقيقي لا يتأتى إلا بالكفر، أم أن من السحر الحقيقي ما ليس بكفر؟

فالجمهور يرون أن السحر الحقيقي لا يتأتى إلا بالتقرب إلى الشياطين، وعبادة الكواكب ونحو ذلك، وذلك عين الكفر.

والشافعي ومن معه يرون أن من السحر الحقيقي ما يتأتى بدون الشرك والكفر، ولذا فصلوا فيه.

ومن خلال النظر في أدلة القولين: يظهر أن أدلة الجمهور أقوى دلالة في قتل الساحر الذي ثبت سحره، ولأن السحر الحقيقي لا يتحصل إلا بالتقرب إلى الشياطين، والشرك والكفر بالله العظيم، فيكون حد الساحر القتل مطلقًا.

وأما إن كان سحره من باب السحر المجازي، الذي يتأتى بالأدوية وبالكلام وخفة الحركة ونحو ذلك، فليس بكفر، بل معصية، حق صاحبها التعزير إذا لم يقتل نفسًا.

وأما قول المذهب الثاني: بأن السحر الحقيقي يتأتى بدون الشرك، ومحاولة «بعضهم من الجمع بين الأدلة المذكورة بحمل السحر على الذي يقتضي الكفر في قول من قال بالقتل، وحمله على الذي لا يقتضي الكفر في قول من قال بعدم القتل لا يصح ؛ لأن الآثار الواردة في قتله جاءت بقتل الساحر الذي سحره من نوع الشعوذة كساحر جندب الذي قتله، وليس ذلك مما يقتضي الكفر المخرج من ملة الإسلام، كما تقدم إيضاحه ؛ فالجمع غير ممكن»[(١)].

أما ما استدل به أصحاب القول الثاني من حديث حرمة دم المرء المسلم إلا بإحدى ثلاث، فجماهير العلماء يرون بأن الساحر كافر، وعلى ذلك فهو حلال الدم، وعلى فرض أنه ليس بكافر، فإن هذا الدليل عام، وأدلة قتل الساحر خاصة، والخاص مقدم على العام.

وأما الاستدلال بقصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يقتل لبيد، فقد أجيب عنه بما يلي:

الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك قتل لبيد لكونه ليس بواجب، وإنما ترك قتله خشية أن تثار فتنة بين الناس، وهي أعظم من قتل رجل واحد، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس شراً**)[(٢)]، أو يكون في قتله تنفير عن الدخول في الإسلام[(٣)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أنّ النّفس بالنّفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢٣١.

وأما الاستدلال بفعل عائشة رضي الله عنها، حينما أعتقت جارية لها سحرتها.

فيقال: لعل سحر تلك الأمة لم يكن فيه كفر، كأن يكون عن طريق الأدوية وما شابه ذلك، أو أنها لم تعمل بنفسها السحر وإنما عمل لها، أو أنها تابت فسقط عنها حكم القتل والكفر بتوبتها.

موضوعات ذات صلة

الباطل، الشر، الشرك، فرعون، موسى عليه السلام